كتاب اليوم

الدنيا التى كانت

محمود عوض

الدنيا التى كانت

محمود عوض

كتاب اليوم

رئيس مجلس الإدارة

أحمد جلال

رئيس التحرير

علاء عبد الهادي

إهـــداء

إلى القلم الذى أحبه محمود عوض ودفع ثمنه مبكراً
إلى القارئ الذى استمد منه شرعيته

كتاب اليوم

أسسه مصطفى وعلى أمين ١٩٥١

رقم ٦٩٣
مارس ٢٠٢١

يصدر كل شهر عن

دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة - القاهرة

تليفون: ٢٥٩٤٨٢٢٣

تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الاخراج الفنى والغلاف

طارق عبد العزيز

التحرير:

تامر عرفات

عمرو أبو السعود

للإعلان

٢٥٧٨٦١٣٧ - ٢٥٧٥٩٤٥٥

أسعار البيع خارج مصر

سوريا ٢٠٠ ليرة. لبنان ٥٥٠٠ ليرة. الأردن ٣ دينارات الكويت ١,٢٥ دينار. السعودية ١٥ ريالاً. الامارات ١٣ درهمًا - البحرين ١,٢٠ دينار. سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٥ دينارات. المغرب ٣٧ درهماً. اليمن ٧١٥ ريالاً - رام الله ٢,٧٥ دولار. غزة ٢,٥ دولار

الاشتراك السنوى

داخل مصر	١٨٠ جنيهًا
الدول العربية	٢٩٠ جنيهًا ٥٠ دولارًا
الدول الأوربية	٥٣٠ جنيهًا ٩٥ دولارًا
أمريكا - استراليا - نيوزلاندا	٦٥٠ جنيهًا ٤٧ دولارًا

الموقع الالكترونى

http//ketabelyom.akhbarelyom.co

البريد الالكترونى

kitabelyom@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك

https://www.facebook.com/Ketabelyom

تخفيض ١٠٪ من قيمة الاشتراك لطلبة المدارس والجامعات المصرية

جملة مفيدة

إذا أردنا أن نؤرخ للصحافة المصرية فى نصف القرن الأخير ، هناك أشخاص لا يمكن أن نتجاهلهم ، أو نتجاوز دورهم أو رسالتهم ، باعتبارهم مؤثرين ، ورموزاً فى هذه المسيرة، حتى لو اختلفت مع طروحاتهم الفكرية ، لكن يبقى الاتفاق على أهميتهم ، وحجم تأثيرهم ، من هؤلاء الكاتب الراحل محمود عوض الذى لقب بعندليب الصحافة المصرية تأسياً بعبد الحليم حافظ عندليب الأغنية المصرية والعربية .

هذا اللقب لم يطلقه هو على نفسه ولكن أطلقه عليه الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس ، وراهن عليه ليكون أحد رموز جيل الستينات ، وخلال مسيرته الصحفية أتيح له الاقتراب من رموز مصر الفنية والثقافية والفكرية ، إلى حد لم يتح إلا لعدد محدود من رموز مهنة الصحافة ، وقدم للمكتبة العربية أكثر من ١٥ مؤلفاً ، من بينهما « أم كلثوم التى لا يعرفها أحد » والذى صدر عن هذه السلسلة التى بين أيديكم (كتاب اليوم) فى عدة طبعات نفدت جميعها ، وكرر عوض نفس الفكرة فى كتاب « عبد الوهاب الذي لا يعرفه أحد » الذي كاد أن يتسبب فى فقدانه لصداقته الوطيدة مع الراحل محمد عبد الوهاب،وكانت كتابته عن أى فنان أو مبدع بمثابة شهادة ميلاد.

رحل محمود عوض عن عالمنا عام ٢٠٠٩ ، قبل أن تنقلب الدنيا رأساً على عقب فى مصر والعالم ، وقبل أن تتغول السوشيال ميديا على كل مناحى الحياة ، ورغم ذلك تبقى لكتاباته التى بين أيدينا والتى مضى على نشرها فى صحف ومجلات داخل وخارج مصر أكثر من خمس عشرة سنة أهميتها ، سواء فى تفسير ما

استعصى على الفهم فى تحليل وتفسير قضايا مهمة فى ذلك الوقت داخل مصر أو خارجها ، أو حتى فى تفسير ما قد يستعصى على الفهم فى قضايا آنية حتى إلى يومنا هذا ، إذا طبقنا نفس المحددات والمعايير ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، التاريخ يعيد نفسه، هو مدرسة مفتوحة لمن يريد أن يتعلم ، ويتدبر ويفهم ، ولكن للأسف الذاكرة الجمعية المصرية تشبه ذاكرة السمكة ، وأحياناً نخوض المعارك نفسها ، وربما بنفس تفاصيلها ولكن الغريب هو أن نكرر نفس الأخطاء ، ولا نتعلم من دروس الماضى ، وكأننا نحتاج إلى اختراع العجلة فى كل مرة .

ربما يكون هذا أحد أسباب تحمسنا فى أخبار اليوم لنشر جانب من مقالات الكاتب الصحفى الراحل محمود عوض من جديد لتكون تحت أعين الأجيال الجديدة ، ورغم أنه يتحدث عن قضايا مرَّ على بعضها عشرات السنين ، ستجد ببساطة أنك لو أزلت الأسماء والتواريخ ، كأنه يتحدث عن أمور حياتية وقتية ، لم يكن محمود عوض يقرأ الطالع ، ولكنه كان صحفياً إعترك الحياة ، وسبر أغوار المهنة وكان أحد « أسطواتها » وتمكن أن يسمع ويرى ما لم يتح لغيره فحول هذا إلى مقالات بديعة .

الشىء المهم الذى نعيد تذكير قارئنا به ، أن الكتاب كما هو واضح من عنوانه يتحدث عن أحداث مضت وعن « الدنيا التى كانت » ، ويتناول أحداثاً مواكبة لتواريخ كتابتها ، لذا لزم التنبيه ، حتى يستطيع القارىء العزيز أن يعى ويفهم ، ويستخلص الدروس .

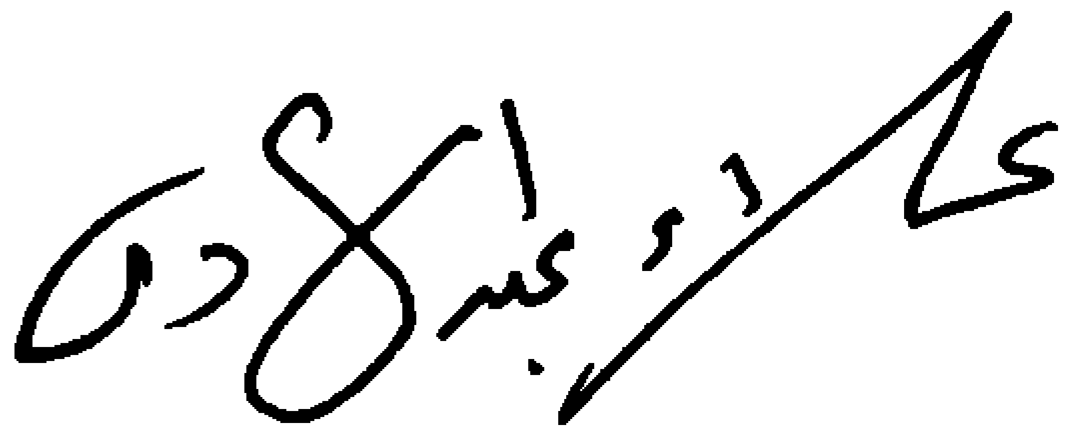

مقدمة

هناك نوعان من الكتاب.. نوع يقول عنه القارئ :لماذا يكتب؟ ونوع آخر يتساءل القارئ :لماذا لا يكتب؟

محمود عوض من النوع الثانى، من الأقلية، إنها الأقلية التى توقظ مجتمعها بين وقت وآخر على حقيقة، كيف يجب أن يعيش ويفكر.

ولأنها الأقلية، والضمير، والمستقبل قبل موعده، فإنها تتعرض بين وقت وآخر لسكاكين الأمر الواقع، سكاكين من المصالح العاتية، وما أكثر ما تعرض له محمود عوض من سكاكين ولكنه ظل كالجبل لا يعرف الانحناء. وقلماً ضد الكسر.

لم تتوقف محاولات قصف قلمه عند هذا الحد ولكن الأمر وصل إلى الحد الذى كتب عنه هو قائلا : لم يكن فى حياتى فى أى وقت سوى ما أكتبه وبسببه تم اعتقالى مرة، كانت فى حينها تمثل صدمة العمر كله لأنها نبهتنى إلى وجود مصر أخرى غير التى نعرفها، وبسببه صدر قرار جمهورى، بإبعادى عن الصحافة كلها إلى وزارة الإسكان .

ورغم كل هذا ظل محمود عوض قلماً بقوة مدفع وحدة سكين ودقة كمبيوتر وهدوء رسام وزهد ناسك وعرفناه ضميراً..

انه كاتب استثنائى تواجد فى فترة زمنية قلما يسمح لمصر أن تعيشها إلا ربع الساعة كل قرن.. وينتمى لجيل يقول هو عنه :فى قاموسى الخاص أنا أعتبر نفسى جزءاً من جيل عنده قدر كبير من الغضب، انه كان وقود التاريخ المصرى المعاصر بدون أن يحصل على جوائزه.. أيام عبد الناصر اعتبرونا صغاراً عليهم.. وأيام السادات اعتبرونا كبارا عليهم.. وفى عصر مبارك كانت مصر تدار ببيروقراطية مزعجة..

كنا وقوداً لتاريخ مصر ونحن فى الجامعة، وكل دفعتى فى الجامعة ظلت مجندة لمدة ٧ سنوات متواصلة من ١٩٦٧ وحتى١٩٧٤ ، وهذا الجيل عنده إحساس كبير

بالغضب فى أن التضحيات التى قدمها أكبر بكثير مما وجده.. ليس كجوائز لنفسه بل جوائز لبلدة .

إذن هى المعرفة.. الضمير.. الحب الذى من خلاله لخص روشتة العلاج عندما طالب بضرورة أن تستثمر مصر كل جيل من أبنائها فى موعده. وبأن يضيف كل جيل إلى انجازات الجيل الذى سبقه، لا أن يعيش عالة عليها أو يفرط فيها، غير مستوعب أصلا لقدر التضحيات التى تحملها جيل سابق وهو يسترد لمصر، والمصريين، حقوقاً منهوبة، ومن وحوش الغابة الدولية وغصباً عن إرادتها.

من خلال هذا الفهم أثارت كتاباته قضايا كبرى مازالت مستمرة معنا حتى الآن، كان هو مفجرها، وأحيانا كان يصبح وقودها.. قضايا باتساع العلم والفن والسياسة والدين والأدب والثقافة.. قد تبدوا قضايا متعددة.. لكنها كانت بالنسبة لمحمود عوض هماً واحداً مليئاً بها عقله وقلبه وضميره،لأنها كانت هموم ومواجع مع، ومن، واقعنا وعصرنا وأشواقنا وأحلامنا التى كانت تمشى على عجلات.

عندما جلست بين الأوراق ما تم نشره خارج مصر وما لم ينشر وظل حبيس أوراقه الخاصة أو ما كان يعده كمشروع لكتاب يتحين الفرصة لمراجعته أو إضافة ما استجد من أحداث كان فى ذهنى عدة أشياء.. أولاً جمع ما كان يعتبر علامة فارقة فى حياة قلم اعتبره وغيرى، قلم كان وسيظل فى مهمة وطنية.. قلماً توحد مع كاتبه فتحولا إلى دفتر أحوال وطن، وظل إلى الرمق الأخير ولاؤه للقارئ الذى يستمد شرعيته وأكسوجينه الذى يتنفسه من الاقبال على ما ينشره.

الأمر الثانى مبعثه إتاحة الفكرة التى جعلت العديد من كتبه تدرس فى العديد من مدارس وجامعات الدول العربية.. ورئاسته لتحرير جريدة الأحـرار التى شهدت نجاحاً غير مسبوق لجريدة حزبية وهو الكاتب المستقل.. قد حظيت بالعديد من رسائل الماجستير والدكتوراه على اعتبار أنها حدث فريد فى تاريخ الصحافة المصرية.

الأمر الثالث :ما الذى يمكن إتاحته من هذا القلم أمام الأجيال الشابة سواء ما كان ينشر فى مصر أو خارجها وما كان يطرحه من أراء وأفكار فى البرامج الإذاعية أو التليفزيونية إلى الحد الذى جعل وجوده أو ظهوره على الساحة الإعلامية

مناهضاً لاتفاقيات السلام بين مصر وإسرائيل.. الأكثر من هذا أن جعل وقف برنامجه الاذاعى من قلب إسرائيل كان احد البنود السرية لاتفاقية كامب ديفيد ..الأمر الأكثر إلحاحا هو الرغبة المعلنة والمطالبة من الكثير من القراء فى مصر والعالم العربى وكذا العديد من شباب وشيوخ مهنة الصحافة والإعلاميين بأن يتاح نشر العديد من الكتب التى كان قد أعلن عن أن بعضها على وشك الدفع إلى المطبعة وأن بعضها شبه مكتمل وان البعض الآخر مازال فى مرحلة إعادة الترتيب وإضافة ما استجد من تطورات وأن عبد الحليم الذى لا يعرفه أحد مازال محتاج إلى أن تهدئ هوجة عابرى السبيل.

لقد بدأ عمله بالصحافة وعمره سبعة عشر عاماً وتسعة أشهر كصحفى واعد ومحرر اقتصادي فكاتب ومختار من الجامعة العربية كواحد من أربع شخصيات على مستوى العالم العربى للقيام بتحرك إعلامى فى الولايات المتحدة للتعريف بالقضية الفلسطينية ومستشارا صحفيا لأول وفد برلمانى مصرى إلى الولايات المتحدة إلى نائب رئيس أخبار اليوم إلى رئيس تحرير جريدة حزبية وهو الكاتب المستقل، إلى كاتب مفصول وممنوع من الكتابة إلى قلم مغترب اضطرارياً فى كبريات الصحف العربية.

ورغم ما تعرض إليه من سكاكين وحروب وضرب تحت الحزام ومحاولات لكسر قلمه ظل هو نفسه الرجل الضمير.. لا المناصب أضافت إليه ولا انقطاعها خصم منه.. وظل على قناعته وإيمانه بأن مصر تكبر بقدر ما نضيف إليها و.. : يجب أن تكون الحقائق ولا شىء غيرها، متاحة بالكامل أمام كل جيل، حتى يصبح كل إنسان بعد ذلك حراً فى تكوين رأيه المستقل حول الواقع الذى يعيشه، يجب ألا نسمح لأحد بحذف بعض الحقائق وحجب بعضها الآخر .

عرف محمود عوض بامتلاك القدرة على البحث والتنقيب والتبسيط بأسلوبه السهل الرشيق وتميز قلمه بصفات كاسحة للألغام، والسعى الدائم لتطهير أرضا خطرة كاشفاً للقارئ عن مصادر قوة كانت غائبة ودافعاً إلى اقتحام العصر كى يعيشه بندية وعقل مفتوح ورأس مرفوعة.. لهذا لم يكتف بطرح القضايا ولكن كان الطرح دائماً مواكباً لطرح الأفكار الكفيلة بالنهوض من جديد.. من بينها طرحه

لقضية مأزق الصحافة المصرية ولم يكتف بتشخيص الأزمة ولكنه أسرع لإقامته مسابقة باسم جوائز الصحافة المصرية التى يقول عنها : هى فكرة. قام بتمويلها كبار الصحفيين من حر مالهم وكان إيمانى الثابت دائماً هو أن من الخطير للغاية أن يستسلم المرء لوهم الرضاء عن الذات ولخرافة أنه ليس فى الإمكان أفضل مما هو قائم. فكما هو حال الإعلام عموماً.. فإن الصحافة المصرية لا يجوز لها الاستسلام لمقولة أنها هى الرائدة فى العالم العربى لمجرد أنها كانت كذلك فعلاً ذات مرة. فالريادة امتحان عسير للنفسى تجدد مرة بعد مرة. فليس لأنك كنت رائداً قبل عشر سنوات، أو حتى قبل سنة واحدة، تصبح رائداً تلقائياً وأوتوماتيكياً إلى ما شاء الله. الريادة هى قدرة مستمرة على التجديد والابتكار وتحد متجدد مع الذات واستباق للمستقبل قبل وصوله. وإذا كان لدى الآخرين مال أكثر ونفوذ أكبر وبترول أوفر فإن لدينا ما هو أهم من كل هذا. لدينا عقول قادرة على التجديد والتطوير والابتكار . بالطبع كانت حياته الخاصة حقاً ممتلئة بالكثير والكثير من الاحداث والتشابكات والمواقف وان شئت فقل الكثير من الاسرار وبعضها كان موجعاً ومحملاً بالدموع أو الألام نتيجة لمواقف أونتيجة لمرحلة من التحولات والانقلابات على السياسات التى عاشها وفى قلبها.

كان محمود عوض عازفاً عن الحديث عن نفسه رغم الكثير الذى لديه ولهذا سأتوقف أمام وقائع محددة أحدها :

وأشير هنا إلى واقعة نشرتها صحيفة العربى كتبها الدكتور هشام عيسى الذى أشتهر بكونه الطبيب الخاص لعبد الحليم حافظ حيث نقل عن أحد ضباط جيشنا الذين وقعوا فى الأسر كيف تعرض هو وزملاؤه لاستجوابات مكثفة حول قراءتهم عن إسرائيل وسئلوا هل الجيش هو الذى يشترى لهم كتاب محمود عوض ممنوع من التداول الذى تم العثور عليه فى حقائب عدد من زملائهم، وكان من الكتب الأكثر مبيعاً فى مصر لسنوات؟

الحديث يطول عن محمود عوض الذى اشرأبت نحوه أعناق الأجيال الصحفية المختلفة، وظلت عيونها تتطلع إليه باعتباره قدوة ونموذجاً، وباعتباره صحفياً أصولياً.. أى ملتزم تماماً بقواعد المهنة كما ينبغى أن تطبق، وبأخلاق القلم كما

يفترض أن تكون، وبالعصرية كما يجب أن تلاحق، والكاتب الذى ينتمى إلى قبيلة انقرضت.. شيخها عالم بالأشياء، وأفرادها غاضبون نبلاء.. صمتهم فكر، وكلامهم عبر، وسيرتهم عطر.

محمود عوض كاتب سياسى صنعته نكسة يونيو، وأديب يميل إلى الفن.. اقترب من أم كلثوم فكشف لنا وجهها الآخر.. قال لعبد الحليم حافظ أرجوك لا تفهمنى بسرعة وصادق محمد عبد الوهاب حتى لحظاته الأخيرة.

دعنى اترك بين يديك قطعة من قلب محمود عوض وبعض من دفتر أحوال حال الدنيا وجانباً من صور طبق الأصل وبعضاً من على بياض وشىء من دنيا كاتب أحب القلم وأفنى حياته وعينه دائماً على القارئ.. كاتب غاص فى أعماق التاريخ واستخلص دروسه وفخاخه وطاف بين كبريات المكتبات والاطلاع على أحدث الكتب والإصدارات وقدم لنا عصارتها بقناعة أن مصر تستحق ما هو أفضل فى محاولة لاستشراف المستقبل. فظلت كتاباته تزداد قبولاً وكلما مر عليها الزمن ازداد تميزاً.

كاتب عاش متمردا اقتناعاً بأن التمرد لصالح المجتمع هو أقصى درجات الايمان بالمجتمع نفسه، والتفاؤل بمستقبله.. ولهذا كان طريقه لابد أن يتقاطع أحياناً، وغالباً مع الأمر الواقع، مع سلامة الأمر الواقع، وجبروت السلطة. ومع هذا ظل هو نفسه الرجل الضمير.. لا المناصب أضافت إليه ولا انقطاعها خصم منه.

طه عوض

■■ كل شىء بدأ وانتهى بهذه المكتبة

نعم.. مكتبة.. بسقف وجدران وبينهما كتب وموائد طويلة وكراسى.. ومن فوق تلك الكراسى بدأنا ندرك لأول مرة أن مصر هى مساحة أكبر بكثير من تلك المسافة التى تدور فيها حياتنا كل يوم.. ولم تكن تلك المسافة تزيد عن خمسة كيلومترات..!

ففى تلك المسافة كانت توجد كل المعالم الضرورية اللازمة لحياتنا. كانت هناك شجرة الدر فى أقصى الجنوب، يذكرنا اسمها بذلك الماضى التاريخى الحافل للمدينة.. وباللحظة التاريخية الحافلة الفاصلة التى تغير فيها مستقبل مصر من الهزيمة إلى النصر عندما جمعت أوروبا كل لصوصها وأفاقيها وأرسلتهم لغزونا فى أول حرب عالمية حقيقية عرفها التاريخ، وبسبب ربع ساعة فقط من التصميم والإرادة.. استطاعت امرأة واحدة أن تغير مستقبل مصر لستة قرون تالية.. ومن بعدها مستقبل العالم العربى كله.

كان هناك اسم تلك المرأة فى جنوب المدينة.. ثم بعدها شمالا كانت توجد دور سينما.. الكواكب.. وعدن.. وأوبرا.. وروكسى.. والنصر.. لكى نرى فيها طرزان والشجيع الأمريكانى الذى نعود بعده إلى بيوتنا متقمصين شخصيته، وكل منا لاوياً شفتيه، دافعاً الباب بحذائه، واضعاً يديه فى وسطه.. إلى أن تعيده الأسرة إلى رشده بنظرة عين.. فيحرص بعدها على أن يهجر أفلام الشجيع إلى أفلام محمد فوزى وأنور وجدى وفاتن حمامة.. الخ.. الخ.. وكان يوجد نادى كرة القدم.. ونادى البلدية.. والنادى اليونانى..

وكانت توجد مدارسنا فى أقصى الجنوب، وربما فى الضفة الأخرى من النيل، بينما توجد مدارس البنات فى أقصى الشمال.. فلقد كان واضحاً من البداية أن تعليم البنين يجب أن يتم جنوباً.. بينما تعليم البنات يجب أن يتم شمالاً.. حتى تكون هناك أقصى مسافة ممكنة بين الجنسين، وبالطبع لم نكن نخيب آمال الكبار مطلقاً فى فلسفتهم هذه.. فقد كانت تنطلق من بيننا بعثات تنوب عنا فى معاكسة البنات – كل البنات – ما عدا بنات شارعنا، فهؤلاء فقط ندافع عنهن ضد معاكسات الآخرين، إنه دفاع مشروع ومتوقع منا، ما دامت عائلة كل منا ليست مستعدة على الإطلاق لأن تغفر له

العودة بملابس ممزقة ووجه جريح، إلا فى حالة واحدة يجب أن يفصح عنها بمجرد ظهوره على ناصية الشارع.. هى حالة اشتراكه فى الدفاع عن إحدى بنات شارعنا الذى نقيم فيه.

و.. شىء آخر، الكتب.

لقد كانت حدود هذه المدينة، هذه المنصورة، تنتهى بالنسبة لنا بالمكتبة.. إنها لم تكن أى مكتبة، ولكنها كانت على وجه الدقة دار كتب ، إنها الدار التى تعرفنا فيها لأول مرة على مصطفى لطفى المنفلوطى وطه حسين وعبدالقادر المازنى واحمد أمين وعبدالعزيز البشرى.. الخ.. فهنا عرفناهم أوراقاً وأفكاراً وسطوراً تنبض بالحياة.. فكان هذا كافياً لكى يحرك فينا أيضا الأفكار والأحلام والإدراك العميق والإحساس بالمسئولية الكبرى عن هذا البلد الكبير الذى ننتمى إليه.. مصر.

لقد دقت مصر أبواب عقولنا بعنف فى هذا المكان بالضبط – دار الكتب – بمدينة المنصورة، دار كانت بحكم موقعها ذاته ترمز للأهمية الكبرى التى تعطيها المنصورة لعقول أبنائها، فهى تقع وحدها على النيل مباشرة ، وربما داخل النيل ذاته طالما أنها أقيمت فوق قطعة أرض منبعجة خصيصاً داخل مجرى النيل.. بكورنيش طويل جميل ونظيف يحتضنها بحذاء النهر.. ولا شىء يجاورها من الجهات الأربعة سوى الهواء النقى غير الملوث، ولو كانت مدينة أخرى تمتلك مثل هذا المكان الساحر.. فإنها كانت ستؤجره بالتأكيد لمقهى أو كازينو.. أو ربما كباريه، ولكن المنصورة هى وحدها التى تعطى أفضل أماكنها لعقول أبنائها، تعطيه لدار الكتب.

وفى تلك المكتبة كنا نجد أحدث الكتب التى تصدر من القاهرة، قبل أن تجدها عند باعة الصحف، ومن تلك المكتبة لم تصبح مصر نفسها فقط أكثر جمالاً بالنسبة لنا.. ولكنها المنصورة أيضاً.

كانت خريطة مصر تسجل المنصورة باعتبارها إحدى مدنها الكبرى.. ولكننا نحن فقط، صغاراً وأبرياء ونفيض إقبالاً على الحياة، كنا نراها قرية كبيرة أجمل وأفضل من ألف مدينة ومدينة.

نعم.. المنصورة بالنسبة لنا هى أرضنا، وحملنا، وقريتنا، وحينما كان ينهار سقف واحد فى هذه المدينة المنصورة، فإنه فى الواقع كان ينهار فوق رؤوسنا جميعاً بدرجة

متساوية، إن الاهالى جميعاً يهتمون ويسرعون ويقلقون ويتناقشون ويساعدون فى تخفيف وقع المصيبة على أطرافها المباشرين، وأكثر من هذا.. كانت الصحف تخبرنا أحياناً برفع سعر سلعة من السلع.. ولكننا فى المنصورة لم نكن نحس بذلك إلا بعدها بشهور عديدة، وربما فى السنة التالية، وكان السبب فى ذلك يرجع أولاً إلى أن الأسعار لم تكن ترتفع إلا نادراً، أما السبب الأهم، فهو أن كل بيت لم يكن يشعر بحرج على الإطلاق فى أن يستعين بما لدى البيت المجاور له، ماذا يريد؟ أرز؟ سكر؟ زيت؟ سمن؟ لحم؟ فراخ؟ إن الخير كثير والسماء ترزقنا جميعاً بنفس الكرم، لقد كانت هناك ثقة ضخمة فى السماء.. وفى الغد.. وفى المستقبل، وكانت تلك الثقة تنعكس على كل ركن من أركان حياتنا.

هل تزعم القاهرة لنفسها مثلاً أنها العاصمة التى تصدر منها الصحف؟. ربما. ولكننا فقط. صغاراً وأبرياء ومقبلين على الحياة. الذين كنا نكتشف لأنفسنا الكتَّاب الذين نبحث عنهم ونثق فيهم.. وهكذا اكتشفنا مثلاً أحمد بهاء الدين وخالد محمد خالد وعبدالرحمن الشرقاوى وصلاح جاهين وفتحى غانم والدكتور أحمد زكى.. الخ.. الخ.

هل تزعم القاهرة لنفسها أنها تحتكر دار الإذاعة؟

ربما. ولكننا نحن فقط الذين كنا نختار المطربين الذين نغنى لهم، والألحان التى نطرب لها، والأصوات التى نشجعها بقوة قبل ان تنتبه لهم القاهرة. نعم.. نحن أعطينا ثقتنا وحبنا لعبدالحليم حافظ قبل أن تفعل القاهرة بوقت طويل، وكنا سعداء بعد ذلك حينما اعترفت به القاهرة كمطرب على خريطتها الرئيسية. إننى ما زلت أذكر مثلاً، بمجرد ان أذيعت لعبدالحليم أغنية اسمر يا اسمرانى مرة واحدة فى إذاعة القاهرة.. أن كورنيش المنصورة، وهو بامتداد المدينة كلها على نهر النيل، كان يردد تلك الأغنية ليلاً ونهاراً.. بل ويستأجر كل قادر جهاز اسطوانات وميكروفون لكى يتمتع بها المارة على الطريق..! ولم يكن هذا لمجرد أنها أغنية عاطفية.. فلقد فعلت المنصورة الشىء نفسه مع قلنا هانبنى السد العالى .. التى كان كل منا يرددها لأول مرة بالنسبة للاغانى الوطنية التى صاغت لنا القضايا الكبرى فى قالب فنى صادق.

بماذا تتميز القاهرة إذن؟ بأنها العاصمة السياسية لمصر؟ ربما.. ولكننا كنا نختار لأنفسنا نوع القضايا السياسية التى نؤمن بها ونمزجها بالدماء فى الشرايين..

فى سنة ١٩٥٥ مثلا، انزعجت القاهرة لخبر مفاجئ: لقد تمكنت المخابرات الإسرائيلية

من اغتيال الملحق العسكرى المصرى فى الأردن.. صلاح الدين مصطفى.. بواسطة طرد ناسف أرسلته بالبريد، انزعجت القاهرة.. نعم.. ولكن المنصورة كانت هى التى صممت على ان نأخذ بالثار. لقد كنت أقرأ وأنا صغير تعبيراً متكرراً فى كتاب التاريخ هو عن بكرة أبيها .. بغير أن افهمه على الإطلاق.. ولكننى لم أعرف ماذا يعنى أن تخرج مدينة عن بكرة أبيها لأمر من الأمور.. إلا فى ذلك اليوم الذى شيعت فيه جنازة صلاح الدين مصطفى. لقد خرجت المنصورة من أقصاها إلى أقصاها.. بوجوه غاضبة.. وبركان متفجر يسير على قدمين.. وراء نعش ابنها الذى اغتالته إسرائيل على بعد مئات الأميال.

وشىء آخر: حينما أعلن عبدالناصر تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، لم تكن أعمارنا تسمح لنا بعد باستيعاب معنى هذا القرار ولا خطورته. مع ذلك فإن إحساسنا التلقائى الغريزى كان هو الذى دفع بواحد منا إلى أن يأخذ سكيناً صغيراً من منزله، لكى يخفيه فى حقيبة كتبه.. ويجلس به فى الصباح التالى معنا فى الفصل الدراسى بمدرستنا الإعدادية. وحينما صارحنا هذا الزميل بما يحمله. فى الدقائق الخمس التى تفصل بين حصة وأخرى، اكتشفنا أن أكثر من نصفنا قد فعل الشىء نفسه بغير أن يفكر فيه..! هل كنا نتصور مثلاً أن جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا.. أو ايدن رئيس وزراء بريطانيا.. سيقابلنا فى حى الحوار أو حى الحسينية بالمنصورة.. فنقتله على الفور؟!

فبصرف النظر عن أى منطق.. تلك كانت مساحة إحساساتنا.. التى كانت ترشدنا إلى جوهر الأشياء بغير أن نعيها.. تماماً مثلما أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على مصر بسبب تأميم القناة.. كان هذا مفهوم بالطبع حيث للدولتين أسهم فى الشركة المؤممة. ولكن التطور الآخر تمثل فى تآمر إسرائيل معهما لغزو سيناء. كانت بريطانيا وفرنسا بالنسبة لنا هما مجرد بقعتين لا معنى لهما نراهما على الخريطة فى كتاب الجغرافيا بمدرستنا الإعدادية، ولكن إسرائيل كانت بالنسبة لنا شيئاً آخر.. له ألف معنى ومعنى.

وإبان الحرب رأينا فوق رؤوسنا فى المنصورة طائرة تطاردها طائرتان. وأدركنا على الفور ان معركة جوية كبرى تجرى فوق رؤوسنا. معركة – نحن فى جوهر الجوهر منها – وبدلاً من أن نختفى، أو نتوارى، أو نخاف.. وهو أمر تسمح به أعمارنا.. فقد انطلقت المنصورة (ومرة أخرى: عن بكرة أبيها) تتابع المعركة أرضاً وهى تدور جواً.

إن أقدامنا قادتنا فى لمح البصر إلى مدرسة طلخا الثانوية.. فمن هناك رأينا الطائرة

الأولى تسقط.. وبعدها بساعة كاملة أذاع راديو القاهرة أن طائرتين مصريتين قد اسقطا طائرة للعدو (ولم نكن نعرف بعد أننا أحببنا تلك المدرسة الثانوية من تلك اللحظة.. ولا أننا سوف نكون تلاميذ فيها فيما بعد.. وسوف يكون ناظرنا فيها هو والد الصديق الكاتب الساخر المتصوف أحمد بهجت). لقد انطلقنا، كصبية صغار، نهنئ بعضنا البعض فى الشوارع، متحفزين فى نفس الوقت على كل ناصية، لئلا يكون هناك طيار عدو نجا بمظلته ويريد أن يتسلل بيننا. ان هذا لا يعنى مطلقاً أننا كنا نعيش حياة بلا مشاكل أو هموم.. فالمشاكل والهموم كانت هناك دائما.. لكنها دائماً كانت تذوب فوراً فى أول قضية عامة نؤمن بها، لقد كانت لنا حماقاتنا الصغيرة.. ولكن كانت لنا أيضاً أحلامنا الكبيرة.. فمن دار الكتب كنت أسير كل مساء مع صديق وزميل لى. اسمه سمير عبدالنور جرجس، نناقش ما نقرأه مساء.. وكنت أحرر مجلة المدرسة، مع صديق فنان آخر، اسمه طلعت شعراوى.. متصورين فى كل مرة أن مصير العالم كله متوقف على ما نفعله..!

اننى أريد أن أتوقف هنا. حتى لا تجرنى ذكريات الطفولة وتكتسحنى أمامها. أريد أن أتوقف لأقول جملة مفيدة: إن حبنا لمصر بدأ هنا. بدأ فى الشارع الذى ولدنا فيه. وسواء كان اسم الشارع هو السكة الجديدة .. أو الجمهورية .. أو المديرية .. أو.. أو.. من مئات الشوارع التى تضمها المنصورة.. فإنه فى النهاية حب أصبح موجوداً وانتهى الأمر هل انتهى الأمر؟

لا. لم ينته. لقد ذهبت أزور المنصورة. أزور الوجوه الضاحكة والقلوب المتفائلة والعقول التى تكتشف الأحداث والقضايا والأقلام والأصوات.. قبل أن تكتشفها القاهرة، و — الأهم من هذا كله — أزور دار الكتب التى كانت عقلاً نشطاً لمدينة بأكملها.

ماذا وجدت؟ وجدت باختصار شديد، مدينة أصابتها الشيخوخة المبكرة. مدينة ربما يعيش البعض فيها. أو بعض البعض. حياة من اللون البمبى.. لكنها مدينة لا تجد فى النهاية، لا تجد الوقت للتفرقة بين لون أبيض ولون أسود. وجدت مدينة لم تتسع. ولكنها انبعجت هنا وهناك بلا تخطيط ولا تنسيق ولا مسحة من جمال. وجدت صورة كاريكاتيرية لمدينة لعبت من قبل دوراً حاسماً فى تاريخ مصر.. لكنها الآن تراجعت إلى مكان منزو تحس فيه أنها ليست طرفاً فى أى شىء يدور حولها. إن الناس فى هذه المدينة مازالوا هم الناس. مازالت الطيبة كلها فى قلوب رجالها.. والجمال الساحر فى وجوه بناتها..

ولكن أصبح واضحاً أن الحياة قد فرمت الجميع تماماً فحولتهم إلى شظايا صغيرة. إنهم يقرأون صحافة القاهرة.. ويستمعون إلى إذاعة القاهرة وكأنهم يقرأون ويستمعون عن كوكب آخر. وجدت أشياء لا تتضمنها تلك التقارير التى تتلقاها القاهرة.

وجدت وجوهاً هزمتها الحياة مبكراً.. وعقولا امتصتها هموم التفاصيل اليومية امتصاصاً. تفاصيل ربما تكون كذلك على الورق.. ولكن الحياة لا يمكن أن تسير بدونها.

إن هناك بالطبع هموماً مفاجئة. والتليفزيون مفتوح أمامهم.. وكلهم مندمجون معه.. هذا صحيح.. ولكن الذى يعمل هو جهاز فيديو يعرض صاحب المقهى من خلاله مسرحية ضاحكة. هل أصبح الناس فى بلدى يتسولون الضحكات إلى هذا الحد؟

إن الإجابة واضحة.. مادام أن المقهى قد حدد سعر كوب الشاى بمائة قرش. إن الرقم قد يبدو مألوفاً لسكان القاهرة.. ولكنه ليس كذلك على الاطلاق بالنسبة لسكان مدينة اعتادوا أن يشربوا كوب الشاى بقرش صاغ واحد.. فى أيام الغلاء!

ولقد تصور صاحب المقهى أن ما يلفت نظرى هو الزحام من حيث هو. فقال لى: هل تريد أن أفض لك هذا الزحام فى دقيقة واحدة؟ إننى سأشيع فى المقهى أن حصة من السكر قد وصلت إلى الجمعية الاستهلاكية.. وفى لمح البصر سوف يذوب الزحام هنا.. لكى يوجد هناك.. إيه رأيك؟ ها.. ها..

لقد اعتبرها الرجل فكاهة شديدة الإضحاك.. وقد حاولت بدورى أن أزرع فى نفسى هذا الشعور بالضبط.. ولكننى فى النهاية لم أنجح. وتعويضا عن محاولتى الفاشلة هذه سألت بعضا من الحاضرين.. هل يعرف أحدهم اسم المحافظ فى هذه المدينة؟

ولم يعرف احد اسم المحافظ.. ولا أى محافظ..! ولم أندهش، فلابد أن القاهرة تعرف. ولكن القاهرة تتصور أنها تعرف أشياء عديدة من بينها اسم المحافظ الذى تعتبر القاهرة أن مهمتها قد انتهت به. ولكن ما يعنى الناس فى مدينتى، فى هذه المنصورة، لم يكن اسم المحافظ.. ولا ما يكتبه هو إلى القاهرة فى تقرير بعد تقرير.

ان ما يعنيهم هو، أولاً، أن يضمنوا الحد الأدنى الذى يجعل الحياة تسير. ان هذه الحياة، الآن وفى هذه الدقيقة، لم تعد تسمح لهم بالاندماج فى قضية عامة.. ولا بالتنبه إلى ما هو أبعد من الجمعية الاستهلاكية.. ولا بالوعى باسم محافظ أو آخر.. فالفارق بين أحدهم والآخر هو فقط فى عدد الساعات التى يزور فيها مكتبة المنصورة..! والآن

فإن لدى اقتراحاً بسيطاً للغاية – على محافظ المدينة – هو اقتراح بزيارة. نعم. مجرد زيارة من مكتبه إلى دار الكتب بالمنصورة.. أن المسافة بين الاثنين لا تزيد عن ٢٠٠ متر، بالطبع فإن المحافظ سيتجشم عناء ضخماً فى قطع تلك المسافة (وهى ربع ساعة سيرا على الأقدام).. ولكننا على أى حال فى أيام مفترجة تجعلنا نأمل خيرا. إنه ليس خيراً كبيراً مثل القضاء على كل تلك القذارة المفاجئة فى المدينة التى كانت عروس الدلتا..

إن طموحى أكثر تواضعاً من ذلك. فما اطمح إليه هو مجرد زيارة استقصاء إلى مبنى دار الكتب. لأن المحافظ لو فعل ذلك فسوف يكتشف تواً ما رأيته أنا متأخراً. إن دار الكتب بالمنصورة قد تم اختصارها إلى النصف.!

فبدلا من أن يبحث موظفو الحزب الوطنى عن مكان لمكاتبهم فى المدينة كلها.. التى اتسعت وتضخمت.. فإن عبقرياً من بينهم اختصر الطريق وذهب إلى المبنى الوحيد الذى لم يستوعبه عقله، مبنى دار الكتب. لقد قرر هذا العبقرى أن يستولى على نصف المبنى.. أما دار الكتب فعليها ان تكوم كتبها وكراسيها وموائدها فى النصف الآخر.. فمدينة كالمنصورة، تقع على النيل. ومع ذلك فلا تجد أدوارها العليا (ومعناها هنا ابتداء من الطابق الثانى) لا تكاد تجد المياه النظيفة التى تصل إليها. ومدينة كالمنصورة. تقع فى الدلتا لا تكاد تجد الأشياء الأساسية التى كنا نتبادلها عن طيب خاطر مع سكان المنازل المجاورة.. وحينما فتحت جهاز التليفزيون على نشرة الأخبار.. اكتشفت أننى وحدى الذى افعل ذلك.. فلا أحد أصبح يعنيه على الإطلاق نشرة الأخبار، ولقد تخيلت الأمر مصادفة. وحينما تجولت وتجولت، وجلست فى النهاية على أحد المقاهى، فإننى وجدت زحاماً من الناس جالسين. إنهم زحام. قبل أن تذهب إلى الجحيم..! وحتى الآن لا أعرف اسم العبقرى، ولا متى ارتكب فعلته تلك، ولكنه بالتأكيد يستحق التخليد باعتباره أول عبقرى يختصر عقل مدينة إلى النصف بجرة قلم.

سواء جرت تلك الواقعة أمس، أو قبل سنوات، فإن الشىء المؤكد هو أنها تظل فى النهاية عميقة الدلالة بالنسبة لجيل بأكمله.. بدأ حبه لمصر من هذا المبنى.

شىء مؤكد آخر: أن القاهرة لم تقرأ مطلقاً عن هذه الواقعة فى التقارير التى تتلقاها من الأقاليم. نعم.. لم تقرأ القاهرة.. وبالتالى لم تكتب.. عن تلك الواقعة.

و.. علينا نحن أن نعلمها القراءة والكتابة من جديد!

■■ تصدير العقل المصرى

كنت فى المغرب مدعواً لإلقاء محاضرة. والمحاضرة ضمن حشد ثقافى كبير يجرى فى قرية مغربية صغيرة اسمها أصيلة .. بعد المحاضرة.. وبينما أنا أتمشى فى طريقى إلى الفندق برفقة عدد من الأصدقاء كان يتابعنا عدد من الأخوة والأخوات المغربيات.

وكما لو كانت هناك مشاورات مكثفة بين الأخوة المغربيات تقدمت منى واحدة منهن نيابة عن رفيقاتها، لكى تتحدث معى كما لو كنت مندوبا عن الشعب المصرى، وتقول بصوت عال: يا أستاذ.. يا أستاذ.. الله يبارك فيك.. تقول لهم فى مصر يعملوا الغم والهجر والبكاء فى المسلسلات التليفزيونية بالقليل.. والمرح والرقص بالزاف (كثير).. يا أخى.. رجالتنا ما بيصدقونا.. وبيصدقوا مسلسلاتكم..!

وفى العاصمة الأردنية عمان قبل سنة ونصف.. كنت فى طريقى إلى المطار عائداً إلى القاهرة، وسألنى سائق التاكسى الأردنى: الأخ.. من مصر؟

وحينما أجبته بالإيجاب.. بدا الرجل واسمه سلمان يتحدث عن مصر بعشق وحب وهيام ومشاعر حقيقية من صميم قلبه. وقلت له متسائلاً: يبدو إنك قد زرت مصر من قبل. هنا تحول السرور على وجه الرجل إلى عبوس وحسرة وهو يرد على بقوله.. لا يا آخى.. وإنما.. نفسى من زمان أزور مصر.. لكن..

قلت متسائلاً: لكن.. ماذا؟

ورد الرجل بقوله: إننى مشتاق لزيارة مصر، ولا يمنعنى من ذلك سوى.. زوجتى، ياأخى.. تصور إنها تؤمن إيماناً جازماً بأننى لو ذهبت إلى مصر.. فلن أعود إليها فى عمان.. إلا وفى يدى زوجة مصرية.!

ومرة أخرى: هى مسلسلات التليفزيون،

وفى الكويت دعانى صديق مرة لحضور عرس كويتى، بعدها هبطنا إلى شقة الصديق، بعد إصراره على أن نقضى سهرة مصرية .. وهو ما تحول فى التطبيق إلى سماع مجموعة تسجيلات غنائية يريدنا أن نطرب بها معه، أما الأغنية الأولى فهى ع الدوار .. وهى أغنية وطنية غناها محمد قنديل فى سنة ١٩٥٣ على ما اعتقد، ولم يعد راديو القاهرة يذيعها منذ فترة طويلة،

وفى القاهرة كان الأخ صالح جغام رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون التونسية فى زيارة عابرة.. وحينما أرادت إذاعة صوت العرب أن تستضيفه فى سهرة إذاعية، طلب بدوره أن يستضيفنى وفى المناقشة الإذاعية على الهواء استوقفنى فجأة استخدامه لتعبير الغزو الثقافى، المصرى لتونس.. وقلت له: يا أخ صالح.. تعال نحرص معاً على الدقة فى ألفاظنا ومعانينا، أى غزو تتحدث عنه؟ إنك حدثتنى قبل قليل عن أنك قرأت لى فى تونس كتاب أفكار ضد الرصاص .. هل جاءك هذا الكتاب فوق دبابة؟ هل أنت ذهبت لشرائه، وفى ظهرك بندقية؟ لنتحدث إذن عن تأثير ثقافى مصرى فى تونس وفى غيرها.. فهذا أجدى لكلينا معاً.

إن تلك الأمثلة، ومئات غيرها، هى مجرد نماذج لانعكاسات التواجد الثقافى المصرى فى العالم العربى بالمسلسل التليفزيونى والأغنية والكتاب والمسرحية والفيلم السينمائى.. وهو التواجد الذى لم يتم هناك بفضل الدولة هنا.. وإنما بالرغم من الدولة فى الواقع.

فمصر فى عالمها العربى هذا مؤثرة بخيرها وشرها، وهى مؤثرة بغير أن تسعى هى كحكومة إلى ذلك.. ولكن هذا هو حكم التاريخ، قبل الجغرافيا.

ونحن نجد فى عالمنا المعاصر هذا كتلتين كبيرتين شرقاً وغرباً، بمركز للدائرة اسمه الاتحاد السوفيتى فى التحالف الشرقى، ومركزاً آخر اسمه الولايات المتحدة فى العالم الغربى ولكن جوهر تلك الزعامة السوفيتية فى الشرق، أو الزعامة الأمريكية فى الغرب، هو مجرد السلاح.. والجغرافيا ليست هناك إذن شرقاً أو غرباً لا لغة مشتركة.. ولا تاريخ مشترك.. ولا تراث مشترك.. ولا حتى مذاهب دينية مشتركة.

إن كل ما هناك هو، الخطر المشترك، والإحساس بالأمن المشترك وهذا الأمن هو الذى فرض على مجموعة التكتل عسكرياً واقتصادياً فى مواجهة المجموعة الأخرى وحتى الآن نجح كل تكتل أن يفرض نفسه على الساحة الدولية والأهم من ذلك، أن كل تكتل قد صمد فى مواجهة عوامل الانقسام والتفكك من داخل كل كتلة وهى عوامل كثيرة ومتنوعة.

والأمر فى حالة مصر وعالمها العربى يختلف كثيراً. بالطبع هناك ما تمليه الجغرافيا من ثوابت ولكن هناك أيضاً ذلك الجبل الشامخ من التاريخ المشترك.. والتاريخ هو عملية تراكمية لكل ما هو إيجابى وأيضاً لكل ما هو سلبى، وحتى الآن ما يزال الإيجابى هو الأقوى لأن هناك سبعمائة سنة إلى الخلف منذ كانت مصر هى التى قامت بحماية العروبة

والإسلام ضد جحافل الصليبيين شمالاً وضد إعصار التتار شرقاً.

هناك إذن رأس مال سابق تم دفعه فهو يؤتى فوائده لقرون بعدها. والبعض فى عالمنا العربى قد يرى فقط تلك التقلبات السياسية الحادة والمواقف المتطرفة، التى تحدث بين وقت وآخر وبين هذه الدولة وتلك ولكن ما تنسفه السياسة تقوم أشياء أخرى بتعويضه ومن بين تلك الأشياء هذا التأثير الثقافى ولا أقول الزعامة الثقافية من الجانب المصرى.

ذلك لأن التأثير لا يتوقف فقط على قدرة طرف ولكنه أيضاً يتوقف على رغبة الطرف الآخر، إنك لا تستطيع أن ترغم كويتياً على سماع أغنية مصرية، لابد أن تكون هناك أولا الثقافة المصرية المتطورة، والحية، والمتفوقة، والعصرية، ولابد أن تكون هناك أيضاً الرغبة فى الإقبال عليها.

وأكثر من يمكن أن يسيئوا إلى الثقافة المصرية هم أولئك الذين يتصورون أن هذا التأثير المصرى كان موجوداً فى الماضى، وسيظل موجودا فى المستقبل، سواء شاء العالم العربى أو لم يشأ، إن هذه أولاً نظرة قاصرة.. فضلاً عن أنها غير صحيحة بالمرة، فهؤلاء البعض مستند إلى أن مصر هى أكبر الدول العربية سكاناً، وبها أقدم الجامعات ودور السينما والمطابع والصحف.. الخ.

إنهم باختصار يرون أن مصر المؤثرة فى العالم العربى هى الأصل، وغير ذلك هو الاستثناء وهذا غير صحيح بالمرة.

فأولاً.. ليس الأصل فى الأشياء أن تكون مصر هى وحدها المؤثرة فى العالم العربى، لقد تداولت دمشق وبغداد بل والمغرب العربى، مراكز التأثير فى العالم العربى قبل القاهرة، لأن الضخامة وعلى وجه الخصوص الضخامة السكانية ليست فى حد ذاتها قرينة على التفوق. ثم أن وسائل الاتصال فى هذا العصر جردت كل دولة من أسوارها الثقافية الدفاعية تماما وجعلتها تواجه كل يوم تأثيرات ثقافية أخرى فيها ما تريده.. وفيها أيضا ما لا تريده.. إن منطقة الخليج العربى مثلا تعيش تهب عليها رياح الثقافات الهندية والأسيوية كل يوم، وفى السودان تهب رياح الثقافات الإفريقية المتنوعة، وفى المغرب العربى هناك رياح أوروبا، وفى العالم العربى كله.. هناك التأثيرات الأمريكية المتكررة، ابتداء من الأغانى الأجنبية إلى حلقات دالاس و ديناسيتى .. الخ.

فالذى يأتى لمصر بالتفوق الثقافى إذن ليس هو مجرد الضخامة السكانية، وإنما الوعى

بتحديات العصر.. والاستجابة الصحيحة لها، ثم الإدراك الواعى لحقيقة أن التأثير فى الآخرين ليس هبة من هبات الطبيعة، وإنما هو استثمار يدفعه جيلا بعد جيل.

وفى الأربعينات مثلاً، لم تكن مصر دولة مستقلة بعد وكانت تحتلها جيوش بريطانيا العظمى وكانت مصر مشغولة بحرب تحرير شعبية ضد المحتل الأجنبى يتساقط فيها الشهداء يوماً بعد يوم لكن هذا لم يمنع مصر مثلاً من تحمل نصيبها فى التطوير الثقافى لعالمها العربى بقدر ما تسعفها إمكانياتها.

ولقد انشغلت إمبراطورية بريطانيا العظمى، مثلاً، بقضية ثقافية فى مطلع الأربعينات حينما اعتبرت أن ذهاب أربعة مدرسين مصريين إلى الكويت التى كانت تحتلها بريطانيا أيضا هو خطر على المصالح الغربية فى المنطقة وتعبير عن أهداف سياسية خفية لمصر لابد من إيقافها، وهكذا قدمت بريطانيا العظمى احتجاجاً رسميا إلى وزارة الخارجية المصرية وقام السفير البريطانى فى القاهرة بالتنبيه على الحكومة المصرية بألا تعود مرة أخرى إلى مثل هذا السلوك الخطر، كل هذا حدث لأن الحكومة المصرية وافقت على إيفاد أربعة مدرسين مصريين مجرد أربعة إلى الكويت بمرتب ضخم يبلغ إثنى عشر جنيها فى الشهر، تتحمل مصر نصفه، ولمدة سنة واحدة.

وتلك الواقعة من بين مئات، حدثت فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٢، ولم يتم الكشف عنها إلا فى العام الماضى بعد إذاعة دفعة جديدة من الوثائق السرية البريطانية.

إلى هذا الحد إذن ترى الدولة الأجنبية ذات المصالح الإستراتيجية الكبرى فى منطقتنا أن التلاحم الثقافى بين أجزاء العالم العربى أشد خطراً عليها من التلاحم السياسى. الذين يذهبون إلى دول الأطراف العربية يلمسون على وجه الخصوص شراسة هذا التقاتل من أجل النفوذ الثقافى، إذهب مثلاً إلى السودان فى الجنوب، أو إلى عمان فى الشرق، أو إلى المغرب فى الغرب.. سوف تجد على الفور ثقافات شتى تتقاتل مع بعضها البعض على موضع قدم، وفى مدينة طنجة المغربية مثلاً، على مرمى حجر من اسبانيا وأوروبا تستطيع أن تلمس فى الشارع شباباً مغربياً يتحدث الاسبانية وشبابا آخر يتحدث الفرنسية.. وشباباً يتحدث العربية، بل إنه فى داخل الأسرة الواحدة كثيراً ما تنشأ مشاكل كبرى لأن الأب ثقافاته وحديثه بالفرنسية.. بينما الأبناء هم جيل الاستقلال الذى أزاح الفرنسية إلى المكانة الثانية لكى يضع محلها اللغة العربية.

وبينما عملية التعريب فى الجزائر مثلاً سارت شوطاً طويلاً ناجحاً.. إلا أنها فى المغرب تبدو أقل حظاً، إن المصالح الاقتصادية الكبرى تريد استمرار الارتباط بفرنسا واسبانيا وأوروبا.. بينما الجيل الجديد من الشباب أكثر حنيناً إلى هويته العربية، وقد انتظر الشباب فى مهرجان أصيلة بالمغرب فى العام الماضى فرقة رضا المصرية طويلاً، لكنه عندما رآها أخيراً أصيب بخيبة أمل مروعة من هبوط مستواها.. مما جعلهم يرددون: إن تسجيلاتها التليفزيونية التى رأيناها قبل سنوات أفضل من ذلك كثيراً.

وهذا يعيدنا إلى التليفزيون.. الذى هو الآن لغة العصر.. إن تصدير العقل المصرى إلى العالم العربى يتضمن أشياء عديدة.. يتضمن المسرح والصحافة والكتاب والأغنية والفيلم، ولكن أهم من هؤلاء تأثيراً على الإطلاق أصبح، مواد التليفزيون.

ونحن لا نستطيع أن نعتمد على الحكومات فى مثل هذه العملية الحيوية، التى أصبحت هى لغة التأثر والتأثير فى هذا الجيل، ولكننا يجب أن نجعل اقتصاديات صناعة التليفزيون قادرة من داخلها على تغطية العالم العربى، ويجب أن نتخلص من هذه النظرية الضيقة التى تجعل تليفزيوننا مجرد جهاز محلى، بل حتى مجرد جهاز قاهرى.. لأن متغيرات السنوات الأخيرة جردتنا من وسائل عديدة للتأثير.. ولم يتبق لنا سوى القليل منها.. لم يتبق لدينا سوى حفنة كتاب وصحفيين وفنانين ومخرجين ونجوم وأطباء ومهندسين لأسمائهم رنين فى العالم العربى.

ولكننا لن نفعل شيئاً إلا إذا أدركنا أولاً أن الثقافة المصرية هى بترولنا الذى لا ينافسنا فيه أحد بعد ومن ثم فليس واجبنا هو أن نحافظ على ثقافتنا فقط، بل أن نسعى بعقول متفتحة إلى إزالة كل القيود البيروقراطية ضدها.. وما تزال تمنع ذهابها إلى الآخرين.

إننا بهذا القليل الذى نملكه نستطيع أن نفعل الكثير لو أننا فقط نظرنا إلى بعيد.

■■ لكن الفقيد على قيد الحياة

عندى ضعف شديد نحو كل المترددين الحقيقيين فى حياتنا العربية.. من الفكر إلى الثقافة إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى الطاقة النووية وعلوم الفضاء. إننا قوم نمثل الطرف المهزوم، فى المواجهة مع اسماك القرش السائدة فى غابة البحار الدولية. الطرف المهزوم، ولكن ليس الطرف الميت، فلأكثر من خمسمائة سنة نتلقى الصفعات والركلات من الوحوش الكاسرة التى لم تعد تريد فقط رطلاً من لحمنا، ولكن رطلاً من دمائنا أيضاً. ففى الأشهر الأخيرة قرأت ثلاثة تحليلات غربية متخصصة تنتهى كلها إلى نفس النتيجة، إن فكرة القومية العربية قد توفاها الله، هناك عرب ولكن لم تعد هناك قومية عربية، والعرب الذين كانوا مائة مليون فى جيل مضى هم الآن ٢٢٥ مليوناً، لكنهم عرب اليوم مجرد ظاهرة صوتية بعد أن أصبحت تفرق بينهم لغة مشتركة! إنهم عرب ١٩٩٢ مجرد تعبير جغرافى وليسوا بالمرة تعبيراً سياسياً أو ثقافياً أو روحياً أو تاريخياً، مجرد تعبير جغرافى!

إن جيلنا الذى ولد وعاش وسط العاصفة قرأ مثل هذا النعى مبكرا ومرات عديدة وفى أوقات متغيرة، رحم الله العروبة البعض يقول ذلك، لكن بينما المواساة تستمر إلا أن الفقيد ما يزال على قيد الحياة، إن المهزوم الأكبر فى الحرب الباردة سواء كان ميخائيل جرباتشوف أو بوريس يلتسين ينافق الجميع نهاراً لكنه فى الظلام يغازل المال العربى أملاً فى حفنة فيتامينات، والولايات المتحدة الأمريكية صاحبة الدعوة إلى قيام نظام عالمى جديد، تعتمد فى خلق فرص عمل جديدة فى أهم صناعاتها على المال العربى، وبريطانيا الدولة التى دفن المصريون إمبراطوريتها فى قناة السويس تخصص أهم إذاعاتها الموجهة إلى العالم العربى، هذه ليست شواهد حالة وفاة، فالوحوش الكاسرة لا توجه غزلها أو طائراتها أو إذاعاتها إلى أموات، لكنها توجه هذا كله فقط إلى من مايزالون على قيد الحياة.

وهى أيضاً ليست مؤامرة، نحن لسنا ضحايا قوى خبيثة وشريرة اجتمعت سراً ذات ليلة لكى تتفق على امتصاص دمائنا، لا، هى فقط طبيعة المصالح الدولية المتقاطعة، ولو كنا فى نفس موقفهم ونحمل جوازات سفرهم فربما كنا سنتصرف بنفس الطريقة.

فالسياسات الدولية هى تعبير عن مصالح وليس عن مشاعر، وفى الحياة الدولية هناك دائماً الكثير من تقاطع المصالح، حتى بين الحلفاء، أما فيما بين الأقوياء والضعفاء فهناك، قطع الرقاب.

ونحن لسنا أمواتا، كما أننا لسنا ضعفاء، منذ خمسمائة سنة ونحن نرفض أن نكون أمواتاً، ونرفض أيضاً الاستسلام لفكرة أن ضعفنا هو حكم نهائى من أحكام القدر، والمؤرخ البريطانى الكبير الراحل ارنولد توينبى كان يقول دائماً: إن الشعوب الحية لا تموت إلا بوسيلة واحدة، أن تنتحر.. والذين تتقاطع مصالحهم معنا يريدون منا أن ننتحر. هذا يعيدنى إلى المتمردين الحقيقيين الذين أعانى من ضعف دائم نحوهم، فأسهل الحلول هو أن نلعن هذا العصر الذى نعيشه، ونعلن رفضنا له بالانسحاب منه بالخطوة السريعة، راجعين إلى الوراء خمسمائة سنة، إن هذا يعنى بالضبط الانتحار، نفس ما يريده لنا الأكثر قسوة بين الوحوش الكاسرة.

أو: لنأخذ حالة رجل هانئ الحياة سعيد البال.. تزوج وأنجب فتاة شاء لها الواقع بعد ذلك أن تعيش فى عصر من التضخم وفلكية الأسعار وفداحة ما تطلبه من والدها تكلفة لتعليمها ثم لزواجها.. الخ.. والأب هنا يختار بين الانسحاب إلى ماضيه السعيد فيقتل زوجته وابنته، بوهم أن مثل هذا الانسحاب من الأعباء والمسئولية سيريح باله ويعيد إليه أياما هانئة مضت، بماذا نسمى مثل هذا الأب، رجل يزعم الفضيلة، أو مجرد رجل هارب من المسئولية مسلماً بعجزه وقلة حيلته؟

لقد كان على بن أبى طالب يقول: (**إن الناس هم أشبه بزمانهم منهم بآبائهم وأمهاتهم**). نفس الفكرة التى عبر عنها بعد قرون طويلة مؤرخ غربى تعمق فى دراسة التاريخ فخرج بخلاصة مفادها: إن كل عصر يفرض شعوبه التحديات الخاصة به، ويتوقف حظ كل شعب فى النجاح على مدى مقدرته على الاستجابة إلى هذا التحدى.

أو لنأخذ الوقائع المجردة، لقد وقعت المواجهات الكبرى بيننا وبين الغرب مرتين، فى المرة الأولى، وكان القرن هو الثانى عشر، انتصرنا على أوروبا المتفوقة علينا فى الحرب البحرية.. تماماً فى اللحظة التى تفوقنا عليهم فيها فى الحرب البرية، أو على حد تعبير الظاهر بيبرس فى رسالة منه إليهم: أنتم سلاحكم المراكب، ونحن سلاحنا الخيول.

ثم جاءت أجيال تالية تغلق عقل الأمة بحجة أن السلف الصالح فكر فى كل شىء،

انتهى الاجتهاد، وسلاح الخيول، مثلا.. طالما انتصر فى القرن الثانى عشر فهو منتصر دائما بعد ذلك فى كل معركة وكل قرن. وحينما جاء نابليون بونابرت إلى مصر غازيا فى سنة ١٧٩٨ واجهه المماليك وهم الشريحة الحاكمة فى مصر حينئذ بشيئين، أولاً باستنزال اللعنات على الغزاة.. وثانياً بالاعتماد على السيوف والخيول، وكانت النتيجة أن نابليون بونابرت هزمهم فى غمضة عين لسبب بسيط أدركوه بعد فوات الأوان، إن المواجهة هذه المرة هى بين المدفع والحصان، هذا معناه، فارق فى التكنولوجيا، ولأن الشريحة الحاكمة فى مصر ومن ثم، فى العالم العربى كانت منغلقة العقل أمام التحديات الجديدة، فقد استحقت أن تنهزم.

ولأن الشعوب لا تموت إلا إذا اختارت الانتحار أو تم دفعها إليه. فلم تمض سوى سنوات قليلة.. إلا وأصبحت نفس مصر المهزومة هذه بفضيحة كبرى مدوية هى مصر المنتصرة التى اعتبر كل ساسة أوروبا أن قوتها تؤرقهم.. لقد اكتشفوا أن مصر هزمت فى جولة، لكنها لم تهزم فى حرب. والذى أدرك هذا قبلهم كان محمد على فى مصر، فبرغم انه بدأ ولم يعرف القراءة أو الكتابة إلا أنه أدرك الدرس البديهى فى غابة السياسة الدولية، درس يقول: إنك تستطيع أن تلعن الأقوياء كما تشاء، لكنك لن تصبح قوياً مثلهم أبداً إلا إذا أخذت بأسباب قوتهم.

لقد أدرك محمد على أسباب قوة الغرب فاستعان بجزء من أوروبا ضد جزء آخر، وخلال سنوات قليلة دبت الروح فى مصر من جديد، بالتعليم، بالبعثات، بالزراعة، بالصناعة، بالسلاح، بالجيش، بالقناطر النيلية، بخلاصة الخلاصة: الارتفاع إلى مستوى التحدى الذى يفرضه العصر.

ماذا كانت النتيجة؟ طبعا انتصرت مصر، وطبعاً احتشدت أوروبا من جديد لضربها وإعادتها إلى بيت الطاعة. فى البداية أغلقوا مصانعها ومدارسها ثم أغرقوها بالديون الخارجية، وأخيراً باحتلالها عسكرياً بشكل مباشر من جانب بريطانيا العظمى، القوة الغربية الصاعدة، وكما فى اى احتلال مباشر وغير مباشر، تبدأ السلطة دائما بالهاء الناس عن الانشغال بالأمور المصيرية، من الآن فصاعدا: لا تعليم، لا مدارس، لا علوم، لا سياسة، لكنكم تستطيعون طبعاً الانشغال بالسلف الصالح والشرح على المتون وأهمية أن يدخل المرء مرحاض بيته متقدماً بقدمه اليسرى وليست اليمنى.

وكما فى اى احتلال، وتحت اسم، انفتاح مصر على العالم المتحضر، جرى غمر مصر بأكبر موجة من المخدرات فى وقتها حشيش وأفيون وكذلك بتخصيص بيوت.. بل وأحياء كاملة.. للدعارة، فربما تقوم الغريزة الجنسية بهزيمة ما تبقى من المشاعر الوطنية. ووسط هذا المناخ السائد جاء إلى مصر كل الأفاقين الباحثين عن ثروة سهلة وسريعة، وجاء أيضاً مواطن مسيحى عربى من فقراء بيروت.. التى هى فى حينها من ولايات الإمبراطورية العثمانية.. مواطن اسمه جورجى زيدان، جاء وقد سبقه ولحقه من نفس منطقة الشام فهكذا كان اسم كل منطقة سوريا ولبنان وفلسطين وربما فى نفس السفينة رافقه أيضاً آخرون يعرفهم وقدر لهم بعد ذلك أن يحققوا ثروات طائلة من خلال المقامرة على شىء واحد، إن الاحتلال يكسب.

جورجى زيدان قامر على شىء آخر تماماً، إن الاحتلال فى المدى الطويل لن يكسب.. لكن.. لأنه ليس ثائرا.. وإنما هو متمرد فقط وليس باحثاً عن زعامة.. ولأنه أيضا واقعى بغير أن يكون مستسلما فقد اختار طريقاً غريباً، أن يصدر مجلة ثقافية باسم الهلال ، انه مسيحى، لكنه اختار اسم الهلال ، مع دلالته الإسلامية.. لأنه يؤمن أولاً بأن الدين لله والوطن للجميع وهو فقير، ويعرف مسبقاً أن التعامل مع مثقفين يعنى انه غاوى فقر.. بينما اقرانه المتعاملون مع سلطة الاحتلال أصبحوا أصحاب أطيان وقصور، وحينما ذهبت مؤخراً لأشارك زملاء وإخوة الاحتفال بمرور مائة سنة على صدور مجلة صغيرة اسمها الهلال كنت سعيد حقا بالفكرة كلها، فكرة أن تهزم اليأس بالأمل، تهزم الضعف بالقوة وتهزم الجهل بالمعرفة.

وبكلمات القاضى الأمريكى اوليفر وبندل هولمز: إن الشىء العظيم فى هذه الدنيا ليس هو، أين تقف.. بقدر ما هو، فى اى اتجاه تتحرك.

إن جورجى زيدان لم يكتف بلعن الظلام، لقد أضاء شمعة صغيرة يستعد بها للمستقبل.

■■ ومن النجوم ما تكنسه الرياح!

هناك بعض المهن لا يضايقنا فيها عدم التفوق، فالطبيب والمهندس والقاضى والمدرس والمحامى مثلاً، كل منهم.. له قيمة دائماً حتى ولو لم يكن متميزاً أو عظيماً.. لكن الأمر يختلف بالنسبة للكاتب والشاعر والمؤلف و... الممثل، ففى هذه المهن ليس هناك وسط بين الحماس الذى تتلقاه، وبين اللامبالاة التى تكنس من أمامها كالعاصفة، وفى هذه المهن.. إذا لم يكن المرء متميزاً تماماً.. فإنه لا شىء مطلقاً حتى لو ظلت عيون الناس وآذانهم تلتقط اسمه ألف مرة كل يوم: إن العنصر الاستثنائى الذى يضاعف من أهمية تلك النتيجة هو الاختيار فحينما يمرض الإنسان فإنه سيذهب إلى الطبيب شاء أو لم يشأ والعلاج الذى سيتلقاه إذا لم يشفه تماما فإنه على الأقل سيخفف آلامه. أما فى تلك المهن الأخرى فالأمر يختلف، ويتبلور هذا الاختيار أكثر وأكثر حينما تفرضه علينا الضرورة، لكى نمارسه بطريقة إجبارية، ففى أيام كهذه، حيث يطحننا الغلاء بهذا الشكل، ويفرمنا التضخم الذى لا تسجله نشرات الأخبار، نحن ملتزمون بالاختيار بين رغيف نأكله وكتاب نشتريه، بين طبق فول نتقاسمه أو مسرحية نذهب إليها، بين حذاء نشتريه.. أو فيلم نشاهده!

وكما سبق أن ذكرت.. فإننا نذهب لمشاهدة فيلم ليس فقط لكى نتسلى ولكن نغوص فى عالم خيالى آخر مختلف لمدة ساعتين أو ثلاثة. وما لم يكن الممثل على الشاشة مقنعاً لنا، فإن البعض منا يصيح لتوه سينما أونطه..!

إن هذا يعيدنا من جديد إلى الحديث عن الممثل.. كمهنة، ما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة، فلابد، على الأقل من خلال الاعترافات الأخيرة التى نشرت فى هوليوود أن نفرق تماماً بين الممثل.. النجم.

إن فيفيان لى .. بطلة فيلم ذهب مع الريح والحائزة مرتين على جائزة الأوسكار، استمعت مرة إلى محرر فنى وهو يسألها: باعتبارك الآن أشهر نجمة سينمائية فى العالم فإننى أريد أن اعرف..

وعلى الفور قاطعته فيفيان لى قائلة: أولاً قبل أن تسترسل فى سؤالك.. أريد أن أوضح لك شيئاً هاماً.. إننى لست نجمة.. وهذه الصفة فى حد ذاتها تثير الاشمئزاز فى داخلى،

إن حياة النجومية هى حياة مزيفة نعيشها من أجل قيم مغشوشة ولأغراض دعائية بحتة، اننى، فقط، ممثلة، هل تدرك الفرق؟ أنا.. ممثلة، إن النجمة يمكن أن تصنعها أجهزة الدعاية فى يوم وليلة.. أما الممثلة فإن نجاحها ينطلق من داخلها هى.

ولقد كان الحق فى تلك الكلمات تماماً.. فمبدئياً، هوليوود هى التى اخترعت نظام النجوم فى السينما العالمية، لقد تكونت شركات كبرى للإنتاج السينمائى.. وأدت المنافسة إلى أن تلتقط كل شركة لنفسها عدداً من الوجوه الجديدة (الذين هم الشريان الحقيقى لصناعة السينما).. تحولهم بفضل أجهزتها الدعائية إلى نجوم تشغل الناس بأخبارهم والإشاعات حولهم.. بل وفى بعض الأحيان.. إذا لم توجد مثل تلك الإشاعات.. فإنها تخترعها خصيصاً لكى تثير اهتمام الجمهور بهم.

وحينما يتصادف أن يكون النجم هو أيضاً ممثلاً موهوباً، فإن متطلبات النجومية هذه كانت تسبب له توتراً نفسياً ضخماً. فكما نكتشف مثلاً من السيرة الذاتية لكلارك جابل التى صدرت بعنوان عاش الملك فان هوليوود حددت له صورته كنجم أمام جمهور السينما على أساس أنه يخاطب أحلام اليقظة عند قطاع محدد من الجمهور.. إن كلارك جابل لا يتميز فقط بأنه فارع الطول نحيف القوام حاد التقاطيع، ولكنه يجب أن يتميز أيضاً بأنه رمز للرجولة، ليست الرجولة بمعناها الكامل، ولكن بمعناها الفج البدائى الذى يجعله مثيراً بالنسبة لقطاع من النساء.. إن هذا يعنى أن تصدره هوليوود إلى العالم باعتباره إنساناً غريزياً أقرب إلى أخلاقيات عصر الغابة منه إلى أخلاقيات القرن العشرين.. إنسان لم يتعلم ولكنه يعرف متى يكون شهماً ومتى ينقذ امرأة من براثن الأعضاء فى العصابة.. الخ.

تلك كانت الصورة العامة التى يجب أن يكيف كلارك جابل نفسه معها طبقا لاحتياجات هوليوود، ولكن كلارك جابل كان يحس بأنه بهذا الشكل أصبح مجرد سلعة يروج لها المنتجون عند المستهلكين.. ولم يكن يستطيع بالطبع أن يضبط حياته كلها على هذا الإيقاع، وإلا أصبح مجرد شخص سطحى وتافه يتراكم الصدأ فوق عقله يوماً بعد يوم، لهذا كان يلجأ إلى القراءة، لقد كان نهماً لقراءة الكتب والروايات لأنه فى الواقع كان يحس بأن موهبة الممثل فى داخله سوف تموت إذا لم يفعل ذلك.

وعندما ضبطه وكيل أعماله مرة منهمكاً بالقراءة فى منزله قال له بصراحة: إياك

أن تسمح لأحد بالتقاط صورة لك وأنت تقرأ.. إن هذا سوف يدنس الصورة التى رسمتها لك هوليود فى خيال المتفرجين، انك نجم ساحر لقطاع عريض من النساء.. وهذا يكفى!

وبالطبع لم يكن أمام كلارك جابل سوى أن يطيع، ومن هنا تستطيع أن تفهم كيف يتساوى نظام النجوم الذى خلقته هوليود مع نظام العبيد، فالنجم هنا لا يملك الاعتراض.. لأن هوليوود كما خلقت شهرته فى يوم وليلة.. تستطيع أن تستبدله بألف آخرين فى يوم وليلة.

أكثر من هذا، فقد سجل الممثل البريطانى ديفيد لين أيامه الأولى فى هوليوود بقوله: كان أول أستوديو ذهبت إليه فى هوليوود هو أستوديو شركة فوكس، ومن اللحظة الأولى وجدت خارج المبنى لافتة كبيرة تقول.. لا تحاول أن تصبح ممثلاً.. فمقابل كل ممثل نستخدمه.. هناك ألف آخرين نرفضهم .. ومع هذا فإن الآلاف كانوا يذهبون إلى هوليوود لكى يحاولوا مرة بعد مرة، إن الأمر ربما يستقر بهم عند العمل سكرتيرات أو بائعين فى محل بقالة، ولكن من ينجح فى أن يجد لنفسه موطئ قدم داخل الاستوديوهات.. سرعان ما تداعبه على الفور أحلام البريق والشهرة .

وحينما يفكر احد الاستوديوهات فى تحويل ممثل معين إلى نجم جماهيرى.. فإن الأمر لا يتعلق من البداية بهذا الممثل من حيث هو.. ولكن بنموذج يريد الأستوديو أن يسد به احتياجات السوق، وحينما تصل شركة الإنتاج إلى مثل هذا القرار.. وتستقر على شخص محدد لكى تحوله إلى نجم.. تبدأ عجلة الدعاية فى الدوران على الفور. إن خبراء متخصصين يحددون له كيف يلبس ويتكلم ويسير.. كيف يرد على الأسئلة، وأى نوع من الأسئلة.. أى الأماكن يذهب إليها وأى زاوية يتم تصويره منها.. هل تناسبه أسنانه الحالية أو يجب انتزاعها وزرع أخرى بدلاً منها.. ما هو نوع الإشاعات الذى يجب أن يسعى إليها، والأخرى التى لا تناسبه.. الخ.

وهكذا.. فخلال فترة وجيزة تصبح أمام نجم ما.. استثمرت الشركة فى الدعاية له مبالغ طائلة.. مقابل عقد احتكار له على امتداد عدد من السنوات، وإذا سارت المسألة على النحو المطلوب فإن كلا الطرفين يستفيد.. فالنجم يصبح مشهوراً فى يوم وليلة من ناحية.. والشركة المنتجة تكسب من ورائه أضعاف ما أنفقته من ناحية أخرى.. وهكذا فان شركة مترو جولدوين ماير مثلا كسبت من وراء الأفلام التى أنتجتها (لكلارك جابل)

وحده ٥٠٠ مليون دولار، لم يدخل منها إلى جيبه سنت واحد لأن عقد الاحتكار حدد له من البداية مرتباً صغيراً ثابتاً لا يستطيع هو أن يعدله إلا بعد انتهاء عقد الاحتكار.

ومرة أخرى فإن العملية على هذا النحو تصبح عاملاً إضافياً فى تفريغ النجم من إنسانيته قطرة بعد قطرة.. إن أهميته بالنسبة للشركة المنتجة هى بمثل أهمية سلعة محددة لدى منتجها، فالترويج له وتشغيله وتسويقه يتوقف على تصرفات محددة وسلوك محدد يجب أن يلتزم به، وإلا فإن الأستوديو قادر على سحقه.. بمثل ما كان قادراً من قبل على تركيز الأضواء عليه.! وحتى من غير أن يسحب الأستوديو الأضواء.. فإن زوال الظروف نفسها التى جعلت النجم مشهورا يؤدى تلقائيا إلى كنسه بسرعة من سوق الشهرة، إن أبرز مثل على ذلك هو تلك الطفلة المعجزة (شيرلى تمبل).

ففى أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات اكتشفت هوليوود أن الناس قد خرجت من سنوات الكساد الاقتصادى العظيم وقد أصبحوا أكثر انقباضا وتشاؤما بالنسبة للمستقبل، فمن لم يفلس أو ينتحر فانه يعيش فقيراً أو شبه معدم فى الحياة، وهكذا قررت هوليوود أن تقدم لجمهور السينما شيئاً جديداً يتعلق به، فى هذه المرة اختارت هوليوود طفلة لا يزيد عمرها عن ثمانية أو تسع سنوات، طفلة تستطيع أن تمثل وتغنى وترقص.. تستدر دموع المتفرجين أحياناً وتثير ضحكاتهم أحياناً أخرى، وفى جميع الأحيان فإنها توقظ داخل المتفرج تلك (الروح الأمريكية) التى تقتحم المجهول بابتسامة واثقة وتأكد لا أساس له من أن الفجر سيشرق أخيراً فى نهاية النفق الطويل المظلم.. حيث المريض يشفى والجائع يشبع والفقير يجد تحت وسادته مليون دولار فجأة.. هكذا ولدت إذن شخصية الطفلة (شيرلى تمبل) على شاشة السينما، خلال سنوات قليلة أصبحت تلك الطفلة هى أمهر نجمة سينمائية فى العالم كله، إن المواطن الأمريكى العادى، الذى يطحنه الكساد الاقتصادى ويهدده شبح البطالة.. أصبح قادراً على أن ينسى متاعبه فجأة، بمجرد ١٥ سنتاً يدفعها لكى يدخل السينما ويتفرج على وجه مبتسم لطفلة بريئة ينسى معها همومه.

ومع إقبال الناس على أفلام تلك الطفلة النجمة.. أصبحت (شيرلى تمبل) تساوى فى صندوق التذاكر ضعف ما تساويه نجمة كبيرة ومشهورة مثل (جريتا جاربو)، لقد نجحت التجربة إذن، بكل مقاييس السوق، ولكن الذى ما زال غامضا هو مدى تأثير التجربة على الطفلة نفسها.

إنها وجدت نفسها وقد أصبحت فى غمضة عين أكثر شهرة من الرئيس الأمريكى (فرانكلين روزفلت) نفسه.. بل أن الرئيس يدعوها لكى تزوره ويلتقط معها الصور.. والمحلات أصبحت تعلق صورتها فى الشوارع.. والمصانع تنتج سلعاً باسمها، وكما تذكرت هى فيما بعد (.. إننى توقفت عن الإيمان ببابا نويل فى سن مبكرة، لقد أخذتنى أمى لكى أقابله فى محل بهوليود، فوجدته يطلب منى التوقيع له باسمى فى الاوتوجراف!!).

لكن دائرة النجوم الضيقة فى هوليوود كان لابد أن تكتمل بسرعة، إن هذا النجاح الذى جاء سريعاً.. سرعان ما ذهب سريعا أيضاً خصوصاً أن أساس النجومية هنا كان شريحة من العمر.. فبمجرد أن وضعت (شيرلى تمبل) قدمها على عتبة سنوات المراهقة.. أصبحت لا تصلح للاستمرار فى دور النجمة الطفلة الذى كان أساس شهرتها، وليس هذا فقط، بل أن الجمهور لم يعد قادراً على أن يسمح لها بان تكبر أمامه على الشاشة، لقد أحبها والتف حولها باعتبارها طفلة.. وإذا لم تستطع هى أن تكون كذلك.. إذن فلتعتزل ولتعد إلى حياتها خارج الشاشة.

هكذا جربت (شيرلى تمبل) النجاح المطلق كطفلة.. لكى تجرب الفشل المطلق كفتاة ناضجة، فاضطرت بالفعل إلى اعتزال العمل فى السينما.. مكتفية بذكريات نجوميتها كطفلة بريئة محبوبة كان الناس يلتفون حولها.. والآن جاءت رياح العمر لكى تكنس نجوميتها، إن دائرتها اكتملت فى سنوات أقل مما يحدث مع نجوم أكبر منها سناً، نجوم مثل (جريتا جاربو)، أو (مادلين ديتريشن) أو (انجريد برجمان).. الخ.

وإذا كنا هنا قد رأينا حالة من حالات النجومية الحقيقية.. إلا أنه يحدث كثيراً أن يكون أساس النجومية كاذباً، فالواقع أن بريق النجومية يجعل بعض الناس متلهفا بشدة على صورة تنشر له.. أو خبر يكتب عنه.. أو أضواء تسلط عليه.. مهما كان الثمن، وفى بعض الأحيان لا يكون الجمهور هو وحده الضحية.. ولكن كثيراً ما يكون الضحايا هم الذين يتصادف وجودهم فى الطريق.

وسأضرب مثلاً من هنا، من القاهرة، وليس من هوليوود، فقبل سنوات قليلة كان عمر الشريف فى إحدى زياراته للقاهرة، وحينما تقابل مع صديق قديم له، هو المنتج الراحل حلمى رفلة، وأخبره أن لديه مجموعة من الأصدقاء الأمريكيين، وهو يفكر فى دعوتهم للسهر فى حفل راقص بمنزل أحد أصدقائه.. خاصة أنه سيغادر القاهرة خلال ساعات.

وكانت مع (حلمى رفلة) فى تلك اللحظة ممثلة ناشئة تحلم لنفسها بالأضواء أى أضواء وبغريزة النجومية (هذا النوع من النجومية) عرضت الممثلة الناشئة أن يدعو عمر الشريف أصدقاءه للسهر فى منزلها هى، وحينما لم يجد عمر الشريف مانعاً من ذلك لدى صديقه حلمى رفلة.. فإنه وافق. هكذا أقيم الحفل بالفعل فى شقة الممثلة الناشئة.. واستمر حتى الصباح.. حيث كان معروفاً أن عمر الشريف سيسافر إلى باريس فى الصباح التالى، وبحسن نية استسلم هو أثناء الحفل لكاميرا احد المصورين على أساس أن صاحبة الشقة، الممثلة الناشئة، تسعى لمجرد الحصول على صورة تذكارية معه أو صورتين، ورغم أنه بدا فى إحدى اللحظات أن الصور زادت عن المعقول، إلا أن عمر الشريف لم يتخيل مطلقاً الوظيفة التى ستؤديها تلك الصور فيما بعد.

لم يكن عمر الشريف يعلم بعد أن المصور قد استأجرته الممثلة الناشئة خصيصاً.. ولا أنها أوهمت بعض المحررين الفنيين همسا قبل ساعة أن عمر الشريف قد وقع فى حبها وسيأتى الليلة إلى شقتها لكى يطلب منها الزواج بها!.

لقد خرج عمر الشريف من الحفل واستقل الطائرة إلى باريس.. وفى تلك الساعات القليلة كانت الممثلة الناشئة قد وزعت الصور مع الخبر المزعوم على بعض الصحف.. لكى يقرأ الجمهور الخبر كشىء مثير خبر اختيار عمر الشريف لزوجته أخيراً.. التى هى بالطبع تلك الممثلة الناشئة.

وحينما نزل هو من الطائرة بباريس كان طبيعياً أن يفاجئه مراسلو وكالات الأنباء بسؤال عن مدى صحة الخبر، وصعق عمر الشريف من المفاجأة، ثم أعلن الحقيقة على الفور.. وهى أنه لا صحة للخبر من أساسه مطلقاً، بعد أن اكتشف أن الممثلة الناشئة لم تدعه فى الواقع إلى حفل وإنما نصبت له كميناً.. ودعته إلى فضيحة.. والأسوأ من ذلك.. فضيحة كاذبة من بدايتها.

وحينما كان الصديق الراحل حلمى رفلة يروى لى تلك القصة فى حينها كان معى فى تلك اللحظة صديقان.. هما مصطفى حسين رسام الأخبار.. وعثمان لطفى سكرتير عام التحرير، ولأن عثمان لطفى كان أقلنا خبرة بالحياة الفنية فإنه وجه سؤالاً منطقياً إلى حلمى رفلة: كيف تجرؤ الممثلة الناشئة على فبركة مثل تلك القصة التى لا أساس لها؟ الم تكن تعرف أن كذب القصة سيتضح فورا بمجرد نشرها؟

وبالطبع كان الرد بسيطاً ومنطقياً.. نعم ستتضح الحقيقة، نعم سيكتشف الجميع أن المسألة من بدايتها أكذوبة كبرى من طرف واحد.. ولكن إلى أن يتضح ذلك.. ستكون الممثلة قد نجحت فى أن تجد لصورتها مكاناً فى الصحف.. وستكون قد لفتت الأنظار إليها، حتى ولو لخمس دقائق، وفى النهاية لن تعدم واحداً أو اثنين يتمتمان: معقولة أن تكون القصة كلها كاذبة تماماً؟!

والواقع انه مع تهافت البعض على مثل هذا النوع من النجومية، يصبح كل شىء معقولاً.. ومتوقعاً، فنحن هنا أمام ممثلة ناشئة نجحت لخمس دقائق فى أن تكون مثيرة للاهتمام.. وهو أمر ربما تستطيع هى أن تستثمره بشكل أو آخر.

ففى صناعة السينما.. نجح البعض فى أن يكونوا نجوماً.. قبل أن يصبحوا ممثلين!.. إن هذا يعدنى من جديد إلى الفارق الجوهرى بين النجم والممثل، لقد أدلى الممثل العظيم الراحل سبنسر تراسى مرة برأيه حول تلك النقطة فقال: إننى اعرف كثيرين من الممثلين العظام الذين ليسوا نجوماً.. وأعرف نجوماً ليسوا على الإطلاق ممثلين، إن النجم ربما ينجح فقط فى أن يجد طريقه إلى مزيد من المال.. ولكنه لن يعرف طريقه مطلقاً إلى تاريخ الفن .

ولكن من ناحية أخرى فان تاريخ الفن ظل حتى سنوات قليلة مضت يشهد طابوراً من الناس الذين يسعون إلى النجومية أملاً فى بريقها حتى لو كان فى النهاية بريقاً كاذباً، ولكن صاحب الموهبة الحقيقية هو الذى يسعى أولا إلى أن يكون فناناً أصيلاً، وبالطبع فأن تكون فناناً هو أصعب ألف مرة من أن تكون نجماً.. فرصيد الفنان هو أعماله.. ولكن رصيد النجم هو فضائحه، وبينما بريق النجم يعلو ويهبط فإن شعبية الممثل (ومن ثم الفنان الحقيقى) لا يهبط أبداً، وبينما السن تصبح عقبة كبرى ضد النجم على الشاشة، فإنه بالنسبة للممثل يصبح صديقاً وحليفاً ويصقل موهبته، من منا لم يصفق مثلاً لسبنسر تراسى وكلارك جبل وهمفرى بوجارت وانجريد بيرجمان وفردريك مارش؟ من منا لم يعجب، هنا، بعماد حمدى ومحمود المليجى وفريد شوقى؟

وبينما النجومية تعتمد على الإثارة.. ولفت أنظار الناس بأى ثمن.. فإن الممثل الحقيقى يحرك فى الناس مشاعرهم وليس غرائزهم، وهو يحاول أن يكون مقنعاً قبل أن يكون مثيراً، والذين شاهدوا منا فيلم كباريه مثلاً، يتذكرون أن ليزا ماناللى بطلة الفيلم،

برغم أنها تمثل دور فتاة الكباريه، إلا أنها استولت على مشاعرنا ولم تخاطب غرائزنا.

وبينما يتكون التاريخ النهائى للفن من أولئك الممثلين الموهوبين غير المزيفين.. إلا أن التاريخ السينمائى يتضمن أيضاً عدداً من أولئك النجوم الذين يشعون بريقاً خارجياً مؤقتاً ومزيفاً.

إن الرياح سرعان ما تكنس فى طريقها تلك النجوم الكاذبة.. ولكى تحتفظ فقط بالموهبة الأصيلة.. ولكن إلى أن يحدث ذلك.. تقع تطورات عديدة داخل الكيان الإنسانى لكل منا.

■■ تورا.. تورا.. تورا!

يتساءل البعض أحياناً: ما هى الفائدة؟. فائدة أن يقدم لنا الفن رؤيته للواقع والتاريخ؟ فائدة أن نتذكر أشياء نستطيع أن ننساها.. ونستعيد آلام لحظة فاتت وانتهى الأمر..؟

إن الحقيقة هى: لم ينته الأمر، فمادامت الحياة مستمرة فسيستمر التاريخ ومادام التاريخ مستمراً.. فيجب أن نستمر فى فحصه وإعادة فحصه.. نستمر فى فهمه واستخراج الدروس الصحيحة منه.. إننا ربما نستطيع أن نغفر، أو نتسامح ولكننا لا نستطيع أبداً أن ننسى.. لان الإنسان هو الحيوان الوحيد على هذا الكوكب الذى يمتلك ذاكرة. وبهذه الذاكرة يستطيع أن يمتد بماضيه إلى المستقبل، ومن ضياعها يضيع الماضى والمستقبل معاً.. وحينما يحاول الفن أن ينشط ويقوى ذاكرتنا، فإنه فى الواقع يحصننا ضد تكرار خطايا الماضى.. ويحذرنا من تكرارها فى الحاضر والمستقبل..

إننا نعرف من التجربة أن الشعوب تتعلم من لحظات هزيمتها بأكثر مما تتعلم من لحظات انتصارها، ولكن مثل هذا التعلم، لكى يكون مثمراً ومفيداً، يحتاج أولا إلى أن يتأمل تلك الهزائم، والخطايا كما حدثت بالضبط.. يجب أن تكون الحقائق ولا شىء غيرها، متاحة بالكامل أمام كل جيل، حتى يصبح كل إنسان بعد ذلك حراً فى تكوين رأيه المستقل حول الواقع الذى يعيشه، يجب ألا نسمح لأحد بحذف بعض الحقائق وحجب بعضها الأخر، بحجة انه لا يريد لنا أن نتألم من جديد.

وقد ضربت مثلاً بالفيلم الذى صنعته هوليوود عن ظاهرة المكارثية فى الولايات

المتحدة.. ولم يكن هدف الفن من هذا الفيلم هو أن يجعل الأمريكيين يتألمون من جديد، ولكن الهدف كان هو تحصين المجتمع الأمريكى ضد ظهور مكارثى جديد. الهدف هو خلق وعى ناضج وعميق بالأسباب التى تجعل ظهور الأفاقين والنصابين من نوعه ممكناً ومتاحاً على المسرح السياسى.

وسوف أضرب الآن مثلاً آخر، فطوال هذا القرن، لم يعرف العالم كله هزيمة أقسى ولا أشد مرارة من تلك الضربة الجوية المفاجئة التى وجهتها اليابان إلى الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر صباح اليوم السابع من شهر ديسمبر سنة ١٩٤١.

لم تكن قسوة الضربة ترجع فقط إلى ضخامتها العسكرية باعتبارها أول ضربة كبرى تتلقاها الولايات المتحدة على أرضها، ولم تكن ترجع إلى ضخامة الخسائر التى أسفرت عنها، حيث استطاعت اليابان خلال دقائق أن تدمر وتغرق ١٨ سفينة حربية أمريكية داخل القاعدة البحرية الأمريكية فى بيرل هاربر وتقتل ٢٤٠٣ جنود وضباط أمريكيين، بعضهم لم تتح له الفرصة حتى لكى يرتدى ملابسه.

إن قسوة تلك الضربة اليابانية المفاجئة على الشخصية الأمريكية كانت ترجع إلى أنها قتلت مفاهيم عميقة كانت قد استقرت داخل العقل الامريكى قبلها بوقت طويل، لقد عاش المواطن الأمريكى بإحساس دائم بأن الطبيعة نفسها تحميه من أطماع الآخرين، فالمحيط الأطلنطى يفصله عن أوروبا شرقاً.. والمحيط الهادى يفصله عن اليابان وبقية أسيا غرباً، ولذلك، فبينما ظل العالم كله مشغولاً بحروب وحروب مضادة، فإن المواطن الأمريكى هو وحده الذى يستطيع أن ينعم بعزلة مريحة تسمح له بان يتفرج على صراع هتلر ضد أوروبا.. بل وعلى قارة أوروبا كلها وهى تخوض الحرب العالمية الثانية.. بغير أن تكون بلاده طرفاً مباشراً فيها.

والآن، فى ذلك الصباح الهادئ يوم الأحد ٧ ديسمبر ١٩٤١، يكتشف المواطن الأمريكى أن الحرب العالمية بأكملها قد انتقلت فجأة إلى بلده هو.. فى ظل نوم عميق استسلمت له كل قياداتها التى تحصل مرتباتها من البداية لكى تحميه ضد مثل هذا الاحتمال بالضبط.

وهكذا فى تمام الساعة الواحدة ظهراً، قتلت اليابان شعور المواطن الأمريكى بالأمن داخل بلده فجأة. إن قائد الموجة الأولى من الهجوم الجوى اليابانى، عندما رأى طائراته وهى تحلق فوق أكبر قاعدة بحرية أمريكية، بكل سفنها وطائراتها ومدافعها نائمة تماما،

أرسل على الفور إلى قيادته الإشارة اللاسلكية المتفق عليها، تورا.. تورا.. تورا.. !

إن الكلمة معناها النمر .. وهى تمثل إشارة سرية تعنى أن اليابان قد نجحت فى تحقيق المفاجأة الكاملة ضد أسطول الولايات المتحدة، مفاجأة، سمحت للطائرات اليابانية بان تمرح فوق القاعدة البحرية مدمرة كل شىء فيها، بغير أن تطلق قذيفة واحدة ضدها.. ولا مدفع واحد يواجهها، ولا طائرة واحدة تتصدى لها، بل أن قائد السرب الجوى الأمريكى الوحيد الذى كان محلقاً فى الجو لحظتها بالصدفة، ذعر تماماً عندما وجد نفسه وسط طائرات اعتقد فى البداية أنها أمريكية، فربما تكون قيادته قد أعدت له مثلاً لجنة استقبال فى الجو للترحيب بعودته إلى بيرل هاربر ! وعندما اكتشف الطيار خلال لحظات حقيقة ما يجرى صاح مذعور: يا إلهى.. يا لها من طريقة ندخل بها الحرب.. دون سلاح ولا وقود..!!

كانت تلك هى الحقيقة فعلاً.. فحتى الاثنتا عشر طائرة الأمريكية الوحيدة التى كانت فى الجو لحظتها.. كانت بلا وقود اضافى.. ومجردة من السلاح.. طبقاً لتعليمات سابقة!

كانت تلك هى المفاجأة اليابانية المذهلة ضد الولايات المتحدة سنة ١٩٤١، ومع ذلك فها هى السينما الأمريكية تصورها فى فيلم سينمائى كامل كما جرت.. بالضبط، وحينما فعلت السينما الأمريكية ذلك، فإن أحداً لم يطلب منها أن يكون الفيلم دعائياً.. أو أن يخفى الجانب المخجل من القصة.. أو أن ينتحل الأعذار للسلطة فى نومها العميق الذى ضبطت متلبسة به، لقد خرج الفيلم لكى يسجل بالضبط كيف أن القيادة الأمريكية العليا تلقت بالفعل معلومات عن الهجوم اليابانى الوشيك من قبلها بأسبوع كامل، ومع ذلك، فعندما تم الهجوم فعلاً كان رئيس هيئة أركان الحرب فى عطلة نهاية الأسبوع.. والقائد البحرى يلعب الجولف.. وقائد السلاح الجوى هو الوحيد الذى حجبت عنه معلومات المخابرات، بل إنه قبل ٢٤ ساعة كاملة من الهجوم، تلقى الرئيس الأمريكى، فرانلكين روزفلت وقتها، معلومات مؤكدة عن اتجاه الأسطول اليابانى نحو بيرل هاربر ، ومع ذلك فإن كل ما فعله هو توجيه رسالة شخصية إلى إمبراطور اليابان.. يناشده فيها تبادل الرأى!

إن النظام السياسى فى أى بلد، حينما يفشل فى قراءة النوايا الحقيقية لعدوه، فإنه يفقد شرعيته تماماً.. لأن البلد بأكمله وأحياناً لأجيال عديدة تالية يدفع ثمناً فادحاً بعد ذلك لاسترداد أمنه. وفى حالتنا هذه فان هذا لم يحدث لان المجتمع الامريكى اندفع أولاً

ليصحح ما جرى، ومن اليوم التالى لضربة بيرل هاربر الشهيرة أعلنت الولايات المتحدة رسمياً الحرب ضد اليابان وألمانيا، حرباً نعرف جميعا أنها انتهت بانتصار الحلفاء ضد دول المحور.. بما جعل الهزيمة الأمريكية فى بيرل هاربر تصبح هزيمة فى معركة بغير أن تتحول إلى هزيمة فى حرب.

ومع ذلك، ففى حالتنا هذه أيضاً، ربما يغفر المجتمع حالة النوم العابرة التى ضبطت فيها بلده فى لحظة تاريخية تعسفية مادامت قد صححتها فى النهاية، ولكنه أبداً أبداً لا يجب أن ينساها حتى يحمى مستقبله من خطايا ماضيه، من هنا تأتى أهمية الفيلم الذى أنتجته هوليوود بعنوان تورا.. تورا.. تورا .

وهنا ربما يقول البعض: إن مثل هذا الفيلم لم يتم إنتاجه إلا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية بأكملها، وبعد أن تحولت الهزيمة إلى انتصار، وبعد أن مضت فترة زمنية كافية للانفصال عنها.. وأن إنتاج مثل هذا الفيلم لم يكن ممكناً على الإطلاق فى أثناء الحرب، أو فى أعقابها مباشرة.. وهذا المنطق صحيح بدرجة جزئية.. فقط.

وسوف أضرب هنا مثلاً آخر، ربما يكون أكثر قرباً إلى ذاكرة المتفرج عندنا، إنه تلك الحلقات التليفزيونية الأمريكية التى شاهدناها على شاشة القناة الثانية بعنوان (واشنطن خلف أبواب مغلقة).. فلقد رأى الجميع فيها فحصاً كاملاً لأسباب فضيحة ووترجيت التى هزت المجتمع الامريكى بأكمله وانتهت بإجبار الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون على الاستقالة.

إن نيكسون استقال صيف ١٩٧٤، وهو مازال حياً يرزق جنباً إلى جنب مع كل أبطال تلك المأساة المروعة.. وهناك ألف سبب يستطيع أن يتعلل بها صغار العقول من أجل إسدال ستار كثيف علي ما جرى، أسباب تبدأ من اللى فات مات .. وتنتهى إلى الحاجة للوحدة الوطنية وضرورة عدم نشر غسيلنا القذر على الملأ ..

ولكن المجتمع الامريكى رفض مثل هذا المنطق المريض لسبب بسيط.. أن صغار العقول لا يستطيعون أن يصنعوا فناً.. ولكنهم يحاولون دائماً حجبه، إن أهمية التاريخ، ومن ثم أهمية الفن حينما يفحص التاريخ، تكمن فى درس جوهرى وأساسى: إن كل كارثة يمكن أن تتكرر من جديد.. ما لم نعرف على وجه الدقة.. لماذا حدثت.

وحينما يشطب مجتمع كلمة لماذا من قاموسه فإنه فى الواقع يحكم على نفسه مقدما

بالأمية السياسية، وهى أخطر أنواع الأمية، ولان المجتمع الأمريكى لا يريد لنفسه هذا المصير فإنه فتح الباب واسعاً أمام الفن لكى يطرح كل الأسئلة الأساسية اللازمة لحماية مستقبله: لماذا برز نموذج انتهازى وأفاق مثل السناتور جوزيف مكارثى؟ لماذا ظل الجميع لعدة سنوات يخافون من مواجهته والتصدى له، لماذا يستطيع أصحاب المصالح الإتيان إلى البيت الأبيض برئيس عميل لهم؟ لماذا يحاول هذا الرئيس التجسس على خصومه السياسيين من أجل البقاء فى السلطة؟ لماذا ينجح لأشهر عديدة متتالية فى تضليل الرأى العام والكذب عليه ومراوغته؟.. و.. و.. لماذا أصبح من الضرورى أن يقوم المجتمع من وقت لآخر بحركة تطهير ومراجعة واسعة لحياته السياسية.. حتى تنخفض فيها نسبة الأفاقين والنصابين إلى أقل حد ممكن؟

لقد شاهدت أمريكا كلها حلقات واشنطن خلف أبواب مغلقة قبل أن تمضى ثلاث سنوات على فضيحة ووترجيت، شاهدتها بإخراج ممتاز ومستوى فنى رائع، ولم يكن فى الحلقات شىء غير واقعى سوى أسماء الأبطال أنفسهم لأسباب قانونية.. ومع ذلك فقد كان واضحا لجميع المشاهدين أن أندرسون هو جونسون وريتشارد منكتون هو ريتشارد نيكسون.. و كارل تسلر هو هنرى كيسنجر .. الخ..

إن كل أفاق من هؤلاء كان يستند إلى مراكز قوى محددة تسانده.. ابتداء من المخابرات إلى رجال الأعمال، وكل منهم لعب على نقاط ضعف الأخر، وكل منهم فى النهاية كان مستعدا للسير فوق جثة الأخر فى سبيل مصلحته الشخصية.

إن الحلقات لم تحاول أن تزيف لنا طبيعة السياسة والسياسيين أو تجملها، لقد عرضت لنا الحياة السياسية كما هى بالفعل خلف الأبواب المغلقة، حياة تقوم على قليل من الأصالة وكثير من الغش والنصب والكذب والاحتيال.. وتلفظ من داخلها أولاً بأول أصحاب الضمائر النظيفة والقلوب الطاهرة.

فإذا كانت تلك هى الحقيقة إذن.. فلماذا يبادر الفن إلى تقديمها لنا على الشاشة؟ لماذا تقدم لنا الشاشة فيلما عن بيرل هاربر ؟ أو مكارثى ؟ أو نيكسون؟ لماذا.. والصورة فى النهاية كريهة ومقبضه وتذكر البشر بنقائضهم؟ إن الإجابة تكمن فى هذا السطر الأخير بالضبط.

فلأننا نعيش فى دنيا ناقصة.. يجب أن نتذكر دائماً إلى أى حد هى ناقصة.. حتى

نعرف على وجه الدقة إلى أى حد يجب أن يكون حذرنا وتنبهنا ويقظتنا.. وإلى أى حد تبلغ المسافة التى يجب أن تحاول أن تسمو إليها.. هنا بالضبط تبدأ مهمة الفن.

إن جزءاً من مهمة الفن هى أن يجعلنا نحب كل ما هو جميل فى الحياة.. ولكن جزءاً آخر من مهمة الفن هو أن يجعلنا نكره كل ما هو قبيح أيضاً.. وحينما تحب الجمال فإن هذا يعنى أن علينا أن نكره القبيح أيضاً، حينما نحب الخير فيجب أن نكره الشر، وحينما نحارب من أجل الفضيلة فإن جزءاً من حربنا هو أن نتنبه إلى حجم الفرص المتاحة أمام الرذيلة.

إن الحب والكراهية هما وجهان لعملة واحدة.. والمجتمع الناضج لن يعرف ماذا يحب إلا إذا عرف فى نفس اللحظة ماذا يكره.. وإذا كانت تلك الحقيقة تمثل معنى التاريخ كله.. فإنها أيضاً تمثل جوهر الفن.

فالفن الحقيقى إذا كان يدعو الناس إلى الإيمان بالحرية.. فإن عليه أيضا أن يدعو الناس إلى كراهية الاستبداد.. أولاً لأن الفن نفسه لا يمكن أن تصنعه أيد مرتعشة.. وثانياً لأنه بغير الحرية سوف يختنق كل ما هو جميل ونظيف وطاهر وصادق فى حياتنا.. تاركاً مكانه لكل ما هو قبيح وطفيلى.

الفن الحقيقى لا يهتف، ولا يزغرد، ولا يدعو مجتمعه للتستر على الخطايا.. إنه ينبه.. ويحذر.. ويوقظ.. ويفحص.. ويراجع.. ويتأمل.. وينقد.. ويحاسب.. ويصحح.. وفى النهاية يعمق وعينا بالواقع وانتماءنا لهذا الواقع.. ليس انتماء لشخص ولا لحزب ولا مصلحة ذاتية.. ولكنه انتماء يتجاوز كل تلك الولاءات الضيقة والمتصارعة.

لقد كانت الأمثلة الفيلمية الثلاثة التى تناولتها هى نماذج للفن الحقيقى حينما يمارس وظيفته بحرية، إنها جميعاً تناولت بالفحص عورات فى التاريخ الأمريكى القريب والمعاصر، ومع ذلك فان ما بقى معنا منها كان شيئاً أخر: إنها شهادة لمجتمع بأنه يحرص أولاً، وأولاً، وأولاً على أن ينمى شجاعته العقلية والنفسية فى مواجهة خطاياه.. لأن هذا هو الطريق الوحيد لتحصين المستقبل ضد خطايا الماضى.

فلنخرج إذن، مع الحرية، إلى الهواء الطلق.. لأن هذا هو الدواء الوحيد الذى يعالجنا من السلع المغشوشة، والأفكار المغشوشة، والفن المغشوش..،

■■ زغرودة عبد الوهاب الغائبة

فى جلستى المنفردة مع الموسيقار محمد عبدالوهاب، بناء على طلبه وتكراراً لجلسات منفردة مماثلة اعتادها معى، جربت تغيير مجرى الحديث حينما سألته عن رأيه فى الزعيم الراحل مصطفى النحاس. زعيم هائل وهو نفسه كان من بين معجبيه. هكذا رد عبدالوهاب.

قلت له: عظيم.. مصطفى النحاس كرئيس لوزراء مصر أبرم معاهدة مع بريطانيا المحتلة لمصر منذ سنة ١٨٨٢ وانتقدها وطنيون كثيرون فى مصر مهاجمين النحاس والمعاهدة باعتبارها مجرد إعادة انتشار لقوات الاحتلال الإنجليزى داخل مصر.. بينما لا تتيح لمصر سوى قشور تجميلية وتعطيها الاستقلال شكلاً لكن من غير مضمون حقيقى وكما قرأت فى مراجعى.. فإن أبسط تلخيص لأنصار المعاهدة وخصومها جاء فى مقالين متقابلين فى مجلة آخر ساعة .الأول بقلم مصطفى أمين وعنوانه أوقعها وألعنها . والثانى بقلم كامل الشناوى وعنوانه ألعنها ولا أوقعها . يعنى كلا الطرفين متفقان على أنها معاهدة سيئة ومجحفة.. لكن الخلاف يأتى من فكرة أن هذا هو الممكن والمتاح. ربما من أجل هذا اختار مصطفى النحاس أن يوقع المعاهدة منطلقاً فى حينها ليدافع عن المعاهدة باستماتة معتبراً أنها معاهدة الشرف والاستقلال .

مع ذلك، وبمرور الوقت وخيبة الآمال وانكشاف الأوهام واستمرار أكثر من ثمانين ألف جندى بريطانى فى مصر من خلال قاعدة عسكرية ضخمة بامتداد قناة السويس تضاعفت الإحتجاجات الشعبية وتوالدت شبكات المقاومة ضد الإنجليز فى غليان وطنى مستمر. وحينما عاد حزب الوفد إلى السلطة ومصطفى النحاس إلى رئاسة الحكومة.. كان هو نفسه الذى بادر فى سنة ١٩٥١ إلى إعلان إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من طرف واحد.. معلناً مقولته الشهيرة من أجل مصر كنت قد وقعت تلك المعاهدة.. ومن أجل مصر أعلن إلغاءها .

انتعشت ذاكرة محمد عبدالوهاب تلقائياً وقال معلقاً: آه والله.. معك حق.. بل إن النحاس فى إعلانه إلغاء المعاهدة أخذ شعبية تفوق بمراحل ما كان قد حصل عليه عند توقيعها.

قلت له: والآن لنفترض أنك كفنان وقد كنت فناناً لامعاً صوتاً وصورة وموسيقى فى ١٩٣٦ دفعك حماس أهل السياسة بحجم النحاس إلى أن تشدو بأغنية تمجد معاهدة الشرف والاستقلال تلك. ماذا كنت ستفعل حينما بادر مصطفى النحاس نفسه إلى إلغائها فى ١٩٥١؟ تنزل إلى جمهورك لتعتذر أنت أيضاً عن أغنيتك الحماسية السابقة؟ إن رجل السياسة هنا يستطيع أن يخرج من مشكلته كما الشعرة من العجين.. ويقول إنه فى الحالتين كان يريد المصلحة، وإنه فى المرة الأولى وقع المعاهدة مضطراً ،، لكنه فى المرة الثانية يقوم بإلغائها مختاراً أو رجوعاً إلى الحق. الناس هنا ربما تغفر للسياسى بدرجات متفاوتة. لكن الناس لا تغفر لفنان مطلقاً قيامه بالترويج لبضاعة مغشوشة. سياسة مغشوشة. خصوصاً إذا كان واضحاً من البداية أن تلك السياسة تحمل بذرة فنائها فى داخلها و.. و..

لم أعرف فى لحظتها سر الارتياح الذى بدت ملامحه تلقائيا على وجه محمد عبدالوهاب، لكن ما عرفته هو أنه استرد روحه المرحة وكأن خاطراً ملتبساً وشريراً قد انزاح من داخله.. مستدعياً سعاد (مديرة المنزل) لكى تضع الغداء على الفور.

فى غرفة الغداء عاد عبدالوهاب إلى حكاياته المرحة وتعليقاته المشاغبة عن فايزة أحمد ووردة ونجاة ووديع الصافى.. إلخ. وفجأة.. جاءت له سعاد بالتليفون فى يدها من حجرة الاستقبال التى كنا فيها والآن فى غرفة الطعام، بما يعنى أن المتحدث شخصية استثنائية مهمة لم يكن يستطيع انتظار انتهاء عبدالوهاب من تناول غدائه. وفعلا.. همست سعاد: وزير الإعلام قال ضرورى يكلمك حالا..

أمسك عبدالوهاب بالسماعة ليرد: أهلا أهلا أهلا يا (ثيادة) الوزير.. ده إيه الشرف العظيم ده؟

خلال لحظات بدأت أدرك أن المتحدث على الطرف الآخر هو فعلا عبدالمنعم الصاوى وزير الإعلام فى حينها، وبدا حبور عبدالوهاب من المكالمة يتضاعف فوراً بمجرد أن قال له وزير الإعلام: يا أستاذ عبدالوهاب.. أنا مكلف بنقل رسالة عاجلة إليك من سيادة الرئيس.. وعبدالوهاب يقاطعه: تقصد الرئيس السادات؟ أنا أول بأول والله أتابعه فى نشرات التليفزيون وهو فى أمريكا ومنبهر بالمجهود العظيم الذى يقوم به هناك والمعاهدة التى جرت فى كامب ديفيد إمبارح.. وألف مبروك يا (ثيادة الوزير).. والله أنا فى كل

صلواتى بادعو (لثيادة) الرئيس بالتوفيق.. والحمد لله إن ربنا وفقه.. وحافضل أدعى له باستمرار يرجع لنا من أمريكا بالسلامة..

قال له الوزير: الشعور متبادل يا أستاذ عبدالوهاب.. وأنت بالذات مقامك كبير عند الرئيس.. لهذا أنت الوحيد الذى طلبنى الرئيس من أمريكا لأنقل لك رسالة منه..

وفى دهشة كاملة وحبور واضح رد عبدالوهاب: والله فيه الخير (ثيادة) الرئيس.. معقول فى وسط كل مشاغله وهمومه فى أمريكا بيجى على باله ويفكر فى واحد اسمه محمد عبدالوهاب؟

طبعا يا أستاذ عبدالوهاب.. مش قلت لك إن مقامك كبير عند سيادة الرئيس وعندنا كلنا.. من هنا الرسالة..

فى الخلاصة الرسالة هى: بعد هذا الإنجاز العظيم الذى توصل إليه الرئيس السادات فى كامب ديفيد بيقول لك هنا دورك يا فنان يا عظيم وجمهورك بالملايين فى مصر والعالم العربى ،، يعنى لو تعمل أغنية وطنية سريعة لتحية الرئيس وتكرر الإذاعة والتليفزيون إذاعتها فوراً لترددها الملايين فى استقبالها للرئيس عند عودته بالسلامة إلى مصر.. ويا أستاذ عبدالوهاب.. سيادة الرئيس أمرنا بأن ننفذ لك كل طلباتك ونفتح لك أى ميزانية تطلبها ونترك لك الحرية بالكامل.. عايز الأغنية تبقى بالصوت فقط.. أو بالصوت والصورة.. عايز نكلف لك أكبر مخرج وتختار أكبر عازفين و.. و..

هنا بالضبط تغيرت ملامح وجه عبدالوهاب قليلاً لتصبح أكثر جدية وكلماته أكثر بطئاً ليختارها بعناية ودقة قائلاً: لكن يا أفندم (ثيادة) الرئيس فنان من يومه ويعرف إن الفنان ياخذ وقته..

- طبعا يا أستاذ عبدالوهاب.. خد وقتك براحتك.. الرئيس قبل الرجوع إلى مصر سيذهب إلى المغرب، يعنى أمامك ما لا يقل عن يومين ثلاثة.. أو بالكتير أربعة أيام..

بعد لحظات بدت كالدهر.. فوجئت بعبدالوهاب يتصرف على نحو لم أتوقعه منه على الإطلاق. لقد قال لوزير الإعلام: يا (ثيادة) الوزير.. لا بد إن (ثيادة) الرئيس قال لك على حد تانى وأنت سمعت اسمه غلط.. أصل يا (ثيادة) الوزير وأنا والله بادعى للرئيس فى كل صلواتى إنه يرجع بالسلامة ولما أفكر أعمل حاجة هنا.. لازم أفكر فى شىء كبير جداً يليق بمكانة الرئيس وآخد فيه وقتى بالراحة. إنما أنت هنا مش محتاج لمحمد

عبدالوهاب.. أنت محتاج فقط لواحد يزغرد.. هل ترضى يا (ثيادة) الوزير بعد العمر ده كله.. أن يكون المطلوب منى هو.. زغرودة؟

زغرودة التى قالها عبدالوهاب بعفوية وتلقائية ليغطى بها اعتذاره الفورى. وعندما أغلق عبدالوهاب سماعة التليفون وجدنى واقفاً على مسافة أمتار من مائدة الطعام لكى آخذ راحتى فى ضحكة مجلجلة مما سمعته لتوى.

وسألنى عبدالوهاب بوجه شبه متوتر: لماذا كل هذا الضحك؟

قلت له: أنا غير مصدق بالمرة لما سمعته لتوى.. أكيد أنت لست محمد عبدالوهاب الذى أعرفه.. استغرب عبدالوهاب مقاطعاً: ياه.. قد كده أنت كنت رامى طوبتى؟!

قلت له: مش بالضبط.. المسألة هى أننى أراك دائماً كمحمد عبدالوهاب.. الآن رأيت أمامى نابوليون بونابرت..!

لم تعجبه المداعبة تماماً.. فقد ركبته هموم الدنيا كلها بمجرد انتهاء مكالمته مع وزير الإعلام.. قائلا لى: طيب يا أخويا.. ابقى خللى نابوليون بونابرت ينفعنا.. وربنا يجيب العواقب سليمة..

فى عودتى إلى المنزل استعدت فى ذهنى شريط تلك الواقعة مرة ومرات. وبرغم ما سمعته وشهدته.. لم تكن لدى أى أوهام. لكن حتى مع معرفتى بشخصية محمد عبدالوهاب وسلوكه مع أهل السلطة.. يظل ما رأيته ممثلاً لجملة اعتراضية تماماً فى شخصية عبدالوهاب وسلوكه. وأعرف أنه سواء بحكم تلك الطبيعة، أو للإلحاح المتوقع عليه تالياً، فربما يكون له موقف آخر معدل. لكننى كنت متأكداً من شىء واحد: فأياً كان ذلك الموقف المعدل المحتمل من عبدالوهاب.. إلا أنه فى جميع الحالات.. لن يقدم زغرودة بالتعبير العفوى الجامع المانع الذى اختاره عبدالوهاب يوم دعانى للغداء. فى الواقع.. لم تكن تلك وجبة غداء. كانت وجبة شجاعة، ولو مؤقتة، على حد تعبير عبدالوهاب فيما بعد.

■■ أصول اللعبة..

يخيل للمرء بين وقت وآخر أننا لا نحاور بعضنا البعض بالمرة.. ولكن خصوصاً فى المسائل الكبرى نقتطف من كل بستان زهرة.. ونخلط بين الجد والهزل.. والبعض منا يفكر كرأسمالى فى الساعة الثامنة، ثم يتصرف كشيوعى فى الثامنة والربع، لكى يتحدث كمستشرق فى الثامنة والنصف،

ولكى يكون الحوار مثمراً فلابد أن نتذكر أن لكل لعبة قواعدها وأصولها.. و تصرف الفريق المصرى لكرة القدم مثلاً خلال مباراته الأخيرة كخليط من فريق تنس وكرة سلة ومصارعة حرة، فإننا بالتأكيد كنا سنشاهد شيئاً آخر غير المباراة التى شاهدناها، والأهم من ذلك أن الفريق المصرى لم يكن ليخرج بالتأكيد منتصراً فى نهاية المطاف.

إنه نفس الشىء فى مناقشاتنا العامة.. ابتداء من الاقتصاد إلى السياسة إلى التعليم.. فمنذ خمس عشرة سنة على الأقل والبعض منا يتحدث عن الانفتاح الاقتصادى الذى تحول فى التطبيق إلى سداح مداح .. ومع الوقت أصبح الحوار يدور على أساس انك فى أحد خندقين،: إما الهتاف صباحاً ومساء للانفتاح أو الإدانة الكاملة الناجزة له، لكن الرأى العام المصرى لم تتح له فى أى وقت فرصة معرفة الحقيقة الكاملة أبداً من خلال مئات المبارزات الكلامية الجارية، وبصرف النظر عن اى جوانب أخرى، فإن أسوأ ما فشل فيه الانفتاح حتى الآن هو شىء أخر مختلف تماماً عن كل ما يدور الشجار حوله، حقيقة: انه لم تولد فى مصر بعد طبقة من رجال الأعمال الحقيقيين الذين تعتمد عليهم اى نهضة جذرية للقطاع الخاص.

والسؤال الأساسى هو: من هو أولاً أولاً رجل الأعمال؟ هل هو ذلك الشخص الذى يلعب بالبيضة والحجر ومستعد للسعى إلى الربح من أى طريق حتى ولو كان دواجن فاسدة مثلاً؟ هل هو الذى يحصل على قروض ضخمة من البنوك بلا ضمانات ثم يفر بها إلى الخارج على أول طائرة؟ هل هو الذى يطيل لحيته ويتظاهر بقراءة الفاتحة قبل وبعد كل تجارة بالعملة فى السوق السوداء؟ هل هو الذى يلبس طاقية هذا لذاك ويخرج فى النهاية بالملايين المهربة كما الشعرة من العجينة؟.

من هو أولاً أولاً رجل الأعمال.. إن البعض يتحدث عن الاقتصاد الحر.. حيث لا علاج

لمشاكل مصر إلا إذا فتحت أبوابها تماماً للاستيراد وأطلقت للجميع حرية إخراج وإدخال الملايين من كل عملة بلا رقيب ولا حسيب.. ولا علاج لاقتصاد مصر إلا إذا تحولنا إلى خدم لهذا الوهم الكبير الذى يسميه البعض المستثمر الاجنبى .. بغير أن نرى هذا المستثمر الأجنبى مطلقاً طوال خمس عشرة سنة، ولو كان لدينا رجال أعمال حقيقيون.. لكانوا هم الذين جاءوا إلينا بالمستثمر الأجنبى الحقيقى.. لأن أى مستثمر أجنبى أو غير أجنبى يثق فى زميله صاحب المال بأكثر مما يثق فى كل حكومات الأرض مجتمعة!

من هو رجل الأعمال؟

هل هو واحد من أولئك المحترفين الذين يتحدثون كما لو كانوا مستشرقين منفصلين تماماً عن الشعب الذى يعيشون بينه؟ إن رجل الأعمال الحقيقى هو الذى يريد مناخاً آمناً لأمواله.. وهذا المناخ الآمن لا تحققه قوات الأمن المركزى، ولكن يحققه الرضاء العام بقواعد اللعبة والإحساس بأنها منصفة لجميع الأطراف، أما حينما يكتب شخص مطالباً الحكومة المصرية بأن تبيع له القطاع العام بنصف الثمن، وبشرط التقسيط المريح، وبشرط فصل نصف العاملين لأنهم سيصبحون هكذا يتنبأ مشاغبين، وبشرط أن تدفع الحكومة لهؤلاء المفصولين إعانة بطالة .. فإن مثل هذا الشخص يعيش فى كوكب آخر وقرن آخر ومجتمع آخر غير هذا المجتمع، وهو بالكثير سمسار يريد لنفسه ثراء سريعا وغير مشروع حتى لو كان الثمن خراب مالطة .

والشىء اللافت أن محترفى هذه المطالب الشاذة هم شريحة أخرى تختلف تماماً عن أولئك الذين يؤمنون حقاً بالرأسمالية والاقتصاد الحر فى بلدنا، ويعملون فى صمت داخل مصانع ومزارع أقاموها بعقولهم وعرقهم دون أن يفكروا للحظة واحدة فى التحول إلى زعماء سياسيين، وعلى سبيل المثال، فإننا نشاهد بين وقت وآخر مصانع السجاد فى مدينة السادس من أكتوبر التى أصبحت شهيرة تليفزيونياً من زيارات الرئيس حسنى مبارك لها، وسمعنا عن عشرات من المصانع المصرية قطاع خاص التى تصدر إنتاجها إلى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية وافريقيا، بل إنه فى معرض أخير للصادرات المصرية شاهدنا فى التليفزيون شباباً عصاميين مصريين يتحدثون عن صادراتهم إلى استراليا وكندا.. هؤلاء عرفناهم بعملهم وإنتاجهم ولم نعرفهم أبداً بأسمائهم.. واستبعد تماماً أن يتذكر عشرة مصريين فقط اسم أى واحد من هؤلاء.. فهم لا يعلنون عن أشخاصهم

ولا يحضرون اجتماعات سياسية ولا يبذرون أموالهم فى حملات تليفزيونية ولا يشترون ذمماً ولا يسعون إلى أن يكونوا نجوم مجتمع.

ومستقبل القطاع الخاص فى مصر يعتمد على مثل هؤلاء.. بالضبط، فرجل القطاع الخاص الحقيقى ليس هو الذى يسعى إلى مجتمع بلا ضوابط، ولا هو الذى يريد لنفسه احتكار كل الامتيازات على حساب الأغلبية الفقيرة، ولا هو أيضاً الذى يصول ويجول فى ملعب بلا قواعد، إنه يريد فقط أن تكون اللعبة واضحة ولها قواعدها المعلنة وتسرى على الجميع بلا استثناء، والأهم من هذا كله، أن تكون القواعد محل رضاء الأغلبية فى هذا المجتمع.

وبين وقت وآخر يحلو لبعض المحترفين أن يبهرنا بأمريكا، على اعتبار أن الولايات المتحدة هى قلعة الرأسمالية والاقتصاد الحر فى هذا العالم، وهى الدولة الأغنى والأقوى، وهى المحامى المكلف من العناية الإلهية بتمثيل القطاع الخاص، حسناً، ربما تكون أمريكا هى هذا كله، لكن تلك هى فقط نصف الحقيقة.

فصحيح أن أمريكا هى تمثال الحرية وبنطلون الجينز ودجاج كنتاكى وساندوتشات الهامبورجر وحلقات دالاس، وصحيح أنك فى المجتمع الأمريكى تستطيع أن تفعل أشياء عديدة من شراء مسدس إلى جهاز تنصت إلى الإصابة بمرض الإيدز بلا رقيب لكن هذا لم يكن هو الذى جعل أمريكا أغنى دولة فى العالم مطلقاً، والرأسمالى الأمريكى يعرف أنه فى مجتمع يسوده القطاع الخاص، لكن هذا لا يعنى بالمرة أن الأمور فى المجتمع الأمريكى تسير سداح مداح كما يخيل لذوى العقول الفارغة هنا الذين خلطوا بين قشور المجتمع الأمريكى وجوهره.. فلم يميزوا بينهما.

نعم.. أمريكا هى مجتمع القطاع الخاص (على الرغم من أن خمس المشروعات الكبرى فى أمريكا هى فى الحقيقة قطاع عام ولكن تلك قصة أخرى). من حق أى صاحب مال أن ينشئ لنفسه المشروع الذى يراه وسيجد عشرات البنوك أمامه فى السوق لكى تموله بالقروض المناسبة، وإذا أصبح هذا الشخص ثرياً فى نهاية المطاف فإنه يستمتع بثروته بالكامل، لكن هذا هو مجرد نصف الحقيقة، أما النصف الآخر من الحقيقة هو: إن مثل هذا الثرى العصامى لو ثبتت عليه تهمة التهرب من الضرائب القانونية أو مجرد التلاعب فيها فإنه يحاكم علناً وفوراً ويتم سجنه بلا شفيع أو وسيط، وفى هذا العام مثلاً تجرى

فى نيويورك محاكمة بليونيره ثبت عليها تهمة التهرب من سداد مليون دولار ضرائب، إنها وزوجها يملكان سلسلة فنادق شهيرة، وآلاف الأفدنة، وخمسين ألف شقة سكنية، وثروة إجمالية قدرها ألف وأربعمائة مليون دولار وترتيبها هو ٦٥ من أغنى أغنياء أمريكا، ولو ظل كل منهما ينفق على نفسه مليون دولار يومياً مدى الحياة لبقيا حتى نهاية العمر من كبار الأثرياء، فعمر المرأة ٦٧ وزوجها ٧٩، وهما بلا ذرية.

مع ذلك خرقت البليونيرة قواعد اللعبة، فتلاعبت فى الضرائب المستحقة عليها للدولة بما يوفر لها مليون دولار فقط، فكانت النتيجة هى المحاكمة الجارية الآن والتى ستنتهى بالسجن طبقاً لقانون الضرائب، قانون لا يرحم.

نعم، من حق كل مواطن أمريكى أن يستثمر ماله كما يشاء ويقترض بقدر ما تسمح له البنوك، لكنه إذا انهار مالياً أو حتى أفلس لأسباب قاهرة، فإنه لا يجرؤ على الصراخ أو الشكوى أو طلب المساعدة الحكومية، هذا هو النصف الآخر من الحقيقة.

وخلال أزمة اقتصادية كبرى وشهيرة اجتازها العالم كله فيما بين سنتى ١٩٢٩ و ١٩٣٢ أفلس فى أمريكا ٣٧٥٠ بنكاً دفعة واحدة، وتعرضت بيوت ملايين الأمريكيين للخراب المستعجل، بل وانتحر الآلاف من أرباب الأسر ورجال الأعمال بغير أن يجرؤ صوت واحد على المطالبة بتدخل بنك الاحتياط الفدرالى البنك المركزى لإنقاذ المتعسرين أو تحمل خسائر البنوك المفلسة، وحينما تدخلت الحكومة الأمريكية وقتئذ فإنها تدخلت فقط لحماية الذين تعطلوا عن العمل وليس لإسعاف المنهارين مالياً من رجال الأعمال، وتلك هى أصول اللعبة، فالمجتمع الرأسمالى حينما يعطى الحرية لرجل أعمال فانه فى نفس الوقت يحمله المسئولية الكاملة عن تصرفاته، ولا يحق له بعدها أن يستغيث بالمال العام تحت يد الحكومة بحجة أو بأخرى مثل تلك التخريجات التى نقرؤها ونسمعها فى مصر خلال السنوات الأخيرة.

نعم، أمريكا نموذج للمجتمع الرأسمالى والحرية الاقتصادية فى عالمنا المعاصر، لكن القانون يلزم كل بنك أمريكى مثلا بان يبلغ السلطة الحكومية اوتوماتيكياً بكل مبلغ يقوم مواطن بتحويله إلى الخارج، إذا تجاوز عشرة آلاف دولار، وفى المجتمع الأمريكى يحصل مديرو الشركات الكبرى على أضعاف المرتب الذى يحصل عليه الرئيس الأمريكى، ومرة أخرى هذه هى نصف الحقيقة، أما النصف الآخر فهو أن هذا المدير يتعرض للحساب

الدورى العسير من المساهمين، وإذا تخلف عن إنجاز أهداف شركته، أو عن الخروج بها فائزة فى المنافسة مع الشركات الأخرى، فإنه يفصل فوراً.

وأمريكا بلد التجارة الحرة، وهى فى الخارج تقدم مواعظ يومياً للدول النامية عن ضرورة خضوع الأسعار لمنطق السوق وضرورة إلغاء أى دعم، ومع ذلك ففى سنة ١٩٨٦ دفعت الحكومة الأمريكية من ميزانيتها ٢٥ مليار دولار دعما لمزارعيها، حيث تشترى منهم مزروعاتهم بأعلى من سعر السوق حتى لا يهجروا الزراعة، وهى لا تريد من حلفائها فى أوروبا الغربية أن يبيعوا الزبد الفائض عن حاجتهم إلى الدول النامية بأسعار أقل من التكلفة، ومع ذلك فهى تبيع القمح الأمريكى للاتحاد السوفيتى بأسعار مدعومة، لأن الأمر هنا يصبح سياسة.. وليس مجرد تجارة.

إن الشعار الدائم للمجتمع الرأسمالى هو الدفاع عن حرية التجارة، لكن هذا الشعار يسقط فوراً إذا تعارض مع مصلحة وطنية، ففى أمريكا أكبر صناعة سيارات فى العالم، ولكن حينما زادت مبيعات السيارات اليابانية داخل السوق الأمريكية عن القدر الذى يمكن تحمله، ضغطت أمريكا على اليابان بشدة كى تقبل قيوداً اختيارية تحد من تدفق سياراتها على السوق الأمريكى، ولنفس السبب، وهو حماية الصناعة المحلية، ليس مسموحاً للسيارات اليابانية بأن تأخذ من سوق بريطانيا أكثر من ١١ ٪، وفى فرنسا ثلاثة بالمائة، وفى ايطاليا أقل من واحد بالمائة.

وكل تلك هى دول تدعو لمبدأ التجارة الحرة، لكن حينما تتعارض مصالح الصناعة الوطنية مع مصالح الصناعات الأجنبية.. تبدأ القيود وتسقط حرية التجارة، والذى يدفع الحكومات إلى ذلك هم أنفسهم رجال الأعمال الوطنيون.. فلأنهم رجال أعمال وليسوا سماسرة، ولأنهم أقاموا صناعات حقيقية فقد ارتبطت مصالحهم بمصالح مجتمعهم وليس بعمولات الشركات الأجنبية التى تريد أن تسرق منهم السوق الوطنى.

نعم، أمريكا بلد الحرية الاقتصادية، لكن تلك الحرية ليست مطلقاً كما يردد السماسرة هنا، فالنصف الآخر من الحقيقة هو القيود السياسية التى ارتضاها المجتمع كقواعد منصفة للعبة، فالمليونير فى القطاع الخاص يمكن أن يكون مسئولاً حكومياً بالانتخاب أو بالتعيين لكنه فى هذه الحالة ملزم بأن يحول ثروته إلى وديعة عمياء يتم أدارتها لحسابه دون تدخل منه طوال فترة شغله للمنصب العام، حتى لايستغل منصبه للإثراء الشخصى،

وقبل شهور قليلة تم إرغام جيم رايت زعيم الأغلبية فى مجلس النواب الأمريكى على الاستقالة حينما ثبت عليه استغلال موقعه للحصول على مواد مالية غير مسموح بها، والآن فإن أعضاء الكونجرس وأعضاء السلطة التنفيذية وكل من يزيد دخله على ٥٥٠٠ دولار شهرياً ممنوع من استغلال نفوذ موقعه السابق لحساب أى أطراف أخرى، والحظر يستمر لمدة سنة بعد تركه موقعه، أكثر من ذلك.. فإن كبار موظفى الحكومة الذين يتركون الخدمة ممنوعون قانوناً من العمل لحساب المنظمات الدولية بما فيها الأمم المتحدة، أو لحساب أى حكومة أجنبية، لمدة سنتين على الأقل بعد ترك مناصبهم.

هناك إذاً أصول لكل لعبة.. وأسباب حقيقية لقوة كل مجتمع، إن المسألة فى حالة أمريكا مثلا ليست بنطلون جينز وساندوتشات هامبورجر، فنصف سكان أمريكا اللاتينية مثلاً يأكلون هامبورجر ودجاج كنتاكى لكن هذا لم يجعلهم يصلون إلى سطح القمر، إن المجتمع الامريكى يمتلك أسباب نهضته فى داخله ومن خلال ظروفه الخاصة، وهى أسباب وظروف حقيقية لأن قواعد اللعبة واضحة مقدماً أمام المجتمع.

وبالطبع يتكلم الأمريكيون خارج حدودهم بلغات أخرى لا تصبح بالضرورة مقدسة لمجرد أنها معجونة بلكنة أمريكية، وفى الهند مثلاً ظلت إحدى شركات المياه الغازية الأمريكية لثلاث سنوات تحاول بيع منتجاتها فى السوق الهندى الواسع بلا جدوى لأن الهند لديها قوانين واضحة وشروط محددة، وبعد أن جربت الشركة الأمريكية التذمر والسخط والشكوى والضغط سنة بعد أخرى لم تحصل على الامتياز الذى تريده إلا بعد أن نفذت الطلبات الهندية، إقامة مركز ضخم للبحوث الزراعية داخل الهند، ومصنع كبير للخضراوات والفاكهة يستفيد منه ٢٥ ألف فلاح، وحصة محددة للتصدير إلى الخارج.

وطوال هذا كله لم يخرج صوت هندى واحد ليطالب بتغيير القوانين ومضاعفة الامتيازات للطرف الاجنبى، إن هذا يعنى بالطبع أنه لا يوجد فى الهند سماسرة ووكلاء للمصالح الأجنبية، لكنه يعنى فقط أن فى الهند شريحة قوية من رجال الأعمال الحقيقيين الذين ارتبطت ثرواتهم بقوة بلدهم، وهو الأمر الذى جعل الهند الآن.. فى عالمنا المعاصر وكل الدول النامية.. أكبر مجتمع ديمقراطى ورأسمالى فى وقت واحد.

لكننا هنا فى مصر نجد من يتحدث بمنطق الرأسمالية ساعة الغنائم.. وبمنطق الشيوعيين ساعة الأعباء، والمشكلة أن هذا السلوك يضعف تماماً فرص ظهور رجال

الأعمال الحقيقيين الذين يجب أن يتقنوا اللعبة بأصولها، فهم لم ينطلقوا خارج الحدود إلا إذا أصبحت لهم جذور حقيقية داخل الحدود.

أما اختراع الاعتماد على إسعافات حكومية بين وقت وآخر، أو تحليل المال العام لإنقاذ هذا أو ذاك، أو أن يكون المرء وزيراً أمس ثم رئيساً اليوم لبنك أو شركة كانت فى نطاق إشرافه، أو أن يكون مسئولاً يطارد تجارة العملة فى سنة ثم موظفاً لدى أحدهم فى السنة التالية.. أو أن نعطى الامتيازات لرجل أعمال فى لحظة، ثم نحلل لهم الاستيلاء على المال العام بحجة وأخرى فى اللحظة التالية، فكلها اختراعات لا نجدها إلا فى مصر فقط.

فإذا أصبحت المسألة هى أن نمارس شعار اللعبة دون مضمونها.. نصبح أمام مفارقة كبرى تؤدى فى النهاية إلى قتل رجال الأعمال الحقيقيين فى القطاع الخاص.. ونمو السماسرة بديلاً عنهم، ولتجرب معى الآن أن تتذكر اسم المواطن الصالح ورجل الأعمال العصامى الذى تبرع قبل سنتين بإقامة مدرسة فى قريته بالدقهلية تكلفت مليونين من الجنيهات.

ومن الآن أقول لك لن تتذكر اسمه، لكنك تستطيع أن تطالع أسماء العشرات من السماسرة كل يوم، والمشكلة هى أن هؤلاء الآخرين هم أحياناً أصحاب الصوت العالى!

■■ لو ضحك السياسيون قليلا!

أراد أحد الملوك أن يخرج فى رحلة صيد.. فنادى على وزير البلاط ليسأله: هل تعتقد أن السماء ستمطر اليوم؟ ورد عليه الوزير بسرعة: لا يا صاحب الجلالة.. إن السماء صافية والجو بديع للصيد، وهكذا خرج الملك وركبه على الفور.. متجهين للصيد. وفى الطريق قابل الملك فلاحاً يركب حماراً وعندما رآه الفلاح قال للملك: ليس هذا يوماً مناسباً للصيد يا صاحب الجلالة.. السماء ستمطر بعد قليل..

وضحك منه الملك ساخراً.. واستمر فى طريقه. بعد قليل بدأت السماء تمطر بشدة.. واضطر الملك إلى أن يقطع رحلته عائداً بعد أن قرر طرد وزير البلاط من منصبه. ثم أمر الملك باستدعاء الفلاح.. حيث سأله: أخبرنى كيف عرفت أن السماء ستمطر.. بينما لم يعرف وزير البلاط؟

ورد عليه الفلاح ببساطة قائلاً: اننى لم أعرف يا صاحب الجلالة.. ولكن حمارى هو الذى عرف، فكلما مد الحمار إذنيه إلى الأمام، يكون معنى هذا أن المطر على وشك السقوط، وأمر الملك الفلاح بالانصراف وإحضار الحمار.. وعندما وصل الحمار.. أصدر الملك على الفور مرسوماً بتعيين الحمار وزيراً للبلاط!

ومن يومها حتى الآن.. أصبح كل حمار فى هذا البلد يريد أن يتعين وزيرا.

إنها بالطبع نكتة، ولكنها نموذج واضح للنكتة السياسية، والأكثر تمييزاً لها هو أن الذى كان يرويها دائماً هو الرئيس الراحل للولايات المتحدة الأمريكية: أبراهام لنكولن. ولقد كان لنكولن يريد أن يخبر الجميع برفضه لذلك التكالب الفاضح على المناصب العامة.. فاختار أسلوباً فكاهياً ليفعل ذلك.. بالرغم من أن الفكاهة فى النهاية لم تخفف مطلقاً من قسوة السخرية اللاذعة فى حدتها.

نكتة أخرى، من القرن العشرين وهذه المرة: لقد قال الرئيس الامريكى الأسبق جون كنيدى لأصدقائه يوماً: هل سمعتم بتلك الواقعة، لقد دخل مواطن سوفيتى غاضباً إلى مبنى الكرملين فى موسكو وهو يصيح: إن خروشوف غبى.. وأحمق..!

وعلى الفور أمر خروشوف، الذى كان رئيساً للوزراء وقتها، بالقبض على الرجل.. حيث بدأت محاكمته على الفور. وفى نفس اليوم صدر الحكم بالسجن ضد الرجل، لمدة ٢٣ سنة!

وصاح المواطن السوفيتى فى تشنج غاضب: ٢٣ سنة سجنا لمجرد أننى شتمت رئيس الوزراء.

ورد عليه القاضى: نعم: ثلاثه سنوات منها لأنك أهنت رئيس الوزراء.. والعشرون سنة الأخرى لأنك أفشيت سراً من أسرار الدولة العليا!

لم تكن المفاجأة هنا هى النكتة وحدها ولكن المفاجأة الأخرى أن كنيدى قال إن الذى روى له النكتة هو خروشوف شخصياً عندما اجتمع به فى فيينا!

ولم يكن الرئيس الأمريكى كنيدى يحب فقط سماع نكات وفكاهات الآخرين.. ولكنه كان أيضا يستخدم الفكاهة ضد الآخرين.. وأحياناً ضد نفسه!

وعندما قام كنيدى بأول زيارة رسمية له إلى فرنسا باعتباره رئيساً لأمريكا.. وقف فى حفل استقبال أقامه له الرئيس الفرنسى ديجول وهو يقول مشيراً إلى زوجته: أقدم لكم

مسز جاكلين كنيدى.. ثم أقدم لكم نفسى باعتبارى الرجل الذى يصاحب جاكلين كنيدى!

وفى انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة.. كان المرشح رونالد ريجان يقول كثيراً أن (الرئيس) جيمى كارتر لم يصب الاقتصاد الأمريكى بالتراجع فقط.. ولكنه يمكن أيضاً أن يصيبه بالكساد.

وسئل ريجان على الفور: ولكن، ما هو الفرق بين (التراجع).. (والكساد)؟

أجاب ريجان أن (التراجع) يحدث حينما يفقد جارك وظيفته.. و(الكساد) يحدث حينما تفقد أنت وظيفتك.. أما الإصلاح فيحدث حينما يفقد (الرئيس) جيمى كارتر وظيفته!

بالطبع، صفق الناخبون فوراً.. وتلك هى خطورة استخدام النكتة فى السياسة، من حيث سهوله تحقيق هدفها على الفور. ومن هنا يحرص بعض السياسيين أحياناً وغالباً على الاستعانة بالفكاهة السياسية كسلاح أساسى ضد خصومهم!

ومن ذلك، فإن النكتة، أو الفكاهة بصفة عامة، هى سلاح ذو حدين فى السياسة. فالرئيس الامريكى الراحل لنكولن مثلاً كان من أشهر الذين يستخدمون الفكاهة فى أحاديثهم السياسية خلال القرن التاسع عشر. وحتى فى اجتماعاته بالوزارة.. كان مشهورا عنه أنه كثيراً ما يقطع المناقشات الوزارية الجادة بقوله: إن هذا يذكرنى بنكتة صغيرة ثم ينطلق فى رواية نكتة أو حكاية فكاهية.

لقد وصل الأمر بلنكولن إلى أن شنت عليه بعض الصحف الأمريكية فى سنة ١٨٦٣ هجوماً مريراً تتهمه فيه باللامبالاة، خصوصاً وهناك مذابح متوالية تشهدها الحرب الأهلية الأمريكية فى ذلك الحين. ونشرت له إحدى الصحف رسماً كاريكاتيرياً.. حيث تقول له فيه ولاية كولومبيا: أين الخمسة عشر ألفا من أبنائى الذين قتلوا فى مذبحة فريدر بكسبرج الأخيرة؟

ويرد لينكولن، فى الرسم، قائلاً: إن هذا يذكرنى بنكتة صغيرة..!

ولقد اعترف لنكولن دائماً بأنه يحب استخدام الفكاهة فى السياسة.. ثم أضاف معقباً، اننى وجدت من خلال التجربة الضخمة أن الناس العاديين يتلقون المعلومات من خلال النوادر المسلية والحكايات الفكاهية، بسهولة أكبر من أى طريقة أخرى.

مع ذلك فإنه حدث كثيراً، وغالباً، أن استخدام رجال السياسة النكت السياسية، أو

السخرية بصفة عامة للنيل من بعضهم البعض.. أو من القضايا المطروحة للمناقشة.

وفى القرن الماضى مثلاً وصل استخدام السخرية الفكاهية اللاذعة كسلاح إلى قمته فى مناقشات مجلس العموم البريطانى، لقد قال أحد الوزراء مرة لنائب معارض: إننى، أيها العضو المحترم، أتنبأ لك من الآن أنك.. إما أن تموت على حبل المشنقة.. أو ستموت من مرض تناسلى..!

ووقف العضو المعارض يرد على الوزير بقوله: إن هذا سيتوقف يا سيدى على.. ما إذا كنت سأحتضن مبادئك.. أو سأحتضن عشيقتك!

وكان بنيامين ديزرائيلى، أحد رؤساء الحكومات فى بريطانيا خلال القرن الماضى، فى مقدمة من دفعوا بالسخرية السياسية لكى تصل إلى حد الهجاء السياسى، لقد كان من البداية يؤمن بأنه فى السياسة لا يوجد شرف .. وكان منافسه جلاد ستون الذى أصبح هو الآخر رئيساً للوزراء، يحتل نصيباً كبيراً من هجاء ديزرائيلى.

لقد سئل ديزرائيلى مرة عن الفرق بين سؤ الحظ والمصيبة فأجاب قائلاً: حسناً.. لو أن خصمه جلاد ستون سقط فى نهر التيمس فإن هذا سيكون سوء حظ.. أما لو أنقذه شخص ما من الغرق فتلك ستكون المصيبة!

وكان ديزرائيلى يصارح ناخبيه قائلاً: أيها السادة، ليس هناك شك فى أن كل الرجال الذين يرشحون أنفسهم للمناصب السياسية لديهم دوافع إلى ذلك من نوع آخر، وأنا مثلهم لدى أيضاً دوافعى التى سأخبركم بها.. إننى أحب الشهرة، وذيوع الصيت، ومن أجل هذا دخلت ميدان السياسة !

وبعد ديزرائيلى شهدت السياسة البريطانية أبطالاً كثيرين فى فن السخرية، بعضهم إلى درجة الهجاء مثل لويد جورج، وبعضهم إلى درجة السخرية مثل ونستون تشرشل.. ولكن فى جميع الأحوال كانت الفكاهة لا تصل إلى قمتها إلا عندما تتحول إلى مبارزة مستمرة.. داخل البرلمان أو خارجه، للاستيلاء على مشاعر المستمعين أو تصفيقهم.

إن بعضهم مثل ونستون تشرشل مثلاً الذى أصبح رئيساً لوزراء بريطانيا سنة ١٩٤٠ أثناء مواجهتها لمحنة الحرب العالمية الثانية، كان يهتم باستخدام السخرية اللاذعة إلى درجة أنه كان يحتفظ فى جيبه دائما بنوت صغيرة يسجل فيها العبارات القصيرة التى يظل يتحين لها الفرصة لشهور أحياناً، لكى يفاجئ بها مستمعيه.

وقد أرسل الكاتب المسرحى الشهير جورج برنارد شو مرة إلى رئيس الوزراء البريطانى ونستون تشرشل دعوة لحضور افتتاح مسرحية جديدة له، ومعها ورقة كتب له فيها: (هذه تذكرة لك.. وتذكرة أخرى لأى صديق تختاره، هذا إذا كان لك صديق)!

واعتذر تشرشل بسبب ارتباطه فى تلك الليلة، ولكنه كتب إلى برنارد شو يطلب منه إرسال تذكرتين فى الليلة التالية من المسرحية.. إن كانت ستكون هناك ليلة تالية .

وبرغم أن تشرشل كان حاد العبارة أحياناً إلى درجة سلاطة اللسان.. إلا أن أحد الذين كانوا يواجهونه فى مقاعد المعارضة، بينما هو فى قمة سلطته، لم يكن يقل عنه شيئاً فى ذلك، وأعنى به لنورين بيفان أحد زعماء حزب العمال.

لقد وقف بيفان فى مجلس العموم يوماً لكى يواجه رئيس الوزراء تشرشل بقوله: إن رئيس الوزراء هذا يتمتع بفضائل عديدة.. ولكن ليس من بينها الحكمة أو البصيرة، أو الأمانة السياسية!

وعندما حاول تشرشل أن يناشد البرلمان التمسك بالوحدة الوطنية، خاصة أثناء الحرب، رد عليه بيفان قائلاً: إنك لا تريد وحدة وطنية.. ولكنك تريد منا الاشتراك فى مؤامرة صامته ضد المستقبل!

ولقد حاول تشرشل فى الواقع أن يعبئ أنصاره السياسيين خلال تلك الفترة.. ومع ذلك فقد كانت هناك مجموعة أخرى، فى مقدمتها بيفان، يشعرون بأنهم لو سمحوا للحكومة بالإعفاء من المساءلة والمعارضة فإن هذا سيؤدى على الفور إلى ضمور الديمقراطية، إن مثل هذا الاحتمال لم يكن خطراً من حيث المبدأ فقط، ولكنه كان خطراً على مجرى الحرب العالمية نفسها.. التى يتحجج تشرشل بها.

ولقد أوشك أنصار تشرشل على أن يتهموا بيفان بالخيانة.. ومع ذلك فان التاريخ اثبت فيما بعد أن الحق كان مع بيفان فى معظم الانتقادات الحادة التى وجهها إلى رئيس الوزراء تشرشل وحكومته.. لقد هاجم بيفان مثلاً إصرار تشرشل على أن يجمع بين منصبى رئيس الوزراء ووزير الدفاع.. ثم ثبت فيما بعد أن تدخلات تشرشل فى أعمال القادة العسكريين قد تسببت لبريطانيا فى خسائر عسكرية فادحة، بما فيها خسارة جيش كامل فى سنغافورة.

وكان بيفان يواجه رئيس الوزراء فى مجلس العموم وهو يصيح فى وجهه: ربما تستطيع

أنت أن تكسب كل مناقشة تجرى هنا.. مع ذلك فإنك تخسر كل فرقة مسلحة تدفع بها إلى الحرب هناك.

ولقد اضطر تشرشل نفسه بعد ذلك إلى الأخذ بآراء بيفان وعدم التدخل فى أعمال العسكريين.. ومع ذلك.. فعندما قلت هزائم بريطانيا أمام قوات هتلر.. وبدأت الانتصارات لم يسكت بيفان عن معارضة رئيس الوزراء..

لقد قال عنه مرة: إنه أى تشرشل يتحدث عن الهزيمة باعتبارها كارثة من عند الله.. ويتحدث عن كل انتصار باعتباره شيئاً من عنده هو..!

وأثناء الحرب، فوجئ بيفان بصديق يسأله لماذا أنت مستمر فى الهجوم ضد تشرشل داخل وخارج البرلمان؟ هل تصورت للحظة ما يمكن أن يحدث لنا لو أنه خرج من رئاسة الحكومة؟

وأجاب بيفان على الفور: حسناً: فلنفترض أنه سقط قتيلاً تحت أتوبيس.. ماذا يجب علينا أن نفعل حينئذ؟ نرسل ورقة إلى هتلر نعلنه باستسلامنا؟!

وبالطبع كان تشرشل هو الآخر يرد هجمات بيفان بهجمات أخرى يستخدم فيها قدرته على السخرية واستخراج ضحكات مستميتة. بل إنه فى بعض الأحيان كان يجعل من نفسه هو موضوعا للضحك.. مثلما حدث حين ذهب إلى باريس بعد تحريرها، وأراد أن يخطب بضع فقرات باللغة الفرنسية مع وعيه بعدم إجادته لها.. وهكذا قال: أيها الفرنسيون اننى أحذركم الآن من إننى سأتحدث باللغة الفرنسية، وهذا تصرف قاهر ورهيب من جانبى، يمثل أيضا امتحاناً عسيراً لمشاعركم الصديقة نحو بريطانيا!

ولقد قالت له سيدة مرة، من حزب العمال المعارض:

ونستون.. لو أنك كنت زوجى لوضعت لك السم فى قدح القهوة..

ورد عليها تشرشل: سيدتى: لو أننى كنت زوجك لوجب على أن أشرب تلك القهوة!

وبالرغم أن الولايات المتحدة كدولة، ولدت من باطن بريطانيا بعد أن كانت إحدى مستعمراتها. إلا أن الحياة السياسية الأمريكية، ومن ثم الفكاهة السياسية. التى بدأت متشابهة فى البداية سرعان ما اتجهت بسرعة نحو الاختلاف. فالطبقة الحاكمة فى بريطانيا كانت تميل إلى التجانس.. بينما أمريكا بلد أصبح ابعد ما يمكن عن التجانس. ومجلس العموم البريطانى تحكمه تقاليد وطقوس عديدة من حيث الإجراءات.. بعكس

الحال فى الكونجرس الأمريكى ولكن النقطة الأكثر تمييزاً لمجلس العموم عن الكونجرس، ومن ثم ينعكس أثرها على مدى استخدام الفكاهة والسخرية فى السياسة، وهى وقت الأسئلة . فبعد الثانية والنصف من ظهر كل يوم يصبح من حق كل عضو بمجلس العموم البريطانى توجيه أى سؤال لأى وزير.. والأسئلة يتم تسليمها كل يوم وإعطاؤها أرقاماً مسلسلة وتعليقها فى لوحة النظام بالمجلس.. حيث يستطيع كل وزير أن يلقى بنظرة عليها لكى تصبح لديه فرصة لتحضير إجابته. وبالطبع ليس هناك التزام قانونى بأن تتم الإجابة فوراً على هذا النوع من الأسئلة التى توجه فى نفس اليوم.. ولكن جرى العرف على ضرورة الإجابهة عليها.

أيضاً، كجزء من هذا التقليد، لا يوضع سؤال موجه إلى رئيس الوزراء قبل رقم ٤٥، وذلك بهدف إعطاء الوقت الكافى الذى ربما يحتاجه رئيس الوزراء لإعداد إجابته. ومع ذلك فإن هذا القيد يلغى تماماً يومى الثلاثاء والخميس من كل أسبوع.

وفى العادة فإن تلك الأسئلة التى توجه إلى الوزير فى نفس اليوم لا يكون هدفها الحصول على معلومات.. ولكن إحراج الوزير. وهذا فى حد ذاته يمثل امتحاناً لقدرة كل وزير على التصرف.. ويجعل مناقشات مجلس العموم تتسم بالحيوية وخفة الدم وسرعة البديهة.. فمن الممكن فى أى مناقشة من هذه أن تؤدى هزيمته إلى السقوط.. ومن ناحية أخرى فإن عضو مجلس العموم يصبح مدرباً تماماً قبل أن يتم ترشيحه فيما بعد لأى منصب وزارى.

وكل تلك النتائج مستحيلة الحدوث فى الكونجرس الأمريكى.. حيث اعتاد الأعضاء على الاستعانة بكتاب محترفين لإعداد كلماتهم وهم غالباً لا يقولونها.. وإنما يسلمونها مكتوبة لأن هدفهم منها هو مجرد تسجيلها لأهداف انتخابية.

ومن هنا تقلصت استخدامات الفكاهة فى الحياة البرلمانية والسياسية الأمريكية إلى حد كبير خلال السنوات الأخيرة.. الأمر الذى جعل السيناتور الجمهورى كينيت كيتنج مشهوراً لمجرد عبارة واحده قال فيها: إن روزفلت أثبت أن المرء يستطيع أن يكون رئيساً لأمريكا مدى الحياة وترومان أثبت أن أى شخص يستطيع أن يكون رئيساً.. وإيزنهاور أثبت أننا لا نحتاج إلى وجود رئيس على الإطلاق !

وخلال السنوات الخمسين الأخيرة لم يشتهر بروح السخرية والفكاهة السياسية

فى أمريكا سوى ثلاثة: أولهم الرئيس الراحل فرانلكين روزفلت. إنه، بعكس تشرشل وديزرائيلى لم يكن يبتكر النكتة، ولكنه كان على الأقل يستمتع بنكات الآخرين.

وكان روزفلت يتعرض لنقد عنيف.. ومستمر من جانب الصحافة الأمريكية طوال سنوات حكمه.. الأمر الذى أضطره مرة إلى أن يقول ساخطاً: إنهم لم يكتفوا بانتقادى وانتقاد زوجتى وابنائى إنهم الآن ينتقدون كلبى الصغير فالا .. حسناً. بالطبع أنا غير مستاء من هذا الهجوم، واسرتى أيضاً غير مستاءة.. ولكن الكلب فالا مستاء بشدة !

السياسة بأثر رجعى

بين وقت وآخر تكتسب بعض وقائع التاريخ عند إعادة فحصها أهمية ودلالة ربما كانت خافية فى حينها، ثم أهمية أكبر فى الحاضر على ضوء الإستمرار فى تكرار الأخطاء نفسها، وبالعقلية نفسها. والحدث الذى أتوقف عنده هنا هو ماسمى تاريخياً مظاهرات الخبز فى مصر فى مثل هذا الشهر قبل ثلاثين سنة، وأسماه أنور السادات انتفاضة الحرامية متمسكاً بتلك الرؤية حتى رحيله.

الحدث قد يبدو لأول وهلة محلياً، بل وحتى مألوفاً بين وقت وآخر فى دول عديدة. وشرارة الحدث انطلقت أساساً من قيام الحكومة فى مصر برفع أسعار خمسة وعشرين سلعة أساسية، منها الأرز والخبز والسكر والسجائر والبوتاجاز وبنزين السيارات.. إلخ. الرفع المفاجىء لتلك الأسعار أشعل غضباً شعبياً فى مصر عبر عن نفسه فى مظاهرات عارمة ضد الحكومة والنظام بما فاجأ الجميع وأولهم الرئيس المصرى فى السلطة، أى أنور السادات، وفى بعض الروايات دفعه إلى التفكير بالفرار بالطائرة لجوءاً إلى صديقه الشاه حاكم إيران فى حينها. إن هذا لم يحدث لأن إلغاء زيادات الأسعار وفرض حظر التجول وإنزال الجيش إلى الشوارع أعاد الأمن المختل فى الشارع المصرى.. وهى لحظة استثنائية تماماً. فلم تحدث مثل تلك الإجراءات فى مصر قبلها مطلقاً منذ حريق القاهرة فى مطلع سنة ١٩٥٢.

من المنظور التاريخى تكتسب أحداث ١٨ و١٩/١/١٩٧٧ فى مصر أهمية مضاعفة انطلاقا من مجموعة حقائق. فأولاً: لم يحدث فى التاريخ المصرى الحديث، ربما منذ

ثورة ١٩١٩، أن خرج الشعب بمجموع طوائفه معلناً غضبه العارم ضد السلطة الحاكمة، وطوال ٤٨ ساعة متصلة، امتدت فيها المظاهرات الغاضبة من الإسكندرية شمالاً إلى أسوان جنوباً، حيث كان السادات يقضى وقته فى مشتاه واستراحته المفضلة هناك.

ثانياً: إن حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن قد مضى عليها سوى ثلاث سنوات وكسور. وهى الحرب التى أعطت للسادات شعبية غير مسبوقة فى الشارع المصرى وحتى فى الشارع العربى، بما سمح للسادات أن يبشر الجميع بالسلام مع اسرائيل القادم على الأبواب ومعه الرخاء الإقتصادى للمصريين جميعاً بعد طول تقشف والإنفتاح على أمريكا والغرب بعد طول مواجهة، والمعونات العربية القادمة إلى مصر بمليارات الدولارات بعد القفزة الفلكية فى أسعار البترول كنتيجة مباشرة لحرب أكتوبر واستعادة البترول العربى لبعض حقوقه الضائعة بقرارات من جانب واحد بعد طول استغلال ونهب لهذا البترول بسعر التراب.

ثالثا: استعداداً لاستقبال مليارات الدولارات هذه الهابطة من السماء صدرت فى مصر قوانين جديدة تعطى امتيازات غير مسبوقة للإستثمارات الأجنبية والسماح لأول مرة منذ عقود بوجود بنوك أجنبية فى مصر، وأمريكية تحديداً افتتحت لها فروع فى مصر عقب زيارة ريتشارد نيكسون فى سنة ١٩٧٤، كأول رئيس أمريكى يجىء إلى مصر زائراً. إنها الزيارة التى عبأ أنور السادات لإنجاحها كل أجهزة الدولة المصرية، احتفالاً بالرئيس الأمريكى الذى بشر بعهد جديد مع مصر عنوانه الإستثمارات الفورية والإلتزام بمساعدة مصر فى بناء مفاعلات نووية ضخمة لتوفير الطاقة الكهربائية استعدادا لقفزة اقتصادية كبرى تلوح فى الأفق.

رابعاً: استعادة مصر علاقاتها الحميمة مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وهى العلاقة التى أصبحت سلبية تماماً منذ سحب البنك الدولى عرضه فى سنة ١٩٥٦ بالمشاركة فى تمويل مشروع بناء السد العالى فى مصر، وهو المشروع الذى كان بالغ الحيوية للإقتصاد المصرى تالياً. الآن أصبح روبرت ماكنمارا رئيس البنك الدولى متكرر الزيارة لمصر، ولأنور السادات تحديداً، مبشراً بأن البنك اتعظ من خطايا الماضى ويسعى لفتح صفحة جديدة من التعاون مع مصر تؤدى بدورها إلى تشجيع قدوم الإستثمارات الأجنبية إلى مصر بمليارات الدولارات.

خامساً: إن اتفاقيتى فض الإشتباك اللتين أبرمهما أنور السادات مع إسرائيل بمشاركة أمريكية سمحتا لمصر بإعادة فتح وتشغيل قناة السويس وباسترداد بترولها المنهوب فى سيناء، وهما موردان حيويان تماماً كان الإحتلال الإسرائيلى قد حرم مصر منهما منذ نكسة يونيو ١٩٦٧. فوق هذا وذاك كانت قد استجدت منذ ١٩٧٤ تحويلات مالية متزايدة من مئات الآلاف المصريين العاملين فى دول البترول العربى للحاجة إليهم وغيرهم فى المشروعات الضخمة الجارية نتيجة للطفرات فى الموارد بعد ارتفاعات متوالية فى أسعار البترول. ارتفاعات زادت من إيرادات تلك الدول بنسبة أربعمائة بالمائة فى سنة واحدة، بما جعل العالم يتحدث عن بزوغ العرب كقوة اقتصادية عالمية سادسة لأول مرة.

فى مثل هذا المناخ المبشر المتفائل داخل مصر وخارجها، وإضافة موارد جديدة إلى الاقتصاد المصرى مع موارد قديمة، ثم موارد طارئة من المعونات العربية.. أصبح من الطبيعى أن يتوقع المواطن المصرى العادى تحسناً ملموساً فى مستوى معيشته، وفرص عمل أوسع أمام شبابه، خصوصاً بعد أن قضى مليون شاب مصرى معظمهم متعلمون سبع سنوات مجندين للمجهود الحربى.. والآن يبشرهم أنور السادات بالسلام والانفتاح والرخاء فى لحظة تجلى تودع نهائياً سنوات التقشف وربط الأحزمة.

والآن بإعادة فحص تلك الحقائق فى ٢٠٠٧ وبأثر رجعى فإن كل هذا كان ممكنا فعلاً.. فقط لو جرى التخطيط للتنمية الاقتصادية المستجدة والملحة بنفس الهمة والمعرفة والإصرار الذى اتسم به التخطيط لإعادة بناء القوات المسلحة المصرية بالكامل عقب نكسة يونيو ١٩٦٧ وصولاً إلى حرب أكتوبر. فبحسن التخطيط والتنظيم وتعبئة الموارد المتاحة كان الإقتصاد المصرى قد نجح فى تحمل أعباء الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ثم إعادة بناء القوات المسلحة بالكامل وخوض حرب الإستنزاف لثلاث سنوات ثم حرب أكتوبر.. بغير أن يعانى المواطن المصرى ليوم واحد من غلاء أو تضخم أو أزمة فى أى من السلع الأساسية. بالطبع لم تكن حياة المصريين فى تلك السنوات مرفهة. كان التقشف وربط الأحزمة هو السائد والحصص التموينية من السلع الأساسية مقررة سلفاً ببطاقات تموينية تساوى فى الأعباء بين الجميع. لكن فى نفس الوقت لم تكن هناك بطالة ولا أزمات غذائية ولا سوق سوداء ولا مظاهر استفزازية للمواطن الصابر المتحمل المضحى عن قناعة بالأولويات محل الإجماع الشعبى. كانت هناك مصانع تتسع وإنتاج منتظم وسد

عال جنوب أسوان يتم استكماله لضبط مياه النيل وتوفير طاقة كهربائية إضافية لازمة لصناعات عديدة مستجدة.. من مصانع الأسمدة فى أسوان إلى مجمع الألومنيوم فى نجع حمادى و.. و..

ثم نقفز إلى الإرهاصات التى سبقت مباشرة أحداث يناير ١٩٧٧ فى مصر. لقد بدأت تظهر لأول مرة شريحة مستجدة من السماسرة العشوائيين. سماسرة الإستيراد الترفى والإنفتاح سداح مداح والإستهلاك غير المنضبط والأولويات المقلوبة رأساً على عقب. فى البداية كان هذا يجرى على استحياء وبعيداً عن الصفحات الأولى. لكن بالتدريج تحول الإستحياء إلى تبجح وتوحش يعتمد بالدرجة الأولى على الفهلوة من جانب والعلاقات المستجدة بين المال والسلطة من جانب آخر.. بما جعل المصريين يتحدثون علناً عن القطط السمان عنواناً لمن هم غير المعروف بدقة مصدر ثرواتهم المستجدة ولا السر فى توجههم بالكامل إلى الاستيراد بدل الإنتاج.

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٦ وجه ممثل صندوق النقد الدولى (الذى أصبح مقيماً فى القاهرة) مذكرة سرية إلى وزير الاقتصاد المصرى يصارحه فيها بأفكار لازمة لإصلاح مسار الاقتصاد المصرى.وخلال أسابيع قليلة تحولت الأفكار إلى طلبات والطلبات إلى شروط وأول الشروط كان رفع الدعم الحكومى عن السلع الأساسية مقابل توفير قروض ميسرة لمصر فى مقدمتها مائتى مليون دولار من البنك الدولى.

الطلبات أثارت الفزع، بل الرفض، داخل الحكومة.. فى البداية. لكن الرد كان هو أن علاقة طيبة لمصر مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ستكون إشارة خضراء لقدوم الاستثمارات الأجنبية إلى مصر بما يحول العجز إلى فائض والبطء فى التنمية إلى قفزات متتالية والتقشف إلى رخاء.

وأصبحت تلك الكلمات هى المسيطرة على أنور السادات حتى فى أحاديثه الخاصة، بما جعله يفوض المجموعة الاقتصادية فى الحكومة، وهى تسمية مستجدة لوزراء المال والاقتصاد برئاسة عبدالمنعم القيسونى، بسلطة التفاوض والتصرف والتعاون الوثيق مع صندوق النقد والبنك الدولى. وتلقت مصر إخطاراً من صندوق النقد الدولى بأن مديره التنفيذى سيصل إلى القاهرة فى ١٩٧٧/١/١٧ مع خمسة من كبار معاونيه لتدشين المباحثات الهادفة إلى عقد اتفاق طويل الأجل مع مصر.

واستعداداً لتلك الزيارة أعدت المجموعة الإقتصادية حزمتها من القرارات فتحمس لها أنور السادات فورا وكلف الحكومة وقتها برئاسة ممدوح سالم بالشروع فى التنفيذ بينما سافر هو إلى أسوان فى جنوب مصر مستمتعاً بشمسها فى ذلك الوقت من الشتاء.

كان ممدوح سالم أصلاً ضابط شرطة وأمن. وحينما استشار وزير داخليته وأجهزة أمنه حذره الجميع من رد الفعل الشعبى المتوقع حتماً. لكن الأوامر أوامر. وصحا الشعب المصرى ذات صباح ليفاجأ بأنه باسم الانفتاح الاقتصادى والحصول على شهادات من صندوق النقد والبنك الدولى بحسن السير والسلوك تقرر رفع أسعار ٢٥ سلعة أساسية فى التو واللحظة.. تبدأ بالخبز والأرز والسكر وتنتهى باسطوانات البوتاجاز وبنزين السيارات.

ومن الصباح الباكر يوم ١٩٧٧/١/١٨ اشتعلت المظاهرات الشعبية الغاضبة فى الإسكندرية، وبسرعة البرق امتدت إلى جميع مدن مصر حتى أسوان جنوباً حيث يستريح السادات فى مشتاه المفضل. وفى الرابعة عصراً كان السادات جالساً فى شرفة الإستراحة مسترخياً وهو يدلى بحديث إلى صحفية لبنانية. ووسط اندماجه فى الحديث عن الإنفتاح والسلام والرخاء القادم على الأبواب لاحظ عمود دخان متصاعداً من بعيد فى قلب مدينة أسوان، فتساءل مستغرباً: ما هذا؟.ردت عليه الصحفية القادمة لتوها بالطائرة من القاهرة: ربما امتدت المظاهرات إلى هنا. سألها السادات باستغراب: مظاهرات؟ أى مظاهرات؟

خلال دقائق وصل محافظ أسوان فجأة إلى الإستراحة طالبا مقابلة رئيس الجمهورية فوراً. وفى المقابلة ألح المحافظ على الرئيس بما جاء لأجله: عليك بمغادرة أسوان فى التو واللحظة.. لأن المظاهرات قادمة إلى هنا تحديداً يا سيادة الرئيس بعد أن اكتسح غضبها كل قوات الأمن.

لم يكن هناك وقت حتى ليبدل الرئيس ملابسه، فاستقل طائرة الهليكوبتر القريبة فورا متجها إلى القاهرة ومن هناك أمر بإعلان الأحكام العرفية ونزول قوات الجيش إلى الشوارع بعد فشل الشرطة فى وقف المظاهرات. لكن قبل هذا وذاك تقرر الإعلان فوراً عن إلغاء الزيادات فى الأسعار. وبعدها بأيام بدأ السادات هجومه المضاد. غير صحيح أنها انتفاضة شعبية وإنما هى انتفاضة حرامية . غير صحيح أن الشعب ينقلب

على النظام وإنما هم حفنة من الشيوعيين الذين تحركهم موسكو. غير صحيح أن الرخاء بعيد وإنما الرخاء قادم تحديداً فى سنة ١٩٨٠. غير صحيح أن الوضع الاقتصادى يحتاج إلى تنمية جادة وإنما فقط إلى المزيد والمزيد من شهادات حسن السير والسلوك من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. غير صحيح أن علاقات السادات العربية محتاجة إلى مراجعة وإنما الصحيح أن كلمة أمريكا هى الطريق إلى الأموال العربية. وأخيراً، غير صحيح أن السادات قد انفصل عن الواقع.. والدليل أنه سيفاجىء الجميع بمبادرة الصلح المنفرد مع اسرائيل.

التاريخ موجود حيث هو. لكن ما يبقى هنا ثلاثة أمور. أولاً:إن السادات تسلم السلطة وديون مصر تحت السيطرة، بل حتى حرب أكتوبر وإلى نهاية سنة ١٩٧٤ كانت كل ديون مصر الخارجية هى ٤ر٢ مليار دولار. وتسلمها ونسبة البطالة فى مصر صفر بالمائة. الآن فى ٢٠٠٧ نسبة البطالة عشرين بالمائة والديون الخارجية ثلاثين مليار دولار. ثانياً: إن الرخاء الذى وعد السادات بقدومه إلى مصر تأكيداً لم يتحقق فى ١٩٨٠ ولا بعدها، لسبب بسيط هو أن التنمية الاقتصادية الجادة، المعتمدة على الذات أساساً، هى وحدها الطريق إلى الرخاء الحقيقى وليس المفتعل أو الوهمى.ثالثاً: إن الانفصال عن الواقع هو أسوأ نذير للسياسة. وعكسه هو فقط المقدمة لفهم هذا الواقع.. ثم العمل على تغييره.

أما الباقى.. فهو تفاصيل.

التاريـخ البديـل

بين وقت وآخر يجىء خبر صغير فى صفحة داخلية، وبعيداً عن مقدمات نشرات الأخبار، ليجعلنا أكثر قدرة على فهم عالمنا المعاصر بغير أخبار أخرى ساخنة وزاعقة. شىء من هذا جرى فى ٢٠٠٥/٣/١٧ حينما توفى جورج كينان الدبلوماسى الأمريكى السابق عن عمر يناهز ١٠١ سنة. الرجل لم يحتل منصباً رسمياً طوال النصف قرن الأخير من حياته مكتفياً بإلقاء المحاضرات وإصدار الكتب التى تهتم بها دائرة ضيقة من المحللين والمتخصصين. مع ذلك ففى لحظة محددة من حياته أصبحت أفكاره عنواناً عريضاً لتحول جذرى فى الساحة الدولية قادت خلاله الولايات المتحدة الغرب كله فيما هو

أقرب إلى حرب عالمية ثالثة ضد قوة جديدة منافسة هى الاتحاد السوفيتى.

تلك اللحظة فى حياة جورج كينان كانت بامتداد سنتى ١٩٤٦/١٩٤٧. فبحكم موقعه أولاً كقائم بأعمال السفارة الأمريكية فى موسكو ثم باعتباره مديراً لإدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية الأمريكية بلور مفهوم الاحتواء كسياسة أمريكية فى مواجهة الأتحاد السوفيتى. سياسة كانت لها توابع حتمية، كما فى أعقاب الزلازل الكبرى، غيرت مصائر دول وشعوب وقلبت استراتيجيات واستدعت ردود أفعال لاتقل ضخامة.

بخلاف التاريخ.. هناك أهمية إضافية معاصرة فى فهم ما يجرى. فكوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية مثلاً شرحت فى لقاءات وندوات محدودة أبان عملها مستشاراً للأمن القومى أن مسار التغيير الجذرى فى السياسة الأمريكية المعاصرة هو أقرب ما يمكن لما جرى للسياسة الأمريكية فيما بين سنتى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ من حيث انقلابيته وأفقه الزمنى الذى سيمتد إلى عشرات قادمة من السنين. جورج بوش أيضاً قال عدة مرات أن المؤرخين سيتفهمون مستقبلاً دوافعه فى غزو العراق.

فى ١٩٤٦ كانت الولايات المتحدة قد خرجت لتوها من حرب عالمية ثانية قادت فيها معسكر المنتصرين المشكل منها وبريطانيا والاتحاد السوفيتى ضد دول المحور المشكلة من ألمانيا وايطاليا واليابان. ومع أن أمريكا دخلت الحرب متأخرة بأكثر من سنتين إلا أنها خرجت منها وهى الأكبر فوزاً على كل المستويات ودائنة لكل حلفائها وتنتج بمفردها اثنان وخمسون بالمائة من كل ما ينتجه العالم من سلع وخدمات.

لكن فى مقابل ذلك لم يكن فوز معسكر الحلفاء هذا ممكناً بغير التكلفة البشرية الفادحة التى تحملها الاتحاد السوفيتى أكثر من عشرين مليون قتيل. وخلال سنوات الحرب تراجعت تماماً الخصومة الأيديولوجية السابقة بين الرأسمالية التى تمثلها بريطانيا وأمريكا والشيوعية التى يمثلها الاتحاد السوفيتى. فى حينها برر الزعيم البريطانى ونستون تشرشل هذا التحول الجذرى بأن بريطانيا تتحالف مع الشيطان إذا كان هذا فى مصلحتها. أما الإعلام الأمريكى المعبىء لشعبه لصالح الحرب فقد تحول عداؤه لكل ماهو سوفيتى إلى صداقة.. بما جعل بعض هذا الإعلام المملوك لرأسماليين يقدم الزعيم السوفيتى جوزيف ستالين باعتباره العم جو والشعب السوفيتى باعتباره بشر مثلنا و محبون لنا . مع اقتراب الحرب من نهايتها جرى تقسيم الغنائم بما عبر عنه

اتفاق يالتا الشهير: نصف أوربا الغربى لأمريكا وحلفائها.. ونصفها الشرقى للاتحاد السوفيتى.. وتأجيل كل شىء آخر لما بعد. لكن الأكثر أهمية هو أن نهاية الحرب العالمية الثانية مثلت نهاية لكابوس مروع عانت منه البشرية دماراً وخراباً وإبادة وأصبح من حق العالم أن يتنفس الصعداء ويتطلع إلى عصر جديد من السلام والتنمية وتحويل الموارد الضخمة التى عبئت للحرب إلى ما فيه تعويض للشعوب وتركيز على إعادة إعمار ما خربته الحرب فى أوربا واليابان وتخفيض لموازنات التسلح الضخمة التى تحملتها أمريكا.

إحدى المفاجآت هنا استغرب منها المجتمعون فى سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ لصياغة ميثاق الأمم المتحدة كمنظمة جديدة لحماية الأمن والسلم الدوليين. فمن بين خلفيات أخرى صرح السفير الأمريكى فى موسكو الموجود فى سان فرانسيسكو عضواً بالوفد الأمريكى بأن الإنفاق العسكرى الأمريكى يجب أن يستمر بلا تخفيض لتطوير أسلحة جديدة.. حتى فى سنوات السلام. كان وجه الاستغراب هو: أين هو العدو الجديد الذى يبرر ذلك؟

لكن بعيداً عن هذا المستوى من العلانية كانت المؤسسة الأمريكية الحاكمة تعتصر عقولها المفكرة لصياغة إستراتيجية جديدة لسنوات ما بعد الحرب. هذا يعيدنا إلى جورج كينان وهو فى تلك اللحظة قائم بالأعمال فى السفارة الأمريكية فى موسكو، وتلقى من البيت الأبيض ووزارة الدفاع الأمريكية برقية سرية عبر وزارة الخارجية تسأله المشورة كمتخصص فى الشئون السوفيتية. وفى ٢٢ فبراير ١٩٤٦ رد كينان ببرقية من ثمانية آلاف كلمة استمرت سرية لسنوات طويلة بعدها لكنها عرفت باسم البرقية المطولة يقدم فيها كينان إجاباته التفصيلية على ما تلقاه من أسئلة. وسببه فى التطويل هو شعوره بخطورة الانزلاق إلى إجابات تبالغ فى تبسيط نتائج بزوغ الاتحاد السوفيتى على المسرح الدولى نتيجة لمساهمته فى الحرب ضد الفاشية والنازية.

البرقية السرية سرعان ما جذبت اهتمام المؤسسة الحاكمة الأمريكية بما شجع جورج كينان على كتابة صياغة لها قابلة للنشر، سرعان ما وجدت طريقها إلى عدد يوليو ١٩٤٧ من مجلة الشئون الخارجية بعنوان مصادر السلوك السوفيتى للكاتب اكس . السبب فى تخفى الكاتب هنا هو أنه أصبح مديراً لإدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية فى واشنطون ولا ترغب الحكومة أن تتحمل علناً مسئولية هذا النقاش العلنى الضيق.

خلاصة ما دعا إليه جورج كينان هو ما عرف وقتها ولأربعين سنة بعدها باسم سياسة الاحتواء فى مواجهة الاتحاد السوفيتى حيث: الضغط السوفيتى ضد المؤسسات الحرة فى العالم الغربى يمكن احتواؤه بسياسة مضادة تعتمد على الدبلوماسية والعمل السرى، ولكن ليس بالحرب أو الوسائل العسكرية.

فى هذا السطر الأخير يتلخص ارتفاع حظ جورج كينان داخل المؤسسة الحاكمة الأمريكية.. وسقوطه. فاستمرار موازنات التسلح الاستثنائية بعد سقوط العدو يتطلب الترويج لفكرة ظهور عدو جديد وباتساع العالم ويمثل خطراً بنفس الحجم والخطورة على الشعب الأمريكى. وتحويل الأتحاد السوفيتى فى لحظة من حليف الأمس إلى عدو اليوم والغد يتطلب تعبئة سريعة فى الاتجاه المضاد لما ظل سائداً لسنوات. هكذا تحركت أمريكا بسرعة لإعادة النظر فى اتفاق يالتا فيتم مضاعفة شعور موسكو بالتهديد والخطر، وهذا بدوره يبدأ سلسلة من الفعل ورد الفعل تكون بحد ذاتها مبرراً إضافياً للمزيد من التعبئة وإعادة حشد الصفوف.

هكذا أقامت أمريكا منظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) بقيادتها لاحتواء ومحاصرة الأتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية.. فرد الاتحاد السوفيتى بإقامة حلف (وارسو) من أوربا الشرقية تحت قيادته. بعدها اتسعت الحلقة فأقامت أمريكا سلسلة من الأحلاف التابعة المساعدة استكمالاً للحصار و الاحتواء واستنفاراً للخصومة الأيديولوجية السابقة على الحرب العالمية الثانية.. وكأن التحالف الذى عبرت عنه تلك الحرب ضد عدو مشترك كان مجرد جملة اعتراضية يعود بعدها السياق إلى ما كان عليه. أيضاً.. ولدت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لتقود الجزء السرى من المواجهة، وهى جزئية فهمها جورج كينان لأنها كانت من توصياته. لكن الذى لم يفهمه مطلقا هو زيادة الإنفاق العسكرى الأمريكى كما لو أن المواجهة العسكرية ضد الاتحاد السوفيتى حتمية رغم أنه أصبح أيضاً قوة نووية وستحدث غداً.

مع وصول دوايت إيزنهاور وإدارتـه الجمهورية إلى السلطة فى سنة ١٩٥٢ كانت عملية التعبئة لصالح الحرب الباردة الجديدة قد أصبحت فى ذروتها وموجة المكارثية فى عنفوانها لإعادة فرز الصفوف.. رافعة شعار تطهير مؤسسات الدولة من الرافضين للتحول الجديد داخل أمريكا. عشرات الآلاف جرى فصلهم من وظائفهم داخل أمريكا

أو تدمير سمعتهم أو دفعهم لمغادرة أمريكا (كالممثل المشهور شارلى شابلن) بحجة ملفقة هى التعاطف مع الشيوعية. معظمهم تبين تالياً براءتهم الكاملة ومن بينهم أصدقاء شخصيين لجورج كينان فى مقدمتهم العالم الذى أشرف على صناعة القنبلة النووية الأمريكية الأولى. هكذا ودع كينان المناصب الرسمية ليعيش عقوداً طويلة بعدها وهو غير متأكد بالضبط: هل كان الخطأ فى سياسة الاحتواء التى دعا هو إليها.. أو الخطأ فيمن اختطفوها لخدمة مصالح شركات السلاح؟

لم يكن الذى حسم هذا الجدل سوى دوايت ايزنهاور وهو نفسه الجنرال السابق الذى قاد معسكر الحلفاء عسكريا فى المسرح الأوربى خلال الحرب العالمية الثانية. ففى خطابه الوداعى كرئيس للولايات المتحدة حذر الأمريكيين علناً من سطوة المجمع العسكرى الصناعى قاصداً تحالف المصالح بين وزارة الدفاع وشركات السلاح الأمريكية. بالطبع ذهبت نصيحة ايزنهاور سدى وفرض الصقور الجدد على أمريكا والعالم تصعيداً خطيراً فى مستويات التسلح لم تعرفها البشرية سابقاً.

صقور المؤسسة الأمريكية يردون على ذلك بحجج عديدة. أولها أن صناعات السلاح هى المنشط الأقوى والأسرع للاقتصاد. آخرها أن التصعيد فى سباق التسلح هو الذى أدى فى نهاية المطاف إلى تكسيح الاتحاد السوفيتى وانسحابه من أوربا الشرقية ثم تفككه هو ذاته إلى شظايا لأنه لم يستطع الجمع بين التنمية الاقتصادية وسباق التسلح. يقولون أيضاً أن تفرد أمريكا بموقع القوة العظمى الوحيدة هو بالطبيعة وضع مؤقت لابد من اعتصاره بأكبر فوائد ممكنة وسريعة. فإذا كانت أمريكا قد بدأت الحرب الباردة وهى أكبر دولة دائنة للآخرين ثم خرجت منها منتصرة لكن أكبر دولة مدينة فى التاريخ.. فلا بأس. تستطيع أمريكا تعويض العجز باستثمار هيمنتها المؤقتة عالمياً، وبسرعة، عبر تحالف مستمر بين المؤسسة العسكرية وشركات السلاح.. زائد شركات البترول.. تحت عنوان عريض جديد هو الحرب ضد الإرهاب أو الحرب لنشر الحرية باتساع العالم. تماماً كما ارتفع خلال الحرب الباردة شعار المواجهة بين العالم الحر ودول ماوراء الستار الحديدى .

هذا يعيدنا مرة أخرى إلى جورج كينان. فمع رحيله مؤخراً تجدد الجدل بشأن مأساته الدرامية حينما اختطفت المؤسسة الحاكمة شعاره عن الاحتواء لتعطيه مضموناً عسكرياً

كان هو يحذر منه ويرفضه. وفى دراسة مركزة لخص محلل أمريكى رؤيته فيما لو لم تجرى عسكرة شعار الاحتواء قائلاً: لم تكن حرب كوريا ستحدث على نحو ما جرى. كانت واشنطون ستنتهز فرصة وفاة ستالين لتشجع ظهور الإصلاحيين فى موسكو. لم تكن أمريكا ستصنع القنبلة الهيدروجينية التى أكدت لموسكو أن السباق أصبح يتعلق بأسلحة إبادة شاملة. حركات التحرير فى العالم الثالث كانت أمريكا ستعاملها باعتبارها حركات شعوب تتطلع إلى التحرر من الاستعمار، بدل رؤيتها كمؤامرة عالمية تدار من موسكو. لم تكن أمريكا لتتورط فى حرب فيتنام. كانت أمريكا ستصبح أكثر تواضعاً فى رؤيتها لمهمتها العالمية لفرض قيمها على الآخرين. كانت ستستمر فى تعظيم التعاون الدولى من خلال الأمم المتحدة التى هى بذاتها كانت فكرة أمريكية لوح بها الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت وهو يعبىء العالم لصالح معسكر الحلفاء ضد النازية والفاشية. وفى كتب أمريكية صدرت مؤخراً تبين أن روزفلت نفسه كان يتطلع إلى أن يصبح هو شخصياً أول أمين عام لمنظمة الأمم المتحدة.

رحل روزفلت. رحل جورج كينان. وفيما بينهما عادت الرأسمالية المتوحشة التى ألزمها غصباً عنها بمسئوليات اجتماعية ليحميها من نفسها. وتنمرت شركات السلاح التى اختطفت أفكار كينان. وبقى علينا أن نتابع الصقور الجدد أو المحافظون الجدد فى واشنطون وهم يرشحون لرئاسة البنك الدولى بول وولفويتز. نفس المروج الأول لغزو العراق. ويضعون فى الأمم المتحدة جون بولتون سفيرًا لأمريكا، وهو الرجل الذى أشار من قبل إلى أن مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك لو فنى عشر طوابق من طوابقه الثمانية والثلاثين فلن يلاحظ أى أحد هذا الأمر.

■■ فى الوجه السفلى للعلاقات الدولية

هو خبر لم ولن تتجاوزه الأحداث لأن مغزاه يظل ماثلاً أمامنا أمس واليوم وغداً إذا كنا نريد حقا فهم أبعاد الجانب السفلى فى االعلاقات الدولية. جانب لن تكشف عنه مطلقاً البيانات الدولية المنمقة عن الحرية والعدالة والتنمية وحقوق الإنسان وما شابه. كذلك لن تفصح عنه جلسات التشاور فى قاعات الأمم المتحدة بمبناها الشهير فى نيويورك ولا حتى قاعة مجلس الأمن، لأن القوى الفاعلة على الأرض لها برامجها وخططها وأساليبها وأدواتها السفلية التى تتمشى بالكامل مع طبيعة الصراع الحقيقى على الموارد والثروة والطاقة وأسباب القوة. صراع مستمر معنا قبل عصر الإيديولوجيا وخلاله وما بعده. وبين وقت وآخر يستمد أساليبه من عصابات المافيا وأجهزة المخابرات والمخابرات المضادة، وهى بطبيعتها تكره الأضواء وتعيش فى الظلام وتعشق الصمت.

أما الخبر فهو وفاة الجنرال سوهارتو فى ٢٠٠٨/١/٢٧ وهو الذى حكم أندونيسيا بقبضة حديدية طوال ٣٢ سنة، مع أن الذى أزاحه من السلطة فى النهاية كان صندوق النقد الدولى. سوهارتو كان قد خرج لتوه فائزاً من انتخابات يفترض من نتيجتها أن برلمان أندونيسيا قد اختاره لولاية رئاسية سابعة. مع ذلك رفع مسئولو صندوق النقد الدولى صوتهم معترضين على استمرار سوهارتو فى السلطة.

ومع أن سوهارتو فهم فى حينها مغزى الإعتراض إلا أنه قام بمقامرته الأخيرة فوافق لصندوق النقد الدولى على كل طلباته. وفى صورة شهيرة سجلتها له الكاميرات فى سنة ١٩٩٨ وأبرزتها صحف دولية كبرى بعرض ستة أعمدة فى صفحاتها الأولى.. وجدنا سوهارتو رئيس أندونيسيا جالساً إلى مائدة مستطيلة يوقع أوراقاً وإلى جواره يقف مدير صندوق النقد الدولى مبتسماً ابتسامة الفوز والنشوة. وكانت تلك من المرات النادرة التى يكشف فيها صندوق النقد الدولى عن دوره الفاعل إلى هذا المدى فى مصير دولة بكاملها، حيث يحرص الصندوق دائماً (ومعه البنك الدولى) على الابتعاد عن الأضواء كلما أمكن، بل ويشترط على الحكومات التى يتعامل معها على أن تتبنى هى طلبات الصندوق (والبنك) وتقدمها لمواطنيها على أنها سياسات وبرامج من بنات أفكارها هى. فإذا ثار الشعب معترضاً على تلك السياسات التى تؤدى إلى إفقاره لحساب أطراف لا يعرفها،

تكون النصيحة التالية من صندوق النقد الدولى (والبنك الدولى) هى أن على الحكومة المعنية استخدام ما تراه لازماً وكافياً من القمع، بما فى ذلك المزيد من السجون.

لم يكن الجنرال سوهارتو فى اندونيسيا استثناء على القاعدة. فى الواقع إن نموذجه متكرر فى الحياة الدولية وبامتداد قارات العالم طالما تمت جرجرته إلى نفس الفخاخ التى سيكون بلده ذاته ضحيتها. فلنبدأ مثلاً بنموذج من تشيلى وهى تلك الدولة الصغيرة فى أمريكا اللاتينية. ففى الرابع من سبتمبر ١٩٧٠ انتخب الشعب التشيلى سلفادور الليندى رئيساً له بطريقة ديموقراطية شهد بها الجميع فى حينها ولم تستطع الولايات المتحدة إنكارها رغم تأففها من توجهات الليندى اليسارية حسب منظورها. وعلاجاً للفقر المدقع المنتشر فى بلاده وسعياً إلى تنمية جادة تعبىء موارد البلاد بدل استيلاء الأجانب عليها.. انطلق الليندى فى برنامج متتابع لتأميم مناجم النحاس والحديد والملاحات والبنوك الأجنبية التى كانت فى جوهرها احتكارات أمريكية، ولم يكن الليندى غافلاً عن المعارضة الأمريكية لسياساته، لكنه تحصن بشعبيته لينطلق فى سياساته الإقتصادية. وذات يوم خرج هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى وأيضا مستشار الرئيس للأمن القومى ليقول أمام الكاميرات: لا أستطيع أن أفهم.. لماذا علينا أن نقف جانباً ونراقب بلداً مثل تشيلى يتحول إلى الشيوعية بسبب لامسئولية شعبه نفسه. الأمور على درجة من الأهمية للناخبين التشيليين أكبر من أن يجرى تركهم ليقرروا شأنها بأنفسهم .

الإشارة كانت واضحة والمغزى أوضح. فللشركات الأمريكية الكبرى مصالح عاتية فى كل دول أمريكا اللاتينية. وإذا سمحت أمريكا لذلك النموذج الجديد فى تشيلى بالنجاح فسوف تنتقل العدوى حتماً إلى باقى دول المنطقة، بينما هى لديها ما يكفيها من المشاكل بسبب النموذج المعاكس الذى يطرحه فيديل كاسترو ونظامه فى كوبا.

والنتيجة: انقلاب دموى كاسح قام به الجنرال أوجستو بينوشيه بدعم حاسم من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تكشفت حقائقه فيما بعد. ونظراً للدعم الشعبى الكاسح للرئيس الشرعى الليندى فقد استخدم بينوشيه الدبابات والطائرات لقصف كل مؤيدى النظام، بما فى ذلك هدم قصر الرئاسة ذاته فوق رأس الرئيس بداخله.

أصبح بينوشيه إذن هو الرئيس الجديد وبتأييد أمريكى صريح ومعلن، وبقمع غير مسبوق وعمليات اغتيال وإعدام جماعية بحجة أن الديموقراطية لابد من حمايتها من

المخربين. ولم يجد بينوشيه غضاضة بالمرة من أن يقول ذات يوم: فى هذا البلد تشيلى لا تتحرك ورقة شجرة إذا لم أحركها بنفسى. فليكن هذا واضحاً . وعاد نهب ثروات تشيلى المحدودة إلى سابق عهده والشركات الأمريكية تمارس النهب المنظم فى حماية المستبد بينوشيه ومباركة صندوق النقد الدولى (والبنك الدولى) لما اعتبره سياسات رشيدة.

لكن المظاهرات الشعبية الغاضبة تجددت مرة بعد مرة مطالبة بعودة الديموقراطية ووقف النهب الأجنبى لموارد تشيلى، وفى مواجهتها يتكرر القمع ويتصاعد.. إلى أن اضطر بينوشيه أولاً إلى التخلى عن الرئاسة فى ١٩٩٤ مكتفياً بقيادة الجيش، لكنه اضطر ثانياً فى مارس ١٩٩٨ للتنحى عن قيادة الجيش ليصبح سيناتوراً مدى الحياة. وفى سبتمبر ١٩٩٨ توجه إلى لندن للعلاج ليفاجأ بطلب إسبانى من الحكومة البريطانية بتسليم بينوشيه إليها للمثول أمام القضاء فى محاكمة له عن جرائم قتل واغتيال كان قد ارتكبها ضد مواطنين يحملون الجنسية الإسبانية. يومها لم يكن مفاجئاً أكثر من خروج مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة تحث الحكومة البريطانية على رفض الطلب الإسبانى بحجة أن بينوشيه يتمتع بحصانة كرئيس سابق تمنع تسليمه أو محاكمته.

فى الخلاصة، وبعد احتجازه فى لندن ٥٠٣ أيام سمح له بالعودة الآمنة إلى تشيلى بحجة الأسباب الإنسانية. لكن هناك أيضاً كان فى انتظاره أهالى الضحايا فى انتظار ملاحقته قضائياً. وزاد على ذلك الكشف عن أدلة مفحمة عن قيامه بتهريب أموال طائلة ليحتفظ بها فى حسابات سرية فى بنوك أجنبية عديدة طوال سنوات حكمه. باقى القصة معروف، بما فى ذلك وفاة بينوشيه فى ٢٠٠٦. لكن ما بقى معلقاً قبل وبعد وفاته هو: كيف تستعيد تشيلى تلك الأموال الطائلة التى هربها بينوشيه إلى الخارج وما هى الأطراف الدولية التى كانت تحميه فى اختلاسه للأموال العامة مقابل حمايته هو لها فى نهبها لموارد شعب تشيلى؟

نفس الموال نجده فى حالة أخرى لدولة إفريقية فى هذه المرة هى الكونغو. تلك دولة اضطرت بلجيكا إلى الخروج منها وإعلان استقلالها فى ١٩٦٠/٦/٣٠ تحت ضغط المقاومة فى الداخل وحركة التحرر الوطنى الدولية السائدة فى الخارج. لكن لأن الكونغو تبلغ فى مساحتها مرتين ونصف مساحة دولة بحجم مصر مثلاً، ولأن تلك المساحة تختزن فى أرضها أكبر مخزون فى العالم من النحاس والماس فضلاً عن كونها المنتج الأول فى

العالم لمادة الكوبالت زائد الزنك والفضة والقصدير والمنجنيز وبعض تلك المواد هام للغاية للصناعات العسكرية، فلم يكن لوحوش الغابة الدولية أن يمرروا استقلال الكونغو فى سلام أو يسمحوا عن طيب خاطر بأن تعود تلك الثروات المنهوبة إلى أصحابها.

لقد جرى خطف واغتيال رئيس وزرائها بياتريس لومومبا ثم جرى اغتيال داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة نفسه بإسقاط طائرته وهو فى الطريق إلى الكونغو. وبمزيج من المصالح الدولية المستفيدة وتجنيد مرتزقة دوليين وتوجيه واشتراك أجهزة مخابرات أمريكية وأوربية وكل هذا جرى الكشف عن وثائقه فيما بعد وحمامات دم تابعها العالم فى حينها أصبح للشركات الأجنبية المعنية رجلها الحاكم الجديد فى الكونغو وهو موبوتو سيسى سيكو.

لم يضع الرجل الجديد وقتاً فأعاد الاحتكارات الأجنبية إلى سطوتها لتعود نفس المعادلة المتكررة هنا مرة أخرى: اللصوص الكبار ينهبون ثروات الكونغو، واللص الصغير الحاكم يواجه كل تمرد داخلى بالمزيد والمزيد من القمع. ولمساعدته فى القمع احتشدت نفس القوى السفلية فى الحياة الدولية كالعادة. وفى عام ١٩٧٧ مثلاً قامت طائرات فرنسية بنقل قوات مغربية إلى الكونغو لمواجهة انتفاضة جديدة مدعمين بخبراء أرسلهم أنور السادات من مصر. فى العام التالى أرسلت فرنسا وبلجيكا مباشرة قوات من عندهما لمواجهة انتفاضة جديدة. وفى العام التالى مظليين من بلجيكا لمساعدة موبوتو من جديد، وهكذا، حتى نجح لوران كابيلا فى إزاحته من السلطة نهائياً فى ١٩٩٧ فهرب إلى المغرب إلى أن توفى هناك. ومرة أخرى أصبح السؤال المتكرر هو: هل يستطيع الكونغو استعادة بلايين الدولارات التى هربها موبوتو إلى الخارج طوال سنوات حكمه؟ والسؤال الآخر: هل تفصح تلك البنوك الغربية التى احتفظ فيها موبوتو بحساباته وأرصدته السرية عن المبالغ الحقيقية لتلك البلايين المهربة؟

هذا يعيدنا إلى الجنرال سوهارتو وأندونيسيا. لقد وصل سوهارتو إلى السلطة على مرحلتين. فى المرحلة الأولى قام بإقناع الرئيس أحمد سوكارنو بطل استقلال أندونيسيا عن الاستعمار الهولندى بأنه لابد من حمايته من انقلاب ضده يخطط له الشيوعيون فى سنة ١٩٦٥. وتحت هذا العنوان قام بمجزرة بشرية كبرى تتفق التقديرات على أنه قتل خلالها مليون مواطن أندونيسى، فضلاً عن كشوف بأسماء محددة طلبت منه وكالة

المخابرات المركزية الأمريكية التخلص منها كما تبين لاحقاً. وفى المرحلة الثانية قام بإجبار سوكارنو نفسه، بلطف ولكن بحزم، على التنحى عن السلطة.

هكذا أصبح سوهارتو نفسه هو الرئيس الجديد لإندونيسيا فى ١٩٦٧. فى الظاهر كانت تلك هى الفترة التى تحركت فيها السياسة الأمريكية للتخلص مما اعتبرتها بؤراً للمقاومة والإستقلال فى الدول الفاعلة بالعالم الثالث. لكن بموازاة ذلك كان الصراع متصاعداً لنهب ثروات تلك الشعوب لحساب المصالح العاتية فى الغابة الدولية. وهكذا ففى حالة أندونيسيا، وبمجرد تولى سوهارتو الرئاسة فعلياً، جرى اجتماع فى جنيف بسويسرا لم تتكشف أسراره إلا لاحقاً. الإجتماع ضم طرفين: الطرف الأول هو ممثلو الشركات الأمريكية العملاقة فى قطاعات البترول والحديد والمحركات والصناعات الكيماوية، والطرف الثانى هم رجال مال واقتصاد أندونيسيون مدربون أمريكياً. والنتيجة: برنامج يتيح لتلك الشركات الكبرى السيطرة على ثروات أندونيسيا فى قطاع بعد قطاع. بموازاة ذلك قاد سوهارتو سياسة لبيع الاحتكارات الكبرى فى الاقتصاد الأندونيسى المملوكة للدولة إلى الأجانب، بحجة أن تلك الاحتكارات شاخت وتكلست، وأن بيعها هو أقصر الطرق لإغراء المستثمرين الأجانب بالقدوم إلى أندونيسيا. لم تكن كلمة الخصخصة بمعنى بيع المشروعات العامة للأجانب صراحة وبلا مواربة قد شاعت بعد. وحتى يقمع سوهارتو المعارضة الشعبية المتوقعة كان لابد من أجهزة جديدة متطورة للقمع، يقودها جهازان جديدان للمخابرات والأمن. بعدها جرى فرض الرقابة الصارمة على الصحف واعتبار إهانة الرئيس بالقول أو الفعل جريمة كبرى عقوبتها السجن لسنوات

وكلما كان سوهارتو يمضى فى برنامجه بشقيه الأجنبى والمحلى كان يجرى إمطاره بإعلانات التأييد والمباركة. مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا مثلاً قالت عنه إنه: واحد من أفضل أصدقائنا والأكثر قيمة . الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون قال إن اندونيسيا هى أغنى مصدر للثروات الطبيعية فى جنوب شرق أسيا بما يجعلها الجائزة الكبرى فى تلك المنطقة. هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى أعطى لسوهارتو فى سنة ١٩٧٥ الضوء الأخضر لغزو واحتلال تيمور الشرقية بعد انتهاء استعمار البرتغال لها بما أسفر عن إبادة ثلث سكانها على أيدى قوات سوهارتو بمدربين من استراليا وطائرات مقاتلة من بريطانيا ودعم لوجيستى من أمريكا.

فى الخلاصة أصبح النهب الأجنبى لثروات أندونيسيا فى ذروته، وبموازاته النهب المنظم الذى مارسه سوهارتو نفسه لحسابه هو وأسرته. لقد أعطى لزوجته مثلاً احتكاراً باسم الدولة لاستيراد القمح وطحنه. وأعطى لابنه احتكار تجارة الثوم. وأعطى لابنته السيطرة على إيرادات الرسوم المحصلة على الطرق السريعة. وأعطى لابن آخر ترخيص تليفونات المحمول. أيضاً حصل أبناؤه الستة وأخوه غير الشقيق وحتى أحفاده على هدايا إضافية تشمل تراخيص شتى ومجانية تمكنهم من نهب المزيد والمزيد. وفى إحدى النقاط أصبح سوهارتو سادس أغنى الأشخاص فى العالم. وقدرت منظمة الشفافية الدولية أن ثروته مع عائلته تتراوح مابين ١٥ و٣٥ بليون دولار. أما مجلة تايم الأمريكية فقررت أن ثروة سوهارتو بمفرده تبلغ ١٥ بليون دولار بينما ثروة أسرته بامتداد ٣٢ سنة من حكمه فقد بلغت ٧٣ بليون دولار.

وطوال سنوات الحرب الباردة كانت لأمريكا أسبابها الخاصة لإبهار المنطقة اصطناعياً بنجاح اقتصاد السوق. وتفسر كبرى المجلات الاقتصادية الدولية المسألة بقولها: إنه بناء على مشورة مجموعة من الاقتصاديين الأمريكيين يعرفون باسم مافيا بيركلى نشأ فى اندونيسيا ما يكفى للسماح لها بالازدهار . لكن مع نهاية الحرب الباردة تغيرت الدوافع وتبخرت الأوهام. وهكذا عصفت الأزمة المالية الكبرى فى سنتى ١٩٩٧/١٩٩٨ بأندونيسيا وكل تلك المنطقة من آسيا، فانهارت عملاتها الوطنية بلداً بعد الآخر بعد أن كان صندوق النقد الدولى قد استدرجها للأخذ بمشورته.

وهكذا بين ليلة وضحاها انهار اقتصاد اندونيسيا مع نصف دستة دول أخرى، وخرجت الملايين الغاضبة إلى الشوارع بعد أن جرى بيع ما تبقى من مشروعات وشركات بما فيها شركات قطاع خاص إلى الأجانب. لقد فرضت البطالة نفسها وأصبح التضخم كاسحاً والديون فلكية. وحاول سوهارتو استرضاء صندوق النقد الدولى من جديد بأن فرض المزيد والمزيد من إجراءات التقشف. لكن مسئولى صندوق النقد الدولى، وعلى غير عادتهم، خرجوا يصرحون علناً باستحالة استقرار الإقتصاد الأندونيسى مع وجود سوهارتو فى السلطة رغم أن مؤيدى سوهارتو فى البرلمان كانوا قد انتخبوه لتوهم لولاية رئاسية سابعة. فى هذه المرة يصر صندوق النقد الدولى على رحيل سوهارتو. وقبيل رحيله أصبح عليه هو نفسه أن يذعن للصفقة بالغة الإجحاف التى قررها الصندوق. من هنا

خرجت تلك الصورة الشهيرة لسوهارتو وهو يوقع على الإتفاق جالساً بينما مدير صندوق النقد الدولى واقفاً إلى جواره مزهواً ومنتشياً. بعدها اضطر سوهارتو فى ١٩٩٨/٥/٢١ للاستقالة فتولى نائبه حبيبى الرئاسة بعده لفترة مؤقتة حتى إجراء انتخابات.

آخر الكلام: بعد سقوط سوهارتو، وفى صيف ١٩٩٨، رصدت وزارة الخزانة الأمريكية بعض تحويلات مريبة لمبالغ ضخمة من الأموال تصل إلى تسعة بلايين دولار، مطلوب نقلها من بنوك أمريكية إلى بنك فى النمسا. كانت تلك أموال سوهارتو، أو بالدقة جزءاً صغيراً من البلايين التى نهبها واحتفظ بها فى بنوك أمريكية وأوربية. بالطبع أوقفت الحكومة الأمريكية التحويلات ليصبح مصيرها كمصير الأموال التى نهبها بينوشيه فى تشيلى وموبوتو فى الكونغو وأيضاً شاه إيران خلال سنوات حكمه لتصادرها أمريكا منذ سقوطه.. وحتى الآن.

هم يرحلون. لكن الشعوب تبقى وتدفع الثمن.

مصر والصين .. سلامات

جاء رئيس وزراء الصين الى مصر زائراً رسمياً على رأس وفد كبير بمناسبة مرور خمسين سنة على تبادل العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وبكين. خمسون سنة تغير فيها العالم كثيراً، ومن ضمنه مصر والصين. العالم تغير.لكن المصالح تستمر. وحينما بادرت مصر إلى الاعتراف بالصين رسمياً فى يونيو ١٩٥٦ بدا القرار فى حينها سباحة عنيفة ضد التيار العاصف. فالولايات المتحدة بعد استيلاء الشيوعيين على السلطة فى الصين سنة ١٩٤٩ رفضت الاعتراف بالصين الجديدة مقررة أن الصين بالنسبة لها هى فورموزا (تايوان فيما بعد) وأن تلك الجزيرة الصغيرة هى التى تمثل كل شعب الصين بل وتحتل مقعد الصين الدائم فى مجلس الأمن الدولى كواحدة من الدول الخمس الكبار دائمة العضوية.

بالطبع كان المشهد عبثياً إلى أقصى حد.لكن من الذى قال إن السياسة الأمريكية لاتتسم بين وقت وآخر بأقصى درجات العبث؟ فى القاموس الأمريكى وتلك كانت سنوات الحرب الباردة لاوجود للصين بالمرة إلا باسم فورموزا، وعلى أصدقاء وحلفاء أمريكا

الالتزام بهذا التصنيف لأن أى اعتراف بالصين الجديدة الصين الحقيقية هو عمل عدائى ضد المصالح الأمريكية.

هكذا بدا اعتراف مصر بالصين الحقيقية فى سنة ١٩٥٦ تجاوزاً للخطوط الأمريكية الحمراء. تجاوزاً فى الصميم. لكن وكما ثبت فيما بعد فإن الأعتراف المصرى بالصين وسط حالة الحصار والعزلة الدولية المفروضة على الصين أمريكياً لم يكن له دوافع ايديولوجية بالمرة. كان الدافع هو المصلحة الوطنية. كان قرار تأميم شركة قناة السويس يختمر سراً فى العقل السياسى المصرى ومن بين حساباته التداعيات المتوقعة للقرار دولياً، وفى مقدمتها احتمال لجوء فرنسا وبريطانيا وحلفائهما إلى فرض حصار اقتصادى ضد مصر سيكون من أول أسلحته الأمتناع عن شراء محصول القطن الذى كان فى حينها المصدر الرئيسى للحصول على العملات الصعبة.

بالتالى كان الاستعداد بالبدائل تفكيراً حصيفاً من السياسة المصرية لأن انتزاع حق مصر فى ملكية قناة السويس لن يكون بالمرة على هوى أسماك القرش فى البحار الدولية.. خصوصاً وتجربة إيران فى تأميم بترولها قبل سنوات قليلة كانت عبرة لمن يعتبر. إيران قامت بتأميم شركة بترولها البريطانية فانفتحت عليها أبواب الجحيم. وبرغم أن القرار الإيرانى كان من حكومة شرعية وبرلمان منتخب ديموقراطيا، بل وأيضاً بإقرار من محكمة العدل الدولية بأن الخطوة قانونية تماماً.. إلا أن بريطانيا قادت حصاراً دولياً ضد إيران وفى نهاية المطاف نجحت تحت قيادة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى قلب حكومة محمد مصدق وإعادة شاه إيران إلى العرش فعاد نهب البترول الإيرانى الى سيرته الأولى.

الخطوة المصرية بتأميم قناة السويس اتخذت مساراً مختلفاً ولكن أكثر ضراوة، فقد أدت الى غزو عسكرى ثلاثى ضد مصر من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. وبالمقاومة المصرية والحشد الدولى فشل الغزو الثلاثى وتأكدت عودة قناة السويس إلى الملكية والسيادة المصرية خصوصاً وأن الجميع أقروا بنجاح الإدارة المصرية الجديدة لقناة السويس.

بالعودة إلى الصين نجد أن القرار المصرى المبكر بالاعتراف بها رسمياً كان مكسباً معنوياً ضخماً للصين لأنه شق حصار العزلة المفروض عليها أمريكياً فى الساحة الدولية وهى خطوة تمثل فى قاموس أصحاب الحضارات والصين من أصحاب الحضارات ظهور

صديق بعيد وقت الشدة. هذا العرفان جاءت أبسط ترجمة له فيما بعد. فحينما شهدت الصين اضطرابات داخلية عاصفة، سميت فترة الثورة الثقافية، سحبت الصين سفراءها من عشرات الدول ما عدا سفيرها فى القاهرة الذى استمر السفير الوحيد للصين فى كل منطقة الشرق الأوسط.

لم تكن الخطوة مجرد اعتراف بالجميل ففى السياسات الدولية لابد للمشاعر أن تعبر عن مصالح. والمصلحة الصينية المستجدة فى الاحتفاظ بسفيرها بالقاهرة خلال سنوات الستينات كان أساسها أن القاهرة أصبحت هى الباب السحرى إلى إفريقيا. كل إفريقيا. مصر ساندت معظم حركات التحرير الباحثة عن الاستقلال ومعرفتها وثيقة بالحكام الجدد فى عهد الاستقلال وكل منهم لم يكتسب جديته بين شعبه إلا فقط بعد حصوله على دعم القاهرة.

من الطبيعى هنا أن تكون للاستقلال مشاكله المستجدة أيضاً. فمع انسحاب المستعمرين القدامى بدا تصميمهم على أن يكون الخراب الأقتصادى بعدهم فارضين على حكومات ما بعد الأستقلال النهوض ببلادهم من تحت الصفر. فى حالة الصومال مثلاً كان محصولها التصديرى الرئيسى هو الموز وتحتكره الشركات الإيطالية تسويقاً وتصديراً. فجأة قررت تلك الشركات الإمتناع عن شراء الموز الصومالى. وخلال جولة عاجلة قام بها عبدالرشيد الشرمأركى رئيس وزراء الصومال وقتها تضامنت كل الشركات الأوربية الأخرى مع الشركات الإيطالية فى مقاطعة الموز الصومالى. فقط بعد اتجاه رئيس الوزراء الصومالى الى القاهرة وحصوله على قرار مصرى معلن بشراء محصول الموز الصومالى بالكامل.. عاد الرجل إلى بلاده ليجد تراجعاً كاملاً عن المقاطعة الإيطالية لمجرد أن أوربا لاتريد لدول إفريقيا التعامل مباشرة مع بعضها البعض.

فى السياسة الإفريقية لمصر وقتها، ورغم غزارة المعلومات وضخامة التطورات، لانجد فى المكتبة السياسية مراجع موثوقة عديدة. فقط هو كتاب موجز بقلم محمد فائق المسئول المصرى وقتها المكلف بالملف الإفريقى. هكذا نكتشف أن الدعم السياسى المصرى لحركات التحرر الإفريقية سرعان ما تحول إلى علاقات اقتصادية تالية ومفيدة للطرفين. مفيدة لمصر وأيضاً مفيدة لدول افريقيا المستقلة. لم يكن الصراع هنا أقل هولا.. لأنه بحسابات استعمارية سابقة كانت الخطوط مقطوعة تماماً بين دول إفريقيا

وبعضها البعض. فقط تكون العلاقات مباشرة ومنتظمة مع الدولة المستعمرة هناك فى أوربا. فالأفريقى فى دولة اذا أراد السفر جواً إلى دولة إفريقية أخرى يكون عليه أن يذهب أولاً إلى باريس أو لندن أو روما مثلا. من هنا فرضت الضرورة على مصر أن تقيم شركة خاصة للإستيراد والتصدير بهدف المتاجرة مع إفريقيا. وفى مرحلة تالية وجدت الشركة أن عليها أيضاً أن يكون لها فروع فى أوربا وآسيا لأن العلاقات الاقتصادية الجديدة متسعة وملحة ومتشابكة.

مع التوسع الصناعى الجديد فى مصر عرفت المصانع المصرية الجديدة طريقها إلى أسواق إفريقيا. ومن نيجيريا إلى مالى ومن تنزانيا إلى الصومال ومن ساحل العاج إلى غانا بدا الأقبال الأفريقى غير مسبوق على صادرات مصر من المنسوجات والأدوية والجرارات الزراعية والدراجات الهوائية والمعلبات الغذائية والسكر والثلاجات ومواقد البوتاجاز والأدوات المنزلية و.. و.. كلها إنتاج مصرى كفء وبأسعار تنافسية. فى أحيان أخرى كانت التجارة تتخذ طريقاً ثلاثياً فتصدر مصر الثلاجات مثلاً إلى افريقيا لتحصل مقابله على أطنان من البن فتصدرها إلى طرف ثالث.. وهكذا. فى جميع الحالات أصبح للشركة المصرية المختصة بالتجارة مع افريقيا فروع رابحة مع ٣٥ دولة إفريقية تقوم بالتسويق فى الاتجاهين: تسويق المنتجات المصرية فى إفريقيا وأيضاً تسويق منتجات إفريقيا فى مصر والعالم.

كان هذا يعنى فى أقل القليل عشرات الآلاف من فرص العمل المتسعة أمام الشبان المصريين المتعلمين المرتبطين بمصانعهم وشركاتهم والمزيد منهم مع كل توسع فى الانتاج والتصدير. وكان يعنى أيضاً ظهور جيل جديد من الخبراء المصريين.. ليس فقط فى التاريخ الأفريقى ولا حتى الأقتصاد الافريقى.. ولكن أيضاً فى أذواق المستهلكين واحتياجاتهم بكل بلد افريقى.. إلى درجة أن مصانع مصرية اشترت خصيصاً معدات جديدة لكى تصنع أقمشة ملونة ومرسومة بالذوق الأفريقى، وأحياناً مصنوعة من قطن قصير التيلة تستورده مصر خصيصاً بدل القطن المصرى طويل التيلة والأعلى تكلفة، حتى يكون السعر المصرى تنافسياً أمام المنتجات الأوربية فى الأسواق الأفريقية.

مرة أخرى هذا يعيدنا إلى الصين. ففى تلك السنوات كانت المعرفة بأفريقيا تبدأ من القاهرة. وهى معرفة لم تكن تسعى إليها الصين فقط، وإنما الاتحاد السوفيتى أيضاً وكل

منهما يفرق بينهما خصام ايديولوجى لكن يجمع بينهما الحاجة إلى الخبراء المصريين بالأسواق الأفريقية. خبراء أصبحوا بحد ذاتهم كما العملة الصعبة وجزء أساسيا من رأس المال البشرى الجديد المتراكم لدى مصر الناهضة صناعياً واقتصادياً.

والآن لنقفز فوق هذا كله إلى ما أصبحنا عليه. الصين الآن لها علاقاتها التجارية المباشرة والمتزايدة مع معظم الدول الأفريقية.. من أنجولا ونيجيريا وزيمبابوى إلى السودان وكينيا والكونغو وأثيوبيا. وباختصار ارتفع حجم التجارة الصينية مع إفريقيا من ١٠ر٦ مليار دولار سنة ٢٠٠٠ إلى ٤٠ مليار دولار فى العام الماضى. ومؤخراً نقرأ فى جريدة أمريكية تقريراًصحفياً يقول: ان الشركات الصينية اشتهرت بالذهاب إلى حيث لايذهب الآخرون سواء لأسباب سياسية أو لأن هامش الربح ضئيل جداص. وفى هذا الإطار فأن الشركات الصينية المملوكة للدولة لديها القدرة على الإعراض عن أرباح قصيرة الأمد فى سبيل تحقيق المصالح الاستراتيجية طويلة الأمد للحكومة الصينية . لو عدنا إلى أربعين سنة سابقة، ووضعنا اسم مصر بدل الصين، فسنجد ما سبق يكاد يعبر به محمد فائق حرفيا عن توجه مصر الأفريقى سابقاً كما تابعه عملياً فى كتابه المدهش.

لكن الفارق المهم الآن مزدوج. فأولاً: تقطعت حبال مصر الأفريقية سياسياً واقتصادياً منذ سنوات التضليل بالأنفتاح شمالاً بدلاً من جنوباً. شركات القطاع العام المصرية بدأ خصخصتها بسعر التراب بعد أن جرى منعها مسبقا من الاستثمار أو الصيانة أو التطوير. والشركة المصرية التى كانت مهمتها التجارة مع افريقيا وتسويق المنتجات المصرية جرى تفكيكها والاستغناء عن خبرائها. بل إنه حتى شركة المعلبات الغذائية الشهيرة بصادراتها إلى افريقيا (والعالم العربى) جرى تصفيتها فورثتها إسرائيل فى أسواقها الأفريقية. أما الخبراء الذين فرطت فيهم مصر فربما تستطيع تعويضهم باستيراد خبراء مثلهم من الصين. خبراء بأسواق إفريقيا. هذا لو وافقت الصين.

ثانيا: إن الصين ذات نفسها بعد أن كانت تشترى المنتجات المصرية قبل أربعين سنة أصبحت منتجاتها موجودة فى أنحاء مصر على مدار الساعة.. من فوانيس رمضان إلى سجاجيد الصلاة إلى الأدوات المنزلية إلى المنسوجات.. بل وحتى أجهزة التليفزيون بعد أن جرى مؤخرا تصفية شركة القطاع العام المصرية المنتجة لأجهزة التليفزيون منذ ٤٥ سنة والقذف بعمالها وفنييها الى سوق البطالة. أما المفارقة الأكبر فهى شراء الحكومة

المصرية منذ سنوات لسندات خزانة أمريكية بألف وخمسمائة مليون دولار كسباً للرضاء الأمريكى، فى نفس الوقت الذى احتاجت فيه شركة منسوجات مصرية بكفر الدوار إلى قرض بعشرة ملايين دولار فلم تجد من يقرضها إلا بنك فى... الصين.

وبمناسبة المنسوجات.. كان العالم كله يعرف منذ قيام منظمة التجارة العالمية فى ١٩٩٥ أن أمريكا ملتزمة بإلغاء نظام الحصص فى وارداتها من المنسوجات بعد عشر سنوات. الصين (وكل دول العالم) استغلت السنوات العشر فى تطوير منسوجاتها وتخفيض تكاليفها فأصبحت حالياً مصدر المنسوجات الأول إلى السوق الأمريكية.لكن مصر فعلت شيئاً آخر لم يخطر على بال أى دولة أخرى. لقد نامت الحكومات المصرية المتعاقبة فى العسل مقررة منع مصانع النسيج المصرية من تطوير نفسها أو إضافة أية استثمارات جديدة. فقط قبل أسبوعين اثنين من انتهاء نظام الحصص الأمريكية فاجأت الحكومة المصرية شعبها فى ديسمبر ٢٠٠٤ باتفاق مع إسرائيل باسم الكويز يلزم مصر بشراء ١١ر٧ ٪ من مكونات منسوجاتها من إسرائيل كشرط لدخول السوق الأمريكية معفاة من الرسوم الجمركية. والحجة الرسمية هى أن هذا هو الحل الوحيد والسحرى لإنقاذ الصناعة المصرية. الصين ومصر يحتفلان حالياً بمرور خمسين سنة على العلاقات الدبلوماسية. لا الصين الآن هى الصين ولا مصر هى مصر. لكن الدرس الأساسى يظل هو نفسه: القوة فى السياسة والاقتصاد لايتم استعارتها من الآخرين. القوة هى بالأساس قوة ذاتية تبدأ من الداخل ومن هناك إلى الآخرين. قد تحتاج مصر هنا إلى تأمل حالة الصين. لكن الأفضل هو أن تتعلم مصر من تاريخها.

وإلى أن يحدث ذلك فلا تعليق على الحالة الراهنة بين مصر والصين سوى سلامات

■■ ثروات صاحبها غائب

الصومال مدخل إلى إفريقيا. وإفريقيا أصبح لها رمز معاصر هو نيلسون مانديلا. هو فى نضاله لم يعبر فقط عن قضية الأغلبية السوداء فى جنوب إفريقيا، وإنما عبر أيضاً عن جوهر عملية المواجهة بين قارة بكاملها وكل أقوياء الغابة الدولية الذين تكالبوا عليها احتلالاً لها ونهباً لثرواتها.

فى نضاله من أجل الحرية قضى نيلسون مانديلا ٢٧ سنة فى السجن. وحينما بدأ النضال الوطنى فى جنوب إفريقيا يثمر أخيراً جرى الإفراج عن مانديلا ليصبح أول مواطن من أصحاب الأرض يتم انتخابه رئيساً للدولة. وفى جولته الأولى خارج وطنه كان طبيعياً أن يقوم مانديلا بزيارة القاهرة. فى جدول الزيارة المقترح على مانديلا من مصر طلب الرجل إضافتين. الأولى هى أن يقوم بزيارة ضريح الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وفاء لدعم أعطاه للحركة الوطنية فى جنوب إفريقيا، فى وقت كانت أمريكا ومعظم دول الغرب تعتبرها حركة إرهابية. حتى الكونجرس الأمريكى أصدر قراراً باعتبار مانديلا ورفاقه إرهابيين تمنع أمريكا دخولهم إليها.

أما الإضافة الثانية التى طلبها مانديلا فى برنامج زيارته إلى القاهرة فكانت طلباً محدداً: أن يستقبل السيد/ محمد فائق الوزير السابق ومسئول الملف الإفريقى طوال سنوات حكم جمال عبدالناصر. وبتلك الصفة الأخيرة عرف فائق كل قادة حركات التحرير فى دول إفريقيا.. وهم عرفوه.

فى اجتماع مانديلا بمحمد فائق بادره قائلاً: يا مستر فائق لم يكن ممكناً أن آتى إلى القاهرة بغير أن أقابلك.. أولاً للشكر وثانياً للإعتذار. فأما الشكر فمفهوم. القاهرة آمنت بمانديلا وقضيته فى وقت كان أقوياء الغابة الدولية يرفضون القضية وأصحابها. لكن: الإعتذار.. عن ماذا؟

قال مانديلا ضاحكاً: أريد أن أعتذر لك عن عدم عودتى إلى القاهرة فى موعد اتفقنا عليه قبل ٢٨ سنة.. هل تذكر؟ بالطبع محمد فائق يذكر. ففى سنة ١٩٦١ جاء مانديلا إلى القاهرة سراً، فكل تحركاته داخل وخارج جنوب إفريقيا كانت سرية بالطبع لأن سلطات الحكم العنصرى هناك كانت تطارده هو ورفاقه. ولأن القاهرة فى وقتها كانت تحتضن حركات التحرير الإفريقية الجادة فلم يكن مناضل إفريقى يؤخذ داخل بلاده بجدية إلا إذا كانت تدعمه مصر. من هنا أقامت كل حركات التحرير الإفريقية تلك مكاتب دائمة لها فى القاهرة. والقاهرة بدورها كانت تقدم لهم الدعم المادى والمعنوى.. وأهمه تلك المحطات الإذاعية الموجهة من القاهرة بكل اللغات الإفريقية الرئيسية، زائد أربع لغات أوربية.

اندهش محمد فائق مبدئياً من ذاكرة مانديلا الدقيقة. لكنه اندهش أكثر حينما

أضاف مانديلا: يومها (قبل ٢٨ سنة) جئت أقابلك فوجدت عبدالرحمن بابو خارجاً لتوه من عندك.. فاكر؟

بالطبع محمد فائق يتذكر أن عبدالرحمن بابو كان من قادة النضال الوطنى فى زنجبار وأصبح فيما بعد نائباً لرئيس الوزراء فى الدولة الموحدة تنزانيا.والآن يتسامر الصديقان القديمان معاً مانديلا ومحمد فائق لأن فائق استجاب يومها (قبل ٢٨ سنة) لكل ما طلبه مانديلا ما عدا الموعد الذى يرجوه لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر.وقتها كان الزعيم اليوغوسلافى فى زيارة رسمية لمصر وعبدالناصر مشغول معه. لكن طالما مانديلا مضطر لبدء عودته السرية إلى بلاده فى اليوم التالى مباشرة فإن محمد فائق يعده بتدبير مقابلته المرجوة مع الرئيس عبدالناصر فى زيارته التالية، حيث قرر مانديلا أنه سيجىء إلى القاهرة لهذا الغرض بعد أسبوعين.

لكن مانديلا لم يعد إلى القاهرة.. لا بعد أسبوعين ولا بعد سنتين، لأنه فى عودته السرية إلى بلاده نجحت سلطات الحكم العنصرى هناك فى إلقاء القبض عليه ليصبح سجيناً لمدة ٢٧ سنة، بغير أن ينسى للحظة واحدة فى زمن انتصاره وانتصار قضيته أن يعبر عن وفائه للعاصمة التى ساندته القاهرة وللشخص الذى كان فى حينها ولوقت طويل هو الوجه المصرى الذى يعرفه مناضلو إفريقيا.

فى وقتها كان هناك إقبال إفريقى على مصر استلهاماً لنضالها المعلن إقليمياً ودولياً. وكان هناك إقبال مصرى على إفريقيا بعد أن أصبح هذا جزءاً من أمن مصر ومصالحها. ونجاح مصر مثلاً فى تأميم شركة قناة السويس كان ملهماً لشعوب عديدة لأنه جاء على الوجيعة. فمن أمريكا اللاتينية إلى آسيا إلى إفريقيا كانت الشركات الأجنبية تسيطر بالكامل على الاقتصاد الوطنى فى كل دولة. وأحياناً كانت تقوم بالمهمة شركة واحدة. فى حالة زامبيا مثلا، حصلت على الاستقلال لكى يكتشف كينيث كاوندا رئيس الدولة وبطل استقلالها أن الإنجليز مايزالون هم المتحكمين فعلياً فى صادرات زامبيا من النحاس. فى نفس الوقت كانت مصر تشترى احتياجاتها من النحاس الذى تنتجه زامبيا بستة ملايين جنيه استرلينى سنوياً، ولكنها تحصل عليه وتشتريه من أسواق لندن، فتصبح الأرباح الخيالية من نصيب الإنجليز طبعاً.

وفى زيارات كاوندا إلى القاهرة قبل الاستقلال لاحظ مفاوضوه المصريون أنه يكرر

رغبته فى دراسة عملية تأميم قناة السويس وما هى المشاكل التى واجهتها مصر وكيف تغلبت عليها. ثم عاد كاوندا يلح على نفس الموضوع فى زيارته الأولى لمصر بعد استقلال بلاده. فى تلك المرة أفصح عن السبب.فاقتصاد بلاده يعتمد على استخراج وتصدير النحاس والشركات المحتكرة لكل عمليات التعدين والتصدير هى أجنبية، وبالذات بريطانية. من هنا لم تسمح بريطانيا باستقلال زامبيا إلا بعد ربطها باتفاقيات تلزمها باستمرار الحال على ماهو عليه.. على ما فيه من إجحاف.

وفى استقبال جمال عبدالناصر لكاوندا رئيس زامبيا صارحه الأخير بأنه يستلهم نجاح مصر فى تأميم قناة السويس لأنه يفكر فى إعلان تأميم شركات تعدين النحاس فى زامبيا. يومها وحسب ما نشره محمد فائق فوجىء كاوندا بأن عبدالناصر يرد عليه قائلاً: إذا كان لى أن أنصح، فأعتقد أنه من الخطأ أن تقدم على عمليات التأميم الآن وخاصة لمناجم النحاس. فيجب أن يتوفر لديك أولاً الفنيون والخبراء الوطنيون اللازمون لتشغيل المشروعات المؤممة، أو على الأقل تكون لهم نفس القدرة على السيطرة الفنية والإدارية حتى يتمكنوا من تشغيلها بنفس الكفاءة. ومن الواضح أن هذا يحتاج إلى بعض الوقت... حتى تتمكن من ترتيب البيت الداخلى ومقاومة نفوذ وأطماع جنوب إفريقيا، وإلى أن تتمكن من إقامة الجسور بينك وبين دول أخرى فى العالم كله .

يومها لم يخف كاوندا دهشته من أن يسمع تلك النصيحة من الرجل الذى كان الإنجليز يعتبرونه عدوهم الأول. ثم يضيف محمد فائق: كان عبدالناصر يريد لكاوندا أن يستعد جيداً قبل أن يقدم على عملية التأميم حتى لا يتأثر إنتاج النحاس. وكان ذلك بعد استقلال زامبيا بشهور قليلة. وفى عام ١٩٦٨ ذكرنى الرئيس كاوندا بهذا الحديث عندما التقيت به فى أديس أبابا أثناء مؤتمر القمة الإفريقى. وكان كاوندا قد أعلن لتوه عن تأميم ٥١ بالمائة من أسهم النحاس فى زامبيا . فى تلك المرة نجح التأميم لأنه كان مدروساً، ولأن تلك كانت أيضاً العبرة الأولى من نجاح تأميم قناة السويس.

ذكرت من قبل أن السياسة الخارجية المصرية أصبح لها بعد إفريقى منذ وقت مبكر بعد سنة ١٩٥٢ . وفى سنة ١٩٥٥ مثلاً جرى إنشاء الرابطة الإفريقية فى القاهرة كجمعية لها نشاط سياسى وثقافى. كذلك أنشأت مصر إذاعة صوت إفريقيا الموجهة إلى كينيا وكل الشعوب الناطقة باللغة السواحيلية. ثم تتابعت الإذاعات والبرامج الموجهة من القاهرة

إلى كل دول إفريقيا تحت الإحتلال وبلغاتها المحلية (أكثر من ١٢ لغة) بخلاف اللغات المستخدمة رسمياً فى مناطق إفريقيا وهى الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والعربية. ومع أن سلطات الاحتلال الأوربى فى دول إفريقيا كانت تمنع مواطنى كل دولة من الذهاب إلى مصر ولو فى زيارة عابرة إلا أن قادة حركات التحرير الإفريقية اعتبروا مجيئهم إلى مصر جزءاً من نشاطهم السرى بحيث أنه لم يحدث أن قامت حركة ثورية تحريرية فى إفريقيا بعد عام ١٩٥٢ إلا وكان لها اتصال بالقاهرة وأيدها عبدالناصر ووقف معها .

لم تكن مصر دولة عظمى ولا غنية لكى تباشر هذا كله. لكنها دولة كبرى إقليمياً وقادرة وطنياً على أن تساهم بما تستطيعه من تدريب ودعم للقادة الجادين فى النضال من أجل الإستقلال. كل هذا كاستثمار مصرى من أجل المستقبل.

هذا يعنى أن السياسة فى نهاية المطاف هى حسن إدارة مصالح الناس والاستعداد للمستقبل قبل وصوله. وجزء من مصالح مصر وقتها هو أن تفتح أسواقاً لمنتجاتها الصناعية والزراعية فى إفريقيا، خصوصاً فى وجود خطة جادة للتنمية فى مصر اعتبرت فى حينها نموذجاً للدول النامية. لكن مصر سرعان ما واجهتها صعوبات عملية. الصعوبة الأولى هى أن الدول الإستعمارية السابقة أرغمت دول إفريقيا على الإرتباط بها عضوياً فى مجال التجارة. فإذا جاءت مصر الآن لتتاجر مع دول غرب إفريقيا مثلاً يصبح على تلك التجارة المصرية أن تتجه أولاً إلى الموانىء الأوربية شمالاً ومن هناك يعاد شحنها جنوباً إلى غرب إفريقيا. هذا يضاعف تكاليف النقل وبالتالى يقلل من تنافسية السلع المصرية.

هناك أيضاً عدم وجود خبرات مصرية سابقة بالأسواق الإفريقية. فمثلاً.. للأفارقة أذواق خاصة فى المنسوجات وألوانها. هذا اقتضى تجهيز وحدات خاصة لطباعة المنسوجات فى مصانع مصرية تكون مخصصة للتصدير إلى إفريقيا.

هناك ثالثاً ضعف النظام البنكى فى معظم دول إفريقيا المستقلة لتوها. هذا يستلزم وجود أساليب خاصة فى تصدير السلع المصرية إلى إفريقيا تعتمد على البدء أولاً ببناء أو تأجير معارض ومخازن متسعة فى الدولة الإفريقية لكى ترد إليها السلع المصرية بصفتها بضاعة حاضرة . لتلك الأسباب، وغيرها كثير، أقامت مصر شركة

قطاع عام باسم شركة النصر للإستيراد والتصدير بهدف التركيز على الأسواق الإفريقية لحساب الإنتاج المصرى بمجموعه.. سواء من القطاع العام أو الخاص.

من الصفر إذن بدأت مصر تفتح الأسواق الإفريقية أمام إنتاجها الوطنى وفى مواجهة منافسة مفتوحة وشرسة مع منتجات أوربية اعتادت احتكار الأسواق الإفريقية. وبحلول سنة ١٩٦٧ كانت شركة النصر للإستيراد والتصدير قد أصبح لها ٢٥ فرعاً من بينها ٢٨ فرعاً فى دول إفريقيا. وبلغ عدد موظفيها وخبرائها أكثر من ٣٦٠٠، كما أصبحت تستخدم ١٢ سفينة شحن أكثر من نصفها تزيد حمولتها عن ستة آلاف طن.

هكذا بدأت مصر تصدر إلى أسواق إفريقيا لأول مرة الثلاجات والأقمشة وإطارات وبطاريات السيارات والأدوية والأغذية المعلبة والدراجات والأثاثات المعدنية وأجهزة التكييف والجرارات الزراعية و.. و.. و.. كلما نجحت السلع المصرية فى كسب المنافسة سعراً وجودة كان يزداد إقبال الأفارقة عليها. هذا بدوره جعل مصر تفوز بعقود مقاولات لإنشاء طرق وتطهير موانىء وإقامة فنادق ومطارات ماتزال قائمة حتى الآن فى عواصم إفريقيا شاهدة على بعد نظر وجدوى الإستثمار المصرى المبكر فى تحرير إفريقيا. وأصبح كل عشرة ملايين دولار تحصل عليها مصر ثمناً لصفقة صادرات من إنتاجها الوطنى تعنى ثلاثة آلاف فرصة عمل إضافية للشباب داخل مصر من خلال التوسع فى الصناعات والزراعات القائمة.. بغير أن نتكلم عن آلاف المدرسين والمهندسين والأطباء ومبعوثى الأزهر الذين أصبحت دول إفريقيا تطلبهم رسمياً من مصر بعقود مجزية. وأصبحت شركة مصرية واحدة هى شركة النصر للإستيراد والتصدير تمتلك.. وأكرر: تمتلك وليس تستأجر.. عمارات ومعارض ومخازن ضخمة للبضائع فى السنغال وجمهورية إفريقيا الوسطى والكاميرون والكونغو برازافيل والكونغو الديموقراطية ونيجيريا وغانا وكل دول البحيرات العظمى و.. و..

ثم جرى لنا وبنا شىء ما.. منذ سنوات. شىء فادح جعلنا ننسى إفريقيا وننسحب من أسواقها ونتخلى عن خبرائنا فيها ونهمل فى ممتلكاتنا بها وقيمتها تتجاوز عشرات وعشرات الملايين من الدولارات.لم نعد نسمع عن شركة النصر للإستيراد والتصدير. لم نعد نسمع عن تجارة مصرية مع إفريقيا. لم نعد نسمع عن إفريقيا من أصله.

وذات يوم قبل ثلاث سنوات (الأهرام: الثلاثاء ٢٠٠٥/٥/١٧) لفتت نظرى رسالة

صحفية مدهشة بعث بها يحيى غانم، وهو من أكفأ المراسلين الصحفيين المصريين. رسالة من جنوب إفريقيا لتنشر فى القاهرة. الرسالة تسجل بعمق وتوثيق ومرارة بعض ممتلكات مصر فى دول إفريقيا وقد أصبحت مهجورة ومنسية وبلا حراسة كما لو لم يكن لها صاحب بالمرة. ممتلكات يعطى يحيى غانم نماذج منها مقرراً أنها بمئات الملايين من الدولارات فى أهم المواقع والدول،بما فى ذلك مبانى ضخمة لم يعد ينقصها سوى التشطيب.. ناقلاً عن دبلوماسى غربى استغرابه الشديد من أن تلك الأصول التى تمتلكها مصر فى دول إفريقيا نادراً ما تتوافر لدولة عظمى على حد تعبيره. بعدها بأسبوعين قرأت فى صحيفة أخرى حواراً مع مستشار وزير التجارة الخارجية (رشيد محمد رشيد) للشئون الإفريقية عناوينه الرئيسية هى لدينا ممتلكات بملايين الدولارات فى إفريقيا غير مستثمرة... يمكننا غزو السوق الإفريقية بالحاصلات الزراعية والدواء ومواد البناء .

لكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل ولم نسمع عن هذا المستشار مرة أخرى. هل لأن الحكومة المصرية تكره القطاع العام؟ أو التجارة مع إفريقيا؟ أو الرزق الحلال المتاح فى الجنوب بدل الإستجداء غير المجدى فى الشمال؟

ومع وجود كل هذا الإهمال الحكومى لإفريقيا بلغت قيمة الصادرات المصرية إلى دول إفريقيا ١٦٣ مليون دولار فى سنة ٢٠٠٣ آخر رقم متاح. الرقم ليس متواضعاً، بالنظر إلى أنه لم تعد لدينا شركة متخصصة فى التجارة مع إفريقيا، ولا أسطول من سفن الشحن نتعامل به مع إفريقيا، ولا أصبح لصناعاتنا وزراعاتنا موطىء قدم فى إفريقيا. هذا يجرى بالضبط فى الوقت الذى تجىء فيه الدول من أطراف العالم لتتاجر مع إفريقيا. الصين مثلاً تكسب الآن فى إفريقيا تجارياً أكثر من عشرة بلايين دولار سنوياً. الصين قبل عشرين سنة لم تكن تعرف الطريق إلى أفريقيا أصلاً ولا كانت تتواجد فى أى من دولها بسفارة أو قنصلية واحدة. كانت مصر هى التى تعرف وهى التى تسبق وهى التى تمارس سياسة النفس الطويل فى التجارة مع إفريقيا.الآن مصر هى التى انقطع نفسها، والصين هى التى تستنسخ فى إفريقيا بالضبط نفس المفهوم الذى مارسته مصر قبل نصف قرن. مسئولو الصين كل يوم فى دول إفريقيا تعظيماً لمصالح بلدهم. بينما وزراء مصر ورجال أعمالها فى بعثات إلى أمريكا يسمونها بعثات طرق الأبواب . لا الأبواب انفتحت ولا مسئولينا تعلموا.

نموذج أول: تقارير صحفية متواترة تكشف تورط شركات محلية فى استيراد قمح فاسد من أوكرانيا وغيرها تحت مسمى أعلاف حيوانية بينما تصرفه الحكومة للمخابز لإنتاج رغيف العيش. وبدلاً من الكشف عن المستوردين ومعاقبتهم عاقبت الحكومة أصحاب المخابز بالغرامات الباهظة. والجهاز المركزى للمحاسبات يشكل لجنة لحصر كميات القمح المستوردة خلال السنوات الثلاث الأخيرة وحصر الجهات المستوردة ومراجعة مدى سلامة إجراءات السماح بذلك القمح الفاسد.

نموذج ثان: سيل متزايد من الإعلانات التليفزيونية وملاحق الصحف للترويج لعشرات من ماركات السيارات المستوردة. إعلانات تتكلف عشرات الملايين من الجنيهات، من بينها ملايين تدفع لنجوم سينما تحتكرهم الشركات المستوردة للسيارات الفارهة شرهة الإستهلاك للبنزين الذى ترفع الحكومة سعره مرة بعد مرة للحصول على موارد إضافية لسد العجز المتزايد فى ميزانيتها. فيما بين هذا وذاك لم أجد وسيلة إعلام مصرية واحدة تتابع مأساة خنق ومحاصرة وتخسير الشركة المصرية الأقدم لإنتاج السيارات وتسريح الآلاف من مهندسيها وعمالها استعداداً لتصفيتها أو بيعها كالعادة بسعر التراب.

نموذج ثالث: فروع لبنوك أجنبية، بل حتى بعض البنوك المصرية، تلح على المودعين وصغار الموظفين لإعطائهم بطاقات ائتمان مجانية فورية (فيزا كارد وماستر كارد وغيرهما) تشجيعا لهم على الشراء والشراء والشراء، بالإستدانة المتراكمة، وتقريباً بغير ضمانات للسداد.

تلك مجرد نماذج للمنزلق الذى ننحدر إليه طوال سنوات دون أن يتوقف أحد عند حقيقة أن كل هذا يؤدى مباشرة إلى زيادة الديون الأجنبية المستحقة على مصر سنة بعد سنة. الآن تجاوزت ٣٤ مليار دولار بزيادة أربعة مليارات فى سنة واحدة. هذه الديون سيتحمل عبؤها ووزرها جيل قادم لاذنب له فى القصة من أولها.

استمر هذا يجرى فى ظل دعوة لتحويل مصر إلى اقتصاد السوق والإندماج فى الاقتصاد العالمى بشهادات حسن السير والسلوك من صندوق النقد الدولى والمؤسسات الأمريكية والغربية التى يعبر عن مصالحها. وحتى بعد زلزال الأزمة المالية الأخيرة

التى صنعتها أمريكا وصدرتها إلى معظم دول العالم لم يتوقف عندنا أحد للمراجعة أو استخلاص الدروس الصحيحة. الأزمة أساسها أن أمريكا وهى الدولة العظمى استسلمت طوال سنوات للعيش بما يتجاوز قدرتها.. وهى ضخمة.. وتشجيع مواطنيها على السلف والإقتراض وشراء المنازل بالرهن العقارى والإنفاق المتزايد باستخدام شتى أنواع بطاقات الإئتمان.

وحينما انفجرت الأزمة فى منتصف سبتمبر الماضى بإعلان إفلاس رابع أكبر بنوك أمريكا تلاحقت حالات الإفلاس فى البنوك والشركات، واضطرت أمريكا إلى ابتلاع الدواء المر، وهو استخدام ٧٠٠ مليار دولار من أموال دافعى الضرائب لإنقاذ مؤسسات مالية منهارة ومنع إفلاس المزيد من البنوك. حتى كتابة هذه السطور لحقت حالة الإفلاس بتسعة عشر بنكاً أمريكياً. ملايين المواطنين الذين أصابتهم الأزمة اكتشفوا أنهم وحدهم يدفعون ثمنها الموجع من العجز عن السداد والبطالة والطرد من منازلهم انتظاراً للفرج على ناصية الطريق.

قارىء أمريكى بعث إلى جريدته برسالة غاضبة مريرة يقول فيها: برافو يا أعضاء الكونجرس! أنتم الآن أثبتم أن لدينا اشتراكية للأثرياء ورأسمالية للباقين من المواطنين العاديين . وخلال الحملة الإنتخابية الأمريكية الأخيرة طرح باراك أوباما مرشح الحزب الديموقراطى المعارض برنامجاً للإنقاذ يقوم ضمن بنود أخرى على زيادة الضرائب على الأثرياء وتخفيضها أو إلغاؤها على العائلات التى يقل دخلها السنوى عن ربع مليون دولار وهم خمسة وتسعين بالمائة من الأمريكيين. المرشح الجمهورى المنافس جون ماكين اتهم أوباما علناً بأن ميوله اشتراكية وهى تهمة لو تعلمون فظيعة فى دولة تعتبر نفسها قلعة ومنارة الرأسمالية فى العالم. مع ذلك جاءت النتيجة حاسمة وقاطعة لصالح باراك أوباما وحصوله على ٦٦ بالمائة من أصوات الناخبين، وهى أعلى نسبة يفوز بها مرشح رئاسى منذ عقود طويلة. لم ينخدع الناخبون بتهمة الإشتراكية وهى غير صحيحة أصلاً وانحازوا إلى شعار التغيير الذى اختاره أوباما عنواناً لبرنامجه الإنتخابى.

لا أريد الإسترسال فى الجانب الأمريكى من القصة فقد كتبت عنه من قبل.. وإنما أستخدمه فقط للإنتقال إلى مأزقنا الخاص بنا نحن هنا فى مصر. نحن أيضاً فى حاجة ماسة إلى التغيير، والتغيير الجاد، إذا كنا نستوعب حقاً ما يجرى فى العالم وعندنا. فى

العالم انقلاب كامل على منطق ترك الحبل على الغارب لاقتصاد السوق وإعطاء الأولوية للاستهلاك بما يتجاوز الموارد وتقليص دور الدولة فى الحياة الاقتصادية.. إلى آخر الموال الذى ظلوا يلحون علينا به من خلال النصائح الأمريكية المباشرة أو من صندوق النقد الدولى.

وكما نشرت مادلين بونتينج فى جريدة الجارديان البريطانية فإنه: فى شهر سبتمبر الماضى عانت الولايات وأوربا من حالة إذلال بسبب الفشل الكارثى لقواعدهم الخاصة التى كانوا يلحون عليها وأصبحوا الآن مضطرين إلى تمزيقها. لقد انكشفت المعايير المزدوجة للمصالح الغربية تماماً. فخطط الإنقاذ المالى الحكومى التى وضعوها هى بالضبط ما كانوا بشكل متكرر، وبقسوة، يرفضون السماح لدول أخرى أن تفعله فى أزمات مشابهة . نحن هنا نعرف أنهم هناك سيدبرون أمورهم عاجلاً أو آجلاً، بالسياسة أو بالبلطجة، وبشفط ما يستطيعونه من الفوائض المالية لدول البترول والصناديق السيادية الأخرى. تلك قدرة لانملك مثلها هنا فى مصر أو فى كل الدول النامية. نحن نملك فقط عقولنا ومواردنا المحدودة لكى نحسن استخدامها. من عقولنا نريد تغييراً جذرياً ينقلنا من ثقافة الإستهلاك إلى ثقافة الإنتاج. وبمواردنا المحدودة نريد الإنتقال من البطالة إلى العمل ومن الفقر إلى الغنى.

لكن.. حينما تصبح مصر أكبر دولة فى العالم مستوردة للقمح مثلاً فإن هذا يعنى أننا منذ سنوات نمارس سياسة زراعية مدمرة لم نحترم فيها آراء الخبراء ولا دروس الماضى القريب. وحينما يعلن وزير الزراعة قبل أيام أنه يدعو المزارعين إلى التوسع فى زراعة القمح وفى نفس الوقت يؤجل إعلان أسعار توريد القمح من الفلاحين فإن هذا يحول وزارة الزراعة إلى مجرد عابر سبيل وليس صاحبة رؤية وبرنامج.

وحينما نخفض الرسوم الجمركية على السيارات الأجنبية المستوردة دون تحسب للعواقب أو مراجعة أوضاع الصناعة الوطنية تكون النتيجة هى أن يقفز عدد السيارات المستوردة إلى مائتى ألف سيارة كما حدث هذه السنة فعلاً. سيارات يتم ضخها فى شوارع مختنقة، وبالإستدانة الصريحة لمئات الملايين من الدولارات دفعناها ثمناً لتلك السيارات. وأصبحت البنوك هنا وبالذات الأجنبية منها تتنافس لإغراء المستهلك المصرى بالإقتراض منها حتى مليون جنيه فى كل حالة لشراء سيارة مستوردة. هذا المشترى المحتمل لا يطلب

منه البنك سوى أن يكون عمره فوق ٢٢ سنة وألا يقل دخله الشهرى عن ١٦٠٠ جنيه. هذا هو بعض ما حذرنا منه سابقاً وقت هوجة الإلحاح على بيع البنوك المصرية للأجانب. من ناحية هذا استخدام مدمر لمدخرات المصريين فى تلك البنوك، ومن ناحية أخرى تسويق منتجات دول أجنبية تزيد من فرص العمل لشبابها على حساب بطالة متزايدة هنا لشبابنا. أكثر من ذلك نجد فى التعديلات الأخيرة لقانون المرور بدعة مستجدة خلاصتها إجبار ٤٠ ألفاً من أصحاب سيارات الأجرة على التخلص من سياراتهم خلال سنتين وشراء سيارات جديدة هى بالحتم مستوردة حتى تستمر تراخيصهم. إجراء شاذ لم يسعد به سوى وكلاء استيراد السيارات الأجنبية فى مصر.

فى ثقافة وسياسات مضادة كان يمكن تكليف شركة النصر لصناعة السيارات مثلاً، وهى شركة قطاع عام موجودة منذ سنة ١٩٦٠، بإنتاج سيارة محددة بترخيص أجنبى يصبح هو بالتدريج النموذج الموحد لسيارات الأجرة، وبغير سلطة القمع. إجراء كان كفيلاً بإعادة الحياة لشركة تملك تسعة مصانع ومايزال بعض إنتاجها مشهوداً فى شوارعنا ومدننا. منه مثلاً السيارة نصر ١٢٨ بترخيص من شركة فيات الإيطالية وآخر سعر بيعت به إلى الجمهور كان ٥٥٠٠ جنيه إلى أن بدأ إدخال الشركة فى مرحلة الخنق والتخسير جبراً بفعل فاعل.

وهكذا فى ظل سيادة ثقافة وسياسة الإستهلاك اختفت من مصر صناعات ناجحة ومستقرة كان يمكن لها أن تستمر وتتطور وتزدهر لو لم يخنقها أصحاب الغرض لمصالح أجنبية. من الثلاجة إلى البوتاجاز إلى منتجات البلاستيك إلى كراريس المدارس واللمبات الكهربائية وأجهزة الراديو والتليفزيون وسيارات الركوب واللورى والأوتوبيس ومعدات التليفون والأغذية المعلبة والمراجل البخارية والملابس الجاهزة ومنسوجات المحلة الكبرى وكفر الدوارإلى الزيت والسكر.. إلى،، إلى.. إلى عشرات وعشرات من السلع التى كنا منتجين لها بأسعار مناسبة للمصريين وأصبحنا لها مستوردين.

سلع عديدة كنا نصدرها إلى الخارج لقدرتها التنافسية سعراً وجودة.. من معلبات شركة قها إلى أوتوبيسات ولوارى النصر للسيارات إلى بوتاجاز المصانع الحربية ومنسوجات المحلة الكبرى وأقمشة كفر الدوار وأثاثات دمياط وسكر نجع حمادى وأسمدة كيما بأسوان و..و.. و..

اختفى كل هذا بالتتابع وأغلقنا مصانع وشردنا عمالها واستوردنا بدائل من الخارج. بل حتى جمع القمامة فى مدننا استوردنا له شركات أجنبية تحولت بعد فترة إلى بلطجى علينا وعلى الحكومة.. فلا قمامة تجمع ولا حكومة تفسخ معها التعاقد.. وإنما فقط الشركات تتجبر على الحكومة والحكومة تتجبر علينا فتفرض علينا قهراً رسوماً للنظافة ضمن فواتير الكهرباء لحساب تلك الشركات الأجنبية. وهو استخدام شاذ لسلطة الحكومة لم تفعله أعتى دولة رأسمالية لحساب شركات القطاع الخاص عندها.

فى ظل ثقافة وسياسات الإستهلاك أصبحت البنوك تطارد كل الناس، حتى موظفى الحكومة، لإعطائهم بطاقات ائتمان مجاناً فتدفعهم إلى الشراء والشراء على طريقة انسف حمامك القديم . وفى لحظة الحقيقة يجىء الحجز والمصادرة وخراب البيوت. وفى ظل ثقافة وسياسات الإستهلاك أصبحت إعلانات التليفزيون تطاردنا وتفرض سطوتها المالية حتى على تليفزيون الدولة. إعلانات لا تلح علينا فقط بالشراء والشراء، ولمنتجات مستوردة تحديداً، وإنما تمزق مسلسلات الدراما إربا فيصبح المسلسل الدرامى أيضاً فى خدمة الإعلانات وليست الإعلانات فى خدمة التليفزيون. وفى الإذاعة أصبحت محطاتنا، بما فيها البرنامج العام، تطاردنا بإعلانات عن خطوط ساخنة تلح علينا باستخدامها للحصول على ما نشاء من فتاوى دينية ابتغاء مرضاة الله.. بينما شركات المحمول تجمع الملايين فوق الملايين من استغلال الدين لأغراض تجارية صريحة.

وبمناسبة التليفونات المحمولة كان يمكن لنا البدء بإقامة صناعة محلية لها هنا بتكنولوجيا نستخدمها جزئياً بترخيص مدفوع الثمن. وحتى لو بلغت نسبة التصنيع المحلى خمسين بالمائة فقط فإن هذا يظل أفضل لنا من استيراد أجهزة المحمول بالكامل. دول صغيرة حولنا فعلت ذلك وأكثر.. فخلقت فرص عمل لشبابها ووفرت من مواردها وأضافت صناعة جديدة بدل ما نفعله نحن من إغلاق صناعات قائمة.

حقيقة بسيطة فقط أرجو أن نتذكرها. حقيقة أن كل الدول بدأت فقيرة. بعضها فقط أصبح غنيا تاركا الفقر للآخرين. من أصبح غنياً لم يصبح كذلك إلا بالإلتزام أولاً بثقافة وسياسات الإنتاج والإنتاج والإنتاج. ومن الإنتاج يبدأ الإستهلاك. لكننا هنا استسلمنا لمصالح وبرامج خارجية تفرض علينا الإستهلاك والإستهلاك، الذى أصبح فى التطبيق يعنى الإستيراد والإستيراد.. فأصبحنا بدورنا ننحدر من فقر إلى فقر ومن ديون إلى

ديون، وشبابنا يعانى من بطالة فوق بطالة. الآن هم فى دول الشمال ينقلبون على أنفسهم ويستردون للدولة دوراً قالوا سابقاً إنه الحرام ذات نفسه. الآن هم يتغيرون. فهل نتغير نحن؟ وإذا لم يدفعنا هذا الزلزال المالى العالمى إلى مراجعة سياساتنا وتغيير ثقافتنا من الإستهلاك الطارىء إلى الإنتاج المتزايد.. فماذا ننتظر؟ وإذا لم نتغير الآن.. فمتى؟،

■■ دروس متجددة

من بين عشرات التطورات الإقليمية والدولية المتجددة يجد الكاتب نفسه مشدوداً غالباً إلى الحدث الأكثر إلحاحاً. لكن فى أوقات الضيق والظلام والتراجع وافتقاد العزيمة ربما يجد المرء نفسه مشدوداً أكثر الى الحدث الأكثر إلهاماً. حدث ليس فى الأخبار الجارية ولا هو قريب منها وإن كان فى مغزاها. حدث لانخترعه من العدم وإنما تحقق فعلاً ذات يوم وذات جيل وذات رؤية. حدث كان فيه مهزوم ومنتصر ومع ذلك فالمنتصر انفصل عن مغزاه بينما المهزوم هو الذى يستعيده مرة بعد مرة ويقلب أوراقه دون كلل ويستخرج منها العظات لنفسه ولأبنائه وكأن الخلاصة هنا هى أن المهزوم دائماً ذاكرته أكثر حدة من المنتصر.

الحدث هو قيام مصر بتأميم شركة قناة السويس فى ٢٦ /١٩٥٦/٧ والمناسبة هى مرور نصف قرن عليه فى هذا الشهر. حدث توقفت مصر الراهنة نفسها عن تذكره منذ سنوات طويلة مضت ربما لأن سياساتها التالية ابتعدت كثيراً عن روحه ومغزاه. مع ذلك فلم يحدث أن تابعت الإعلام البريطانى مثلاً المقروء والمسموع والمرئى خلال العشرين سنة الأخيرة إلا ووجدت نفسى أمام إعادة دراسة للحدث وتحليل لمكوناته واستخلاص لعبره. أحياناً هى كتب أو وثائق جديدة. أحياناً مذكرات لم يسبق نشرها أو أسرار يجرى كشفها بأثر رجعى، أو حلقات تليفزيونية بعنوان نهاية إمبراطورية باعتبار أن هزيمة التدخل البريطانى المسلح فى بورسعيد مع فرنسا كان هو المسمار الأخير فى نعش الإمبراطورية البريطانية التى لم تكن تغرب عنها الشمس. فى هذه المرة هى كتابات تحليلية بريطانية وآخرها بقلم ريتشارد نورتون تايلور فى جريدة الجارديان البريطانية. بالموازاة نجد فى الجانب المصرى تذبذباً متصاعدا وصل فى بعض الفترات إلى دعوات بائسة لأعادة تمثال

فرديناند دى ليسبس صاحب فكرة قناة السويس إلى قاعدته السابقة فى المدخل الشمالى للقناة ببورسعيد كرد اعتبار له بعد أن أزيل التمثال كنتيجة جانبية للغزو الثلاثى لمصر فى ١٩٥٦. شهدنا أيضاً دعوات أكثر بؤساً وجهلاً وتبجحاً فى مصر تزعم أن تأميم قناة السويس كان عملاً متهوراً من أساسه لأن القناة كانت ستعود إلى مصر تلقائياً مع انتهاء عقد الامتياز فى سنة ١٩٦٩.. بينما التأميم انتهى بهزيمة لمصر لم ينقذها منها سوى تدخل من الولايات المتحدة... الخ. فى المشهد هنا تصفية حسابات سياسية مرة وإصرار على تلويث النقاط المضيئة فى الذاكرة الوطنية مرات. فمن فى قلوبهم مرض من جمال عبدالناصر وعهده أو مجندون للترويج لثقافة الاستسلام التى أصبحت مطلوبة بشدة لترويج ما هو مستجد من مشاريع تبدأ بإسرائيل وتنتهى إلى تصفية ركائز الاقتصاد المصرى وخصخصتها للأجانب بسعر التراب وتنتهى أكثر وأكثر إلى التطلع من جديد لنهب البترول العربى وإعادته إلى بيت الطاعة بمثل ماكان قبل تأميم قناة السويس.

وإعادة تشريحنا لحدث تأميم قناة السويس بمناسبة مرور نصف قرن ليس لتهنئة الذات ولا تمجيداً لشخص ولا حتى احتفاء بذكرى. المسألة كلها هى ألا تذهب تضحيات أجيال سابقة سدى وأن تتراكم الخبرات الوطنية بدل انقطاعها وأن ندرس مرة بعد مرة بعد مرة نواحى الإيجاب والسلب فيما جرى لنخرج فى نهاية المطاف بالمغزى الحقيقى الذى يتشكل منه التاريخ الوطنى.

لم تكن شركة قناة السويس مجرد شركة أجنبية أخرى فى مصر. كانت دولة داخل الدولة. وكانت أيضً جرحٌ غائرٌ داميٌ فى التاريخ المصرى يلخص استئساد أوربا بقوتها الصاعدة علينا فى قاع هزيمتنا. وحينما جرى إرغام مصر على بيع ماتبقى من نصيبها من أسهم شركة قناة السويس إلى بنك بريطانى بسعر التراب ذهب رئيس وزراء بريطانيا بالأسهم إلى الملكة فيكتوريا ليقول لها مبشراً:هذا من أجلك يا سيدتى، بمعنى أنه رصيد استراتيجى واقتصادى غير مسبوق لحساب الإمبراطورية البريطانية فى ذروة هيمنتها على بحار العالم ومحيطاته. بالقناة بدأت بريطانيا.. وباحتلال مصر تطور مشروعها.

من تلك اللحظة فتالياً، وطوال الاحتلال العسكرى البريطانى لمصر لمدة ٧٤ سنة استمر حلم استعادة ملكية مصر لقناة السويس فى صلب الوعى المصرى، وهو حلم يورثه كل جيل إلى الجيل التالى له حتى لايتكيف مع الأمر الواقع. المشكلة كانت بالطبع هى أن

أسباب الضعف ماتزال هى السائدة فى مواجهة أسباب القوة التى جعلت بريطانيا محتلة ومسيطرة. فى الأولويات الوطنية المصرية الجديدة كان طبيعياً أن يكون هدف إخراج الاحتلال البريطانى هو المقدمة. مع ذلك فحينما أعلن جمال عبدالناصر قرار تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦/٧/٢٦ بعد خمسة أسابيع من خروج بريطانيا عسكرياً جاء القرار بمثابة القنبلة إقليمياً ودولياً. وفى لندن كان نورى السعيد رئيس وزراء العراق ضيفاً على مائدة عشاء أنتونى ايدن رئيس وزراء بريطانيا حينما ورد للأخير خبر التأميم، فحرضه نورى السعيد قائلاً: الآن فرصتكم لكى تسحقوه (يقصد عبدالناصر).

لم تكن القصة هى عبدالناصر مع أنه كان عنواناً لها. القصة هى قناة شقها المصريون بأيدى وتضحيات آبائهم وأجدادهم، فأصبحت تالياً دولة داخل الدولة. ولأن الأحلام الكبرى تحتاج إلى عقول كبرى فقد كان أهم سمات قرار التأميم هو دراسته المستفيضة سرا كما تبين فيما بعد. ليس فقط دراسة الموقف القانونى ولكن الأهم دراسة الموقف الإقليمى والدولى وجمع أكبر قدر من المعلومات والتحسب لأكبر قدر من المخاطر. فقبلها بثلاث سنوات فقط كانت بريطانيا وتحت قيادة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قد أسقطت حكومة محمد مصدق فى ايران عقاباً له على تجرؤه بالقيام بتأميم البترول الإيرانى فأصبح عبرة لمن يعتبر حول العالم. فى حينها قناة السويس جزء أساسى من معادلة البترول فوق كونها ركيزة استراتيجية بحد ذاتها.

وبحسابات القوة المجردة لم يكن تأميم قناة السويس ممكناً. فمصر عسكرياً ذات جيش وليد محدود يكاد يتدرب لأول مرة على أسلحة حديثة محدودة.. بينما بريطانيا وإن كانت قواتها غادرت مصر لتوها إلا أنها موجودة عسكرياً فى ليبيا وفى قبرص وفى الأردن والعراق وكل مشيخات الخليج. فإذا أضفنا الى ذلك أن فرنسا هى الشريك الثانى فى حيازة أسهم شركة قناة السويس تصبح خطوط المواجهة قاطعة: دولة صغيرة من دول العالم الثالث فى مواجهة أكبر إمبراطوريتين ذات وجود مسلح فى المنطقة ومصلحة مباشرة فى استمرار تملك قناة السويس.

المعلومات التحضيرية الدقيقة كانت جهداً مصرياً سابقاً ولازماً ومع ذلك فإنها لم تعط حصانة ضد المفاجآت غير المتوقعة. من أكبر تلك المفاجآت مثلاً كان التواطؤ السرى لإسرائيل مع بريطانيا وفرنسا فى مؤامرة لغزو مصر عسكرياً لم تتكشف وثائقها إلا بعد

الغزو بسنوات. المعلومات أيضاً لم تكن بديلاً عن التعبئة الوطنية الجادة. فحينما وقف جمال عبدالناصر يخطب فى الجامع الأزهر أثناء الغزو، وحينما جرى شحن قطارات بكاملها بالأسلحة الخفيفة إلى أهالى بورسعيد ومدن قناة السويس لم يكن المطلوب من المصريين الدفاع عن حاكم أو حزب أو نظام. المهمة كانت:الدفاع عن حق شرعى وحلم عاشه المصريون جميعاً أباً عن جد. فى الإيمان بهذا الحق لم يكن الجهد وطنياً فقط وإنما عربياً ودولياً أيضاً.. لأن ساحة المواجهة يتوازى فيها المحلى والدولى. والغابة الدولية،فى لحظة فارقة نادرة، سمحت برفض أمريكى سوفيتى للغزو.. وإن يكن بدوافع مختلفة.

فى هذه العجالة لابد من التوقف عند درس جوهرى: إن عدالة قضية لاتكفى بحد ذاتها لانتصارها. بامتداد التاريخ هناك العديد من القضايا العادلة التى انتهت إلى الهزيمة وآخرها فى حينها كان قيام محمد مصدق بتأميم البترول الإيرانى وبتصديق من محكمة العدل الدولية التى قررت فى حينها أن تأميم البترول الإيرانى هو حق مشروع بالكامل لحكومة إيران. لكن المشكلة الأساسية التى واجهت إيران وقتها ضمن مشاكل أخرى هو نجاح بريطانيا، مباشرة أو من خلال عملاء لها داخل إيران وخارجها، فى إصابة صناعة البترول الإيرانية بالشلل.. إنتاجا.. وتسويقا.

من هنا كان التحدى لمصر بعد تأميم قناة السويس أكبر منه قبلها. إنه تحدى حسن وكفاءة إدارة الملاحة بقناة السويس ذاتها. لو وقف العالم كله مع مصر بينما فشلت هى فى تشغيل القناة لأصبحت الهزيمة مدوية ونهائية. هذا يعنى أن الأحلام الكبرى قد يقودها رجال دول.. لكن الذى يضمن نجاحها هم رجال الخبرة.

ومن اللحظة الأولى لتأميم قناة السويس كان الفريق المختار والمكلف سياسيا بالإشراف على القناة هو بقيادة المهندس محمود يونس. لكن الأخير كان مفوضا فى موقعه بسلطات رئيس الجمهورية كاملة فى اختيار وتشغيل العناصر الأكثر كفاءة هندسيا وملاحيا.. وسواء كانوا مصريين أو أجانب. فقط حينما انسحب المرشدون البريطانيون والفرنسيون فجأة بربطة معلم كان الجهد والعلاقات السياسية ما سمح بالمجىء على وجه السرعة بمرشدين من اليونان ويوغوسلافيا ودول أخرى.

ثم درس آخر: فمع أن العنوان المعلن لتأميم قناة السويس كان استخدام إيراداتها لتمويل بناء مشروع السد العالى فى نهر النيل بأسوان جنوب مصر.. إلا أن هيئة قناة

السويس أخذت الأولوية المطلقة فى استخدام إيرادالقناة من أجل توسيع القناة وتحسين الملاحة بها. وبرغم الإيرادات الضخمة المتزايدة للقناة سنة بعد أخرى (فى السنة الأخيرة مثلا بلغت الإيرادات أربعة مليارات من الدولارات) فلم تسجل حالة فساد أو انحراف واحدة بامتداد خمسين سنة، ودرس ثالث: أهمية معرفة أين تنتهى السياسة وأين تبدأ الإدارة. فبكل تلك الأهمية والحيوية لقناة السويس فى الاقتصاد المصرى كان العنوان الصارم المقرر سياسيا من البداية هو كفاءة الإدارة. لم يكن مسموحا لوزير ولا غفير، ولا حتى للحكومة كلها، أن تتدخل فى تعيين أو ترقية أى شخص أو التوصية على قريب أو بعيد. فلكى يكون الحساب عسيرا وصارما يجب أن تكون السلطة كاملة. الإدارة هى الإدارة والخبرة هى الخبرة والمشروعات الكبرى لا تديرها الأغانى ولا الخطب الحماسية أو التوجهات الحزبية. تديرها العقول خبيرة ذات الكفاءة الكاملة بالمعيار المطلق. هذا بحد ذاته بالغ الأهمية فى عالمنا الثالث وربما فصل الخطاب لأن الفشل يبدأ من تغليب الولاء على الكفاءة. ثم درس رابع: إن الذين كانوا بحق وليس عن ادعاء جزءا محوريا من ذلك الأداء الوطنى الرفيع، وبمعايير دولية، اتسموا بالتواضع ونكران الذات إلى درجة أن أياً منهم لم يكتب مذكراته مثلا. هذا يذكرنى بجورج مارشال وزير الدفاع الأمريكى وتاليا وزير للخارجية فى عهد ترومان الذى رفض كتابة مذكراته اعتقادا منه بأن هذا بمثابة تربح من المنصب العام. العالم تغير لعلو قيمة الحاجة إلى استلهام نقاط الضوء وتراكم الخبرات من جيل إلى جيل. مع ذلك فحتى الآن،وفى كل مدن قناة السويس، لن تجد شارعا أو ميدانا يحمل اسم محمود يونس أو أى من رفاقه. وبالطبع لن نجد تمثالا لأى شخص.. ربما لأن إقامة التماثيل هذه مسألة استمرت مستهجنة بالكامل فى الثقافة السياسية المصرية. بنجاح مصر فى تأميم قناة السويس كان الدرس مدويا بامتداد العالم الثالث كله.. من آسيا إلى إفريقيا إلى أمريكا اللاتينية. وبغير هذا النجاح لم يكن ممكنا التفكير تاليا فى استعادة البترول العربى إلى أصحابه بعد طول نهب وسرقة. ربما من أجل هذا وغيره يتعلم المهزومون من هزيمتهم.. بينما المنتصرون هم الذين أصبحوا ضعاف الذاكرة، و... ما أعادنى إلى قناة السويس فى هذه المرة لم تكن جريدة مصرية. كانت جريدة بريطانية جريدة الحياة

■■ حينما تتحدث الأمبراطوريات

فى خطاب الرئيس جورج بوش الابن عن الرؤيا الامريكية الجديدة فى الشرق الأوسط وفى العالم، كانت كوندوليزا رايس مستشارة بوش للأمن القومى فى مقدمة من دقوا الطبول للخطاب الوشيك، باعتباره برنامج العمل الأمريكى القادم وأهميته الحاسمة فى تحديد معالم الطريق – طريق أمريكا إلى الشرق الأوسط أو الشرق الأوسط إلى أمريكا.. لا يهم.

من قبيل الرياضة الذهنية – بينى وبين نفسى – تصورت أن الرئيس بوش لابد أنه.. ضمن استعداده للخطاب الوشيك.. سيقرأ أو يعيد قراءة بعض الكتب البارزة فى شموليتها وتحليلها لمسار الإمبراطوريات عبر التاريخ، يقرأ مثلا دراسة أرنولد توينبى عن العالم والغرب . أو كتاب بول كينيدى عن ارتفاع وسقوط القوى العظمى. أو كتاب امبراطورية: ارتفاع وزوال النظام العالمى البريطانى ودروس قوة كونية . أو كتاب أندرو باسيفيتش بعنوان إمبراطورية أمريكية: حقائق ونتائج دبلوماسية الولايات المتحدة .. و.. و.. لكننى سرعان ما طردت الفكرة من ذهنى على ضوء حقيقة أن وقت الرئيس الأمريكى ضيق بما قد لا يسمح له بقراءة كتب من هذا المستوى.. فضلا عن أن الرئيس جورج بوش نفسه سبق له أن أعلن بكل وضوح أنه لا يقرأ الصحف – مجرد الصحف – مكتفيا بموجز المعلومات الذى يعده له مساعدوه يوميا. ثم إن الرئيس بوش وكل أركان إدارته ينكرون أصلا مجرد التفكير فى امبراطورية أمريكية. إنهم فقط يمثلون الأخيار فى مواجهتهم للأشـرار باتساع العالم.. مهتدين فى ذلك برسالة السيد المسيح.

ربما نعود إلى السيد المسيح لاحقا. لكن من حيث وجود أمبراطورية أمريكية أو عدم وجودها.. يكفى أن نتذكر كلمات أرثر شليزنجر – الذى هو مؤرخ أمريكى بارز ومحترم – فى قوله إنه فى أقل القليل فأن الإمبراطورية موجودة فعلا بشكل غير رسمى.. فهى قوة عظمى منفردة لديها ممتلكات أمبراطورية وقوات مسلحة وأساطيل وطائرات وقواعد حربية ونظم عميلة.. وكلها منتشرة حول العالم . يضاف إلى ذلك أيضا شيوع قناعة فـــى الولايات المتحدة بوجود تقليد أمريكى أساسه الحرية الفردية والحكومة التمثيلية واقتصاد السوق.. وأن كل هذا يشكل معا نموذجا لكل الإنسانية بما يسمح للزعماء

الأمريكيين بتقمص دور الأوصياء على الجنس البشرى فى مسيرته نحو الكمال. صحيح أن إدارة جورج بوش أصبحت أكثر الإدارات الأمريكية إنقاصا من الحريات الفردية وانغلاقا أمام الإعلام الصحيح وحصارا للمعارضة السياسية.. لكن هذا كله يتم تبريره على أساس أن الإدارة تعرف مصالح الشعب الأمريكى بأفضل من مؤسساته المنتخبة خصوصا والرئيس جورج بوش نفسه وصل إلى البيت الأبيض بحكم قضائى.. رغم حقيقة أن منافسه حصل فى التصويت الشعبى على أصوات تفوق ما حصل عليه جورج بوش بنصف مليون صوت.

بالعودة إلى رياضتى الذهنية استعدادا للاستماع باهتمام إلى خطاب الرئيس جورج بوش فهيأت نفسى مقدما إلى عدم الشعور بالمفاجأة من وجود إرهاصات ترجح أن يجىء الخطاب رنانا فى الحديث عن رسالة أمريكية عظمى بنشر أو فرض الديموقراطية على منطقة الشرق الأوسط بأسرها خصوصا بعد احتلال أمريكا للعراق.. وبتلك الصفة أصبحت الأمبراطورية مسموعة داخل بيوتنا ومرئية عبر شاشاتنا. وفى الطريق إلى تلك الحقيقة الجغرافية السياسية الاستراتيجية الجديدة لم تعبأ الولايات المتحدة بالتشاور الجماعى داخل مجلس الأمن الدولى ولا حتى بالطابع الديموقراطى للجمعية العامة للأمم المتحدة ذاتها.. وكلاهما – مجلس الأمن والجمعية العامة – كانا أصلا فكرة أمريكية بشرت بها الولايات المتحدة العالم فى سنة ١٩٤٥.

بالعودة مرة أخرى إلى الرياضة الذهنية اخترت أن أقرأ بالأصالة عن نفسى وبالوكالة عن جورج بوش كتابا حديثا صدر فى أمريكا مؤخرا من ٢٥٨ صفحة لستيفن كينزر بعنوان كل رجال الشاه: انقلاب أمريكى وجذور إرهاب الشرق الأوسط . أولا – لأن الكتاب مهم بحد ذاته. ثانيا- لأنه عن إيران التى هى منذ ٢٤ سنة على الأقل فى مرمى النيران الأمريكية. ثالثا – لأن الكتاب يصدر فى مناسبة مرور خمسين سنة على الأنقلاب الذى دبرته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لإعادة شاه إيران إلى عرشه فى سنة ١٩٥٣.

رابعا لأن الانقلاب جرى بالتعاون بين قوة أمبراطورية متراجعة هى بريطانيا العظمى.. وقوة عالمية بازغة هى الولايات المتحدة.. وهما الشريكان فى حينها للاستيلاء على إيران.. والشريكان مؤخرا فى احتلال العراق. مع ملاحظة أن معادلة الشراكة ذاتها تغيرت. فبريطانيا أخذت أمريكا فى ذيلها إلى إيران فى سنة ١٩٥٣.. بينما أمريكا هى

التى أخذت بريطانيا فى ذيلها إلى العراق فى ٢٠٠٣، وفى كلتا المرتين كانت الشعارات المرفوعة دعائيا شيئا.. بينما المصالح الحقيقية غير المعلنة شيئا آخر مختلفاً. قصة الأمبراطورية البريطانية مع البترول قديمة. ونقطة التحول فيها كانت الحرب العالمية الأولى، حينما تحول الأسطول البريطانى من الفحم إلى البترول ولم يعد البترول مجرد سلعة مهمة.. ولكنه أصبح سلعة مهمة واستراتيجية أيضا.. وهو ما جعل بريطانيا العظمى فى حينها تقوم بتأميم حصة القطاع الخاص البريطانى فى شركة البترول البريطانية العاملة فى إيران.. رغم أن بريطانيا وقتها هى زعيمة الدعوة الى الاقتصاد الحر والقطاع الخاص والليبرالية واقتصاد السوق.. الـخ.

مع مطلع سنوات الخمسينات أصبحت شركة البترول الأنجلو / إيرانية مملوكة للحكومة البريطانية مباشرة بنسبة واحد وخمسين بالمائة وأرباحها تذهب مباشرة إلى الخزينة البريطانية. هذا بحد ذاته جعل ايرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا يقول صراحة إنه بغير بترول إيران: لن يكون لدينا أمل فى تحقيق مستوى الحياة الذى نستهدفه فى بريطانيا العظمــى .

فقط أصبح يوجد متغير جديد. فبالأنتخابات الشعبية المشهود لها فى حينها بالنزاهة – أصبح محمد مصدق رئيسا للوزراء فى ايران وصدق الشاه على هذا التعيين إحساسا بضعفه الشديد ضعف الشاه وليس مصدق. ومن موقعه هذا، وبالمساندة الشعبية الكاسحة له، قرر محمد مصدق تأميم شركة البترول الأنجلو / إيرانية بعد أن اعتبر أن مايجرى منذ عقود هو سرقة صريحة لبترول إيران.. وبسعر أقل من التراب. فى المقابل تصرفت بريطانيا على أساس أنها أقامت صناعة البترول فى إيران من العدم.. وبالتالى فإن بترول إيران هو حق ناجز ومستمر ودائم لها.. إن لم يكن بحكم الواقع فعلى الأقل لأنها أمبراطورية عالمية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها.. وبالتالى فمن حقها أن تأمـر فتطــاع.

محمد مصدق وحكومته فى إيران لم يطيعا والشعب الإيرانى كله اعتبر أنه يسترد حقا مسروقا منه.. كما أن محكمة العدل الدولية أقرت أن من حق إيران بالمطلق تأميم النصيب البريطانى فى شركة البترول مع التعويض. بريطانيا رفضت وفرضت حصارا كاملا ضد صادرات إيران من البترول فأصيب اقتصاد إيران بالشلل.. وكذلك اقتصاد بريطانيـــا. لحظتها دخلت أمريكا على الخط... وبرغبة مشتركة من بريطانيا وإيران

وان تكون الدوافع مختلفة تماما. بريطانيا اكتشفت أنها فى حاجة إلى أمريكا. فبرغم شبكة عملائها المحليين داخل إيران وولاء الشاه المطلق لها.. إلا أنها عجزت عن خلع محمد مصدق من السلطة. أما مصدق نفسه فقد توسم فى أمريكا القوة البازغة التى خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة ونصبت نفسها قائدا للعالم الحر وتبشر العالم كله بعصر جديد ستكون فيه نصيرة للحرية والمساواة والشعوب الضعيفـة.

كان محمد مصدق صادقا فعلا فى سعيه إلى كسب أمريكا، فهو نفسه غربى التعليم علمانى التفكير ليبرالى التوجـه ديموقراطى العقيدة، وكلها أوراق اعتماد تدعو لها أمريكا الجديدة التى أعلنت نفسها زعيمة لما أسمته العالم الحر .. بما جعل مجلة تايم الأمريكية تضع صورة محمد مصدق على غلافها فى سنة ١٩٥١ باعتباره رجل العام تكريما واحتفالا. السفير الأمريكى فى طهران أرسل إلى حكومته فى واشنطون برقية سرية يقول فيها: البريطانيون يبدون مصممون على ممارسة التكتيكات القديمة لإزاحة الحكومة الإيرانية من السلطة بالنظر للمصاعب التى يواجهونها معها بينما يحظى مصدق بدعم ومساندة ٩٨ ٪ من الشعب الإيرانى على الأقل ومن الغباء المطلق إزاحته من السلطـة . على المحك إذن خياران: العدل والحق والليبرالية والديموقراطية فى كفة.. والبترول فى كفة أخـرى.

بعد تفاصيل وتفاهمات ومساومات على جانبى الأطلنطى وافقت أمريكا فى عهد هارى ترومان على التدخل، وهـى موافقة تأكدت مع مجىء دوايت ايزنهاور خلفا له فى البيت الأبيض ومعه الأخوان جون فوستر دالاس وزيرا للخارجية وآلان دالاس مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. الآن فى سنة ١٩٥٣ ستقوم أمريكا بعمل ماعجزت عنه بريطانيا بمفردها من الأساس: إزاحة مصدق وحكومته من السلطة من خلال انقلاب تنظمه المخابرات الأمريكية. الرئيس الأمريكى ايزنهاور رفض الاطلاع على تلك الخطة السرية من المخابرات. لكن فيما بعد تبين أنه كتب فى يومياته الخاصة عن وقائع الانقلاب أنها: بدت بدرجة كبيرة مثل رواية رخيصة عديمة القيمة الأدبية بأكثر مما هى حقائق تاريخيـة . لكنها.. كانت حقائق تاريخية. فمحمد مصدق الرئيس المنتخب للحكومة فى إيران، والذى قارنته جريدة نيويورك تايمز الأمريكية كمحرر لشعبه بتوماس جيفرسون وتوماس بن.. استمر يعول الكثير على أمريكا.. غير مدرك للتحول الجذرى الذى جرى

بوصول الأخوين جون وآلان دالاس إلى قلب السلطة فى واشنطون ليمثلا وقتها المحافظين الجدد المهووسين بخطر عالمى اسمه الشيوعية. الفكرة الرائجة الجديدة هى: صحيح ان محمد مصدق ليس شيوعيا.. لكن من يدرينا بمن يخلفه؟

الوقائع التاريخية بعدها معروفة. فبالرشوة والعمل السرى أمكن للمخابرات الأمريكية خلق فوضى فى شوارع طهران. وبعملية محكمة جرت إزاحته وحكومته من السلطة وإعادة شاه إيران الهارب إلى إيطاليا خوفا وذعرا.. فأصبح من وقتها بالغ الإمتنان والطواعية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية وخادما لها فيما يستجد.

لربع قرن بعدها أصبحت المخابرات الأمريكية هى السلطة الحقيقية الحاكمة فى إيران، وفى ذيلها المخابرات الإسرائيلية. وأصبح شاه إيران هو رجل أمريكا فى المنطقة خصوصا ضد عرب الخليج و بالطبع أصبحت إيران / الشاه حليفا أساسيا لإسرائيل. المؤلف هنا يذكر قارئه الأمريكى بأن الإنقلاب فى إيران كان أول مرة تقوم فيها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بإسقاط نظام سياسى.. وهو ما شجعها سريعا لتكرار نفس الشىء فى جواتيمالا.. حيث: أدت المشاهد المتتابعة للأحداث إلى حرب أهلية ومئات الآلاف من القتلى... وبعدها خططت لإسقاط أو قتل زعماء أجانب.. من كوبا وشيلى إلى الكونجو وفيتنام. ان كل واحدة من تلك الأحداث أصبح لها تأثيرات عميقة مايزال يتأكد صداها إلى اليوم. لقد أدى هذا فى نهاية المطاف إلى قدر ضخم من التعاسة والشقاء.. وجعل مناطق كاملة من العالم تشعر بالمرارة العميقة ضد الولايات المتحدة .

المقارنات هنا مذهلة بين المحافظين الجدد فى طبعتهم المبكرة سنة ١٩٥٣ وطبعتهم المستجدة فى إدارة جورج بوش الابن. الحديث متكرر عن إسقاط النظم بقوة العمل السرى أو بقوة الطائرات ومشاة البحرية. الجهل المطبق بطموحات وثقافات شعوب أخرى. فى الحالة الإيرانية كان محمد مصدق علمانيا وليبراليا وديموقراطيا ومتطلعا إلى أمريكا مصدقا لما ترفعه من شعارات فى الساحة الدولية. كل ما كان يريده هو استرداد حق شعب إيران فى بترول إيران. وبالتآمر عليه وعلى حكومته ربما اشترت أمريكا لنفسها وقتا إضافيا عبر نظام عميل. لكن إيران فى ثورتها الجديدة الكاسحة سنة ١٩٧٩ أصبحت تريد خلع هذا النظام نفسه مع كل تحالفه الأمريكى الإسرائيلى من الجذور. وبقيادة رجال دين فى هذه المرة. هناك أيضا الثقة المفرطة فيما تستطيعه القوة.. صريحة أو

مستترة. وهناك كذلك تغليف هذا كله بشعارات رنانة عن الحرية والديموقراطية.. بمثل ما فعل جورج بوش فى خطابه الأخير (٦/ ١١ /٢٠٠٣)

فى خطابه الأخير هذا دعوة تبشيرية كبرى عنوانها: تصميم أمريكا على نشر الديموقراطية فى الشرق الأوسط. كلمات جميلة بحد ذاتها ولازمة بشدة للشعراء. فقط عندنا هنا مشكلتان. أولا إن السياسات الدولية ليست صناعة الشعراء. ثانيا من يرتدى قميص الشاعر هنا هو تحديدا رئيس أمريكى محدد احتل لتوه بلدا عربيا مهما.. ويرى أنه شخصيا رسول السماء لهداية البشريـــة.

هذا يذكرنى برئيس أمريكى آخر اسمه ويليام ماكينلى.. الذى أمر بغزو الفيلبين فى سنة ١٨٩٨. وحتى لا يتهمه آخرون بالسلوك الأمبراطورى فى احتلال أراضى الدول الأخـرى.. وقف ليخطب فى شعبه علنا ويقول: نحن لم نذهب الى الفيلبين بهدف احتلالها. كل المسألة أن السيد المسيح زارنى فى المنام وطلب منى أن نتصرف كأمريكيين ونذهب إلى الفيلبين لكى نجعل شعبها يتمتع بالحضـارة .

حسنا. كل ما تمتع به شعب الفيلبين بعدها هو ٤٨ سنة من الاحتـلال الأمريكى المباشـر..... مع أن الفيلبين لم يكن لديها بترول.

■■ مشوار لكل جيل

كنا فى أكتوبر، درجة الحرارة أو البرودة إذا شئت هى ١٨، المطر يتساقط فى رزاز متقطع شدة وخفة، لكن الشارع مزدحم كما هى العادة ليلا ونهارا، هذا شارع برودواى، شارع المسارح والملاهى ودور السينما والمتاجر وجريدة النيويورك تايمز.

كنا فى أكتوبر، هذه هى نيويورك، ونحن فى سنة ١٩٦٧، لقد دخلت أحد المحلات التجارية حاملا مجموعة من الصحف المصرية جئت بها لتوى من مقر الوفد المصرى لدى الأمم المتحدة.. إن دولاراتى قليلة وهدفى محدد: أن أشترى راديو صغيرا أتابع به الأخبار.

فجأة ترك صاحب المحال نماذج أجهزة الراديو أمامى متطلعا إلى مجموعة الصحف المصرية فى يدى، وسألنى: هل أنت مصرى؟

إنه حتى لم ينتظر الإجابة، فقد أشار بإصبعه إلى خريطة فى الصفحة الأولى قائلا فى شماتة بالغة، انظر هنا.. لقد فعلها فيكم موشى ديان.. وترككم محتارين فى تفسيرها!

وانتظر الرجل برهة وهو يتفحص وجهى بعينيه، لقد كان يتحدث عن غارة قامت بها طائرات هليكوبتر إسرائيلية لتوها فى نجع حمادى بصعيد مصر فى محاولة لقطع خطوط الكهرباء القادمة من السد العالى إلى القاهرة، وكذلك لنسف قناطر نجع حمادى النيلية، وفى حينها نجحت الغارة جزئيا فى إحد جوانبها وفشلت فى جوانبها الأخرى.

فجأة عدلت عن شراء الراديو، لكن صاحب المحال هذا لاحقنى فى انصرافى بكلماته، الآن راحت الشماتة وبدأ الغيظ، شوف يا مصرى.. إذا أغرقتم إيلات فلابد أن تغرق أراضيكم ونطربقها على دماغكم. فإما نحن وإما انتم، فى هذه المنطقة.

لم أعرف ماذا يقصد هذا البائع بكلمة نحن . هل هو يتكلم كيهودى امريكى، كصهيونى، كإسرائيلى مزدوج الجنسية. ككل هذا معا؟ لكن الذى أعرفه أن المنطقة التى يشير إليها هى الشرق الأوسط.. و أنتم فى هذه المنطقة هم المصريون.. وإيلات التى أثارت غيظه إلى هذا الحد هى مدمرة إسرائيلية أغرقتها مصر قبل عشرة أيام فقط فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧.

فى ذلك اليوم كان محمود رياض وزير خارجية مصر مجتمعا بآرثر جولد بيرج رئيس الوفد الأمريكى لدى الأمم المتحدة، إن المشاورات الجانبية ليلا ونهارا داخل وخارج مقر الأمم المتحدة فى نيويورك.. وتلك هى المهمة التى جئت إلى نيويورك لأتابعها صحفيا. وكان كل المراقبين هنا فى نيويورك يعرفون أن العقدة كلها هنا، مصر وأمريكا، وبلغة الأمم المتحدة تصبح الترجمة هى: محمود رياض وجولد بيرج، ولم يكن جولد بيرج مجرد يهودى صهيونى أمريكى شديد التعصب لإسرائيل، ولكنه كان صديقا شخصيا للرئيس الأمريكى حينئذ ليندون جونسون، والنكتة الشائعة عنه داخل مقر الأمم المتحدة هو انه يعمل محاميا لإسرائيل ستة أيام فى الأسبوع ثم يتذكر إنه ممثل لأمريكا فى اليوم السابع.

وفى ذلك اليوم لم أعرف من مضمون اجتماع محمود رياض بجولد بيرج سوى شئ واحد: إن جولد بيرج يريد قرارا من مجلس الأمن يحقق لإسرائيل مكاسب إقليمية من خلال نتائج حرب يونيو.. ومحمود رياض بهدوئه المعتاد يقول له: هذا لن يحدث.. إسرائيل هزمتنا فى جولة كبرى.. ليكن.. لكنها تظل مجرد جولة واحدة فى حرب مستمرة. إننى

أكرر لك: لن نسمح لإسرائيل بمكاسب إقليمية، إذا صدقتنى سيبدأ بيننا الكلام الجاد، أما إذا لم تصدقنى فالزمن بيننا. وأغلب الظن أن جولد بيرج لحظتها لم يصدق محمود رياض.

بعد ساعات قليلة بدأت جميع نشرات الأخبار فى محطات الراديو والتليفزيون بالخبر القنبلة: مصر قامت بإغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات ومعها مائتان وخمسون من أفراد طاقمها بصواريخ تستخدم لأول مرة فى المعارك البحرية، والتعليق المشترك هو: إن هذا يساوى، لو راعينا النسبة السكانية، أن تفقد الولايات المتحدة الأمريكية فى معركة واحدة تسعة عشر ألفا من ضباط وبحارة أسطولها.

وفجأة، فى قاعة مجلس الأمن الدولى، وفى قاعة الوفود بالمبنى الرئيسى للأمم المتحدة، وفى الكافيتريا التى نتناول فيها وجباتنا السريعة، أصبح إغراق إيلات هو حديث الساعة. مصر تغرق مدمرة إسرائيلية؟ مصر المهزومة لتوها قبل أربعة أشهر.. المنهار جيشها.. والمحتلة سيناؤها؟ و٢٥٠ ضابطا وبحارا إسرائيليا يضيعون فى غمضة عين؟

ياإلهى! هكذا قالها لنا عضو فى الوفد الأمريكى بالأمم المتحدة بينما كنا نتناول وجبة سريعة فى كافيتريا الأمم المتحدة مع السفير (المرحوم) محمد عوض القونى. ثم أضاف قائلا للسفير القونى: سعادة السفير.. لو سمعت يوما أن جولد بيرج استقال من منصبه، أو انه مات بالسكتة القلبية، فسيكون هذا بسبب وزيركم (محمود) رياض.. وبصراحة هذه أكبر خدمة لنا.

فى نفس اللحظة جاء مندوب الهند، ثم مندوب نيجيريا، وكل منهما يحمل صينية غدائه بيده اليسرى بينما يتقدم لمصافحة السفير القونى بيده اليمنى قائلا: مبروك.. إغراق إيلات. وخلال الساعة التى قضيناها فى الكافيتريا كانت أصوات التهنئة تأتى إلى القونى متتابعة وجهورية ومعظمها من ممثلى أفريقيا وآسيا وكل دولة فى هذا العالم تحتاج إلى القوة لتحمى بها حقوقها.

كنا فى أكتوبر، لكن المكان هذه المرة هو العاصمة الأمريكية واشنطون، قد جئت إلى هنا مع حسن عباس زكى وزير الاقتصاد حينئذ لمتابعة الاجتماع السنوى المشترك لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى قبل أن أذهب إلى نيويورك لمتابعة الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة، وخرجنا إلى الشارع نتمشى حسن عباس زكى وحامد

السايح وعلى نجم وفى كل مكتبة دخلناها كان يتصدر الكتب المعروضة سيل من الكتب الجديدة عن حرب يونيو. لم أكن أشتريها بحكم الرغبة ولكن بحكم الضرورة.. وحينما أتصفحها فى الليل اكتشف أنها جميعا تعزف لحنا واحدا: إسرائيل هى القوة الإقليمية العظمى الجديدة فى الشرق الأوسط.. والعرب هم رعاياها العاجزون الذين لم تقم لهم قائمة قبل خمسين سنة.. حسنا.. بعض الكتب كان كريما بالنسبة لنا، فاختصر المدة إلى عشرين سنة.

أكتوبر، دائما أكتوبر، فى هذه المرة أصبح سفيرنا فى الأمم المتحدة هو الدكتور محمد حسن الزيات، إنه مثل القونى من قبله كان شعلة من الحركة واليقظة والاتصالات فى تلك الفترة كانت إسرائيل تشن حملة دعائية كبرى بحجة أن مصر انتهكت شروط وقف إطلاق النار القائم منذ ٧ أغسطس ١٩٧٠ وحركت شبكتها الصاروخية فى اتجاه القناة، ولأننا فى أكتوبر وهذه هى الدورة السنوية الجديدة للجمعية العامة فقد تركزت المعركة الدبلوماسية هنا: هل يقف المجتمع الدولى مع إسرائيل فى اتهاماتها.. أو يساند مصر؟

وفى الممر الطويل بالدور الثانى من مبنى الأمم المتحدة قال لى الدكتور الزيات: تعال نشرب قهوة.. وبمجرد أن جلسنا فى محل القهوة بنفس الطابق نهض شخص من كرسيه القريب وتقدم من الدكتور الزيات قائلا: أنا مدين لك باعتذار يا دكتور.. وأنت مدين لى بعلاوة.

خلال دقائق اتضحت القصة، هذا صحفى أمريكى فى جريدة النيويورك تايمز أوفدته جريدته إلى مصر فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ حينئذ كان الدكتور الزيات رئيسا لهيئة الاستعلامات ومتحدثا رسميا، وفى إحدى المرات قال هذا الصحفى للدكتور الزيات بلهجة يختلط فيها الجد مع الفكاهة: لقد وعدتنى جريدتى بأكبر علاوة فى تاريخ الصحافة الأمريكية لو أصبحت أول من يحصل لها على خبر انهيار مصر من الداخل واستسلامها لإسرائيل.. فأرجوك لا تحرمنى من هذه الفرصة.. واجعلنى أول من يعرف!

والآن بعد ثلاث سنوات ها هو الصحفى نفسه يتقابل مع الدكتور الزيات بالصدفة لكى يخبره بأنه لن يحصل على العلاوة الموعودة مطلقا. فحينما تقيم مصر أكبر حائط صاروخى فى العالم، وبمثل هذا الإصرار الفولاذى، تصبح العلاوة من حق من ينفرد بخبر الهزيمة الإسرائيلية فى سيناء وليس العكس.

كنا فى أكتوبر لكننى أقضيه بالقاهرة هذه المرة مع أصدقاء أحبهم.. كان عبدالحليم حافظ وعادل إمام ونجلاء فتحى وبليغ حمدى ومحمد الموجى والمخرج الإذاعى الراحل محمد علوان شركاء معى فى تقديم مسلسل درامى للإذاعة عن قصة كتبتها بعنوان أرجوك لا تفهمنى بسرعة .. هذا أكتوبر ١٩٧٣.. وحينما تعمل مع هؤلاء الأصدقاء يبدو الأمر كما لو تعمل مع مجموعة من الدول المستقلة.. العظمى.. كأن العالم لا تكفيه أمريكا واحدة.. وروسيا واحدة.

ثم انه أيضا، رمضان. وأيضا، ١٥ إذاعة عربية لابد من إرسال الحلقات المسجلة إليها أولا بأول. وأيضا، السكر والأرز والزيت بالبطاقة. وأيضا، مائدة الإفطار يوميا عند عبدالحليم حافظ والسحور عنده أو عندى. لكن بمجرد أن بدأت الحرب فى العاشر من رمضان نفذ السكر من عندى فتحول كل شئ إلى بيت عبدالحليم حافظ. بعد قليل نفد السكر من عنده فبدأنا نقترض ممن تفيض عليهم بطاقاتهم التموينية. بعدما أن أصبح الشاى والقهوة من غير سكر، إنه شيئا مفيد للصحة على أى حال.

لكن الأكثر أهمية من انضباط الناس جميعا وتلقائيا كان شئ آخر، لقد ذاب الناس فى بعضهم البعض. ذاب الاغتراب والتوتر والانفعال المكبوت. لقد عادت الألفة والمودة والتلاحم. عادت الروح. إنها روح أكتوبر، بدءا من أول شهيد فى حرب الاستنزاف حتى هنا، فكل شهيد من هؤلاء شريك فى هذا اليوم حينما بدأ العبور إلى سيناء.

لقد أصبحت الراديوهات الصغيرة معنا حيثما نذهب حتى لا يفوتنا خبر أو بيان أو تعليق. إن كل البرامج الإذاعية تم إيقافها بالطبع ومن بينها مسلسل أرجوك لا تفهمنى بسرعة .. لكننا كنا مضطرين للاستمرار فى العمل حتى تصل الحلقات فى مواعيدها إلى إذاعات العالم العربى. مع ذلك فان أكتوبر فى داخلنا فى كل لحظة. وحينما لا نستطيع أن نشغل الراديو فى استوديوهات الإذاعة نذهب بالتتابع إلى قسم الأخبار أو نفتش عن الأخبار بالتليفون. أو من وكالات الأنباء.

وقال عادل إمام لعبدالحليم حافظ: إننى الآن أحسدك. فأنت تغنى وتعبر عن إحساسك فورا بالأغنية ليصل إلى المقاتلين فى الجبهة. إننى الآن أريد أن أشارك.. أتطوع.. أقاتل.. أفعل أى شىء لأنها حربنا جميعا.

ولم يكن عادل إمام يتحدث من فراغ. ففى كل ليلة يدور الحديث عن أغنية جديدة.

عن انفعال. عن كلمات. عن نغمة تجمع بين السهولة والصعوبة بمثل ما يحارب مقاتلونا فى سيناء. إن بليغ حمدى هو الأكثر نشاطا. لقد قدم أعذب الألحان الوطنية لمصر بعد الهزيمة وهو الآن يريد أن يقدم أصدق الألحان لها فى لحظة النصر. محمد الموجى نفس الشئ. حتى كمال الطويل.. فاجأنى ذات ليلة بقوله: سأجلس إلى البيانو.. وألحن.. عندك كلمات مناسبة للمقاتلين؟.

أننى لم أصدق. فكمال الطويل كان قد اختار الاحتجاب عن التلحين منذ سنوات. وعبدالحليم حافظ يئس تماما من كثرة الإلحاح عليه بالعودة. الآن كمال الطويل هو الذى يريد. هو الذى يطلب. هو الذى يرجو عبدالحليم حافظ ويرجونى البحث له عن كلمات الآن.. وفورا.. وفى تلك الليلة سهرنا معا عبدالحليم حافظ وأنا وفى بيتينا بالتناوب لكى نتصفح كل دواوين الشعر عندنا. لكن أكتوبر غير موجود فى الدواوين.. أكتوبر هذه. التى يصنعها المقاتل المصرى فى سيناء والمقاتل السورى فى الجولان. لم يسجلها ديوان ولا استعد لها شاعر.

فجأة جلس كمال الطويل إلى البيانو. مدندنا بكلمات يهمس بها لنفسه. وصوته يعلو قليلا قليلا معبرا عن إحساسه الداخلى. وإحساسه هو.. خلى السلاح صاحى.

كان هذا فى ٢٢ أكتوبر، وفى اليوم التالى مباشرة سجل عبدالحليم حافظ الأغنية. وهى لا تزيد عن ثلاث دقائق.. وهؤلاء الموسيقيون الذين يجيئون فى الظروف العادية بعربات النجدة. جاء بهم أحمد فؤاد حسن فى غمضة عين، والشريط المسجل يتم نقله فورا إلى خمسة أشرطة.. عشرة أشرطة.. عشرين شريطا.. خلى السلاح صاحى.

وجاء نوفمبر. ثم ديسمبر. لكنه دائما أكتوبر. والرئيس الأمريكى السابق ريتشارد نيكسون يسجل ذكرياته تليفزيونيا لأول مرة مع المذيع البريطانى ديفيد فروست فى ست حلقات من بينها حلقة كاملة ٤٥ دقيقة عن أكتوبر. لقد روجت إسرائيل فى العالم كله طوال أربع سنوات. فنحن فى ١٩٧٧ انطباعا بأنها خرجت منتصرة من حرب أكتوبر، بل وأنها كانت تستطيع ذبح الجيش المصرى الثالث فى الأسبوع الأخير من الحرب!.

وكما هو متوقع جاء سؤال المذيع على هذا النحو: مستر نيكسون.. كيف أقنعت إسرائيل بالامتثال لقرار وقف إطلاق النار؟

ورد نيكسون: دعنى أرد عليك بصراحة. إسرائيل لم تكن تريد وقف الحرب. كل ما

كانت تريده منا هو إمدادها بالمزيد من الأسلحة على أساس أن هذا يضمن لها القضاء تماما على الجيش (المصرى) الثالث خلال يومين أو ثلاثة. لقد أعطيناها المزيد والمزيد من الأسلحة فى أكبر جسر جوى نقيمه منذ الحرب العالمية الثانية، ثم صدر قرار مجلس الأمن بوقف الحرب، وحينما لم تمتثل إسرائيل أوشكت المواجهة النووية أن تبدأ بيننا وبين الاتحاد السوفيتى. وصرخ حلفاؤنا فى أوروبا الغربية ضدنا. وهنا اتصلت بجولد مائير رئيسة الوزراء.. فبادرتنى بطلب المزيد من الأسلحة مكررة من جديد أن المسألة كلها، يومين ثلاثة، أخرى. وقلت لها إن (وزير الخارجية) كيسنجر ألح علىّ بهذا الطلب عشرات المرات. الآن نحن فى الأسبوع الثالث من الحرب، وأنت ماتزالين تطلبين منا يومين.. ثلاثة أخرى. حسنا. سأرسل لكم المزيد من الأسلحة ولكن..

وهنا توقف نيكسون برهة قبل أن يكمل رواية حواره التليفونى مع جولدا مائير قائلا: لكن دعينى افترض من الآن أنكم فى نهاية المطاف قضيتم على الجيش الثالث. هذا بالطبع سيؤدى إلى سقوط السادات فى مصر، لكن تلك لن تكون نهاية القصة. هناك كولونيل لا نعرفه الآن.. يعنى ناصر آخر مثلا.. سيقوم بإعادة بناء الجيش المصرى من جديد. وسيحتشد المصريون والعرب جميعا وراءه من جديد.. والآن أريد منك ردا فوريا ومباشرا وصريحا: هل إسرائيل مستعدة لمواجهة هذا الاحتمال.. بعد خمس أو عشر سنوات؟

وطبقا لرواية نيكسون أصيبت جولدا مائير بالخرس. بعدها كانت أول كلمة نطقت بها: حسنا سيادة الرئيس، لقد فهمت الرسالة.

فى هذه المرة لم نكن فى أكتوبر. كنا فى مارس حينما أذيعت حلقات نيكسون التليفزيونية وتلك هى نيويورك بعدها صدرت مذكرات هنرى كيسنجر، وباعتباره يهوديا وصهيونيا وشريكا لإسرائيل فى خرق وقف إطلاق النار، فإنه يصف وصوله إلى هناك يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ بينما القيادات الإسرائيلية تستقبله بوجوه تحمل علامات الانهيار.. و.. بدوا شاعرين بعمق، كيف أصبحوا قريبين من الهاوية، وكيف أن أسبوعين من الحرب قد استنزفتهم.. لقد كان الشعور بالوهن والانتهاك طاغيا على إسرائيل، بصرف النظر عما تظهره الخرائط العسكرية.

وعلى الورق تكاد تحس بأن كيسنجر يكتب تلك الكلمات.. بطلوع الروح، وربما لأنه لا

يريد الخوض بأكثر مما يجب فى أسرار عائلية. لا بأس. فالحقيقة الكاملة لا يعرفها أبدا إلا الذين قاتلوا فى مشوار أكتوبر. مشوار صنعه الشهداء بدمائهم.. من عبد المنعم رياض إلى أحدث جندى قدر له ذات يوم أن يحمل مصير بلده فى يده، وبقدر استمرار نبض الحياة فى شراييننا.. ستستمر معنا روح أكتوبر.. إن وقائع أكتوبر هى الآن.. تاريخ.. لكن روح أكتوبر هى.. خلاصة التاريخ.

■■ من أين يبدأ الجحيم؟

جاءت الجولة الأخيرة من شد الحبل بين الولايات المتحدة وإيران بشأن الملف النووى متزامنة مع الذكرى الستين لاستخدام الولايات المتحدة السلاح النووى لأول مرة فى التاريخ بإسقاطها قنبلتين على مدينتى هيروشيما وناجازاكى فى ٦ و ٩ أغسطس ١٩٤٥. قنبلتان كانت نتيجتهما الفورية مائتى ألف قتيل من المدنيين بخلاف الجرحى والمشوهين ثم الكارثة البيئية التى جرت. لكن مرور ستين سنة لم يقلل بالمرة من جدية وخطورة الأسئلة الكبرى التى فرضها الاستخدام الأمريكى للسلاح النووى لأول مرة، وضد سكان مدنيين مقصودين بذاتهم لإشاعة أكبر حالة من الرعب داخل اليابان وخارجها على السواء. فى سياق الحرب العالمية الثانية كان من الأسرار المكتومة الشائعة هو السباق العلمى المتصاعد بين ألمانيا وأمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفيتى واليابان بدرجة أقل لاستكشاف امكانيات الطاقة النووية. فى أمريكا أصبح التركيز على إمكانية ابتكار سلاح جديد يستخدم قدرة التفجير النووى وقد خصصت لذلك مليارى دولار بأسعار ذلك الزمان وجيش جرار من المهندسين والعلماء ضمن مشروع سرى للغاية سمى مشروع مانهاتن. توفى الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت ومشروع مانهاتن فى مرحلته الأخيرة، وخلفه نائبه هارى ترومان الذى لم يكن يعرف عن ذلك المشروع السرى أى شىء بالمرة. وحتى حينما اجتمع ترومان فى بوتسدام مع حليفيه الروسى جوزيف ستالين والبريطانى ونستون تشرشل كانت الأولوية هى لإقناع ستالين بانضمام الاتحاد السوفيتى إلى الحملة الوشيكة لغزو اليابان التى استمرت تحارب بعد استسلام ألمانيا. وكان ستالين مترددا لأن بلاده تحملت التكلفة البشرية الأكبر فى هزيمة ألمانيا بشريا وماديا. وبرغم اتفاق الحلفاء

من البداية على المشاركة فى بحوث تطوير أية أسلحة جديدة إلا أن مشروع السلاح النووى تحديدا استمر سرا أمريكيا خالصا. وإذا كانت بريطانيا على قدر من المعرفة بما يجرى فى مشروع مانهاتن فلأن بعض علمائها يعملون هناك.

قرار ترومان بإسقاط القنبلة النووية الأولى فى التاريخ على مدينة هيروشيما فى السادس من أغسطس ١٩٤٥ وبعدها بثلاثة أيام القنبلة الثانية على ناجازاكى أخذ العالم كله على غرة بسبب المستوى المرعب غير المسبوق من الأهوال والخراب بفعل السلاح الجديد. لكن السؤال الأساسى أصبح هو: هل كانت أمريكا فى حاجة فعلا إلى استخدام السلاح النووى ضد اليابان؟ فى مذكراته التالية قال هارى ترومان إن استخدامه السلاح النووى حسم مرة واحدة ونهائية مسألة استسلام اليابان بلا قيد ولا شرط، وبذلك أمكن تفادى الغزو البرى الأمريكى لليابان الذى كان مخططا القيام به فى شهر نوفمبر التالى ويقدر أن يسقط فيه نصف مليون قتيل أمريكى. يعنى: جرى استخدام السلاح النووى اضطرارا لإنقاذ أرواح الجنود الأمريكيين ولإرغام اليابان على الاستسلام.

لكن الحقائق التالية أثبتت عدم صدق تلك الرواية. فالمفاوضات لاستسلام اليابان كانت جارية فعلا والرسائل اليابانية إلى موسكو كانت تفيد بأن مطلب اليابان الوحيد هو أن يحتفظ امبراطورها بمنصبه. الشرط رمزى تماما وقيمته العملية هى أن يتم الاستسلام لأمريكا بغير أن ينزلق المجتمع اليابانى كله إلى حالة من الفوضى الكاملة مجهولة النتائج. مع ذلك أصر الرئيس ترومان على رفض الطلب اليابانى وأصر تاليا على مفاجأة العالم باستخدام السلاح النووى الجديد ضد اليابان فى مجزرة بشرية غير مسبوقة بمدينتى هيروشيما وناجازاكى. وفى نهاية المطاف حينما استسلمت اليابان فعلا اقترن ذلك بقبول أمريكى لبقاء الإمبراطور فى منصبه.

من ناحية أخرى تدفقت حقائق جديدة تالية كشفت عن أن معظم أركان القيادة العسكرية الأمريكية لم يكونوا متحمسين بالمرة لاستخدام السلاح النووى ضد اليابان، وفى مقدمتهم الجنرال دوجلاس ماكارثر قائد قوات الحلفاء فى جبهة الباسفيكى والجنرال دوايت ايزنهاور القائد المماثل فى الجبهة الأوربية. العسكريون إذن كانوا يرون أن هزيمة اليابان مسألة وقت، بل وقت قصير، ومن ثم فلا حاجة إلى إدخال سلاح جديد ومروع بحجم القنبلة النووية.

فإذا لم تكن الضرورة العسكرية هى السبب.. فلماذا استخدمت أمريكا سلاحها النووى الجديد؟ تكاد معظم الدراسات التاريخية الجادة والموثقة المنشورة فى السنوات الأخيرة تجمع على أن الأسباب الأمريكية كانت نفسية وسياسية. أسباب نفسية بمعنى إنهاء الحرب بانتقام مروع من اليابان جزاء هجومها على بيرل هاربر فى ديسمبر ١٩٤١، وبما يجعلها عبرة للعالم كله بامتداد الأجيال. لم يكن كافيا إلقاء قنابل حارقة على العاصمة طوكيو فتقتل مائة ألف مدنى، ولا حصار التجويع الصارم ضد الجزيرة اليابانية. لقد أصبح الانتقام مطلوبا بذاته.

لكن الأكثر أهمية كان الهدف السياسى. فالولايات المتحدة اعتبرت تحالفها مع الاتحاد السوفيتى هو من باب الضرورة لمواجهة عدو مشترك. لكن بعد سقوط هذا العدو ستعود الخصومة الأيديولوجية إلى سيرتها الأولى. بالتإلى كان الاستخدام الأمريكى للسلاح النووى ضد اليابان رسالة ضمنية موجهة إلى الاتحاد السوفيتى بأن النظام العالمى الجديد الذى ستسفر عنه الحرب سيكون محكوما باحتكار أمريكا للسلاح النووى. بل إنه خلال سنتى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ تحديدا ارتفعت أصوات داخل المؤسسة الأمريكية الحاكمة تطالب بانتهاز الفرصة لضرب الاتحاد السوفيتى نفسه نوويا فلا تقوم له قائمة بعد ذلك.. خصوصا وأن أكثر التوقعات تفاؤلا تشير إلى أن السوفييت لن يتمكنوا من صناعة سلاحهم النووى قبل عشر سنوات.

المفارقة التاريخية الكبرى هنا هى أن جوزيف ستالين كانت له قراءة مبكرة دقيقة لنفس النوايا الأمريكية، ولو من خلال حجب الأمريكيين عنه أية معلومات سابقة أو لاحقة عن هذا السلاح التدميرى الشامل الجديد. وهكذا فإن الاتحاد السوفيتى الخارج من الحرب العالمية الثانية مدمرا ومخربا بأضعاف حلفائه الآخرين عبء ما تبقى من موارده الاقتصادية والعلمية، وفاجأ العالم كله بإنتاج سلاحه النووى الخاص فى سنة ١٩٤٩. هنا فقط أدرك أصحاب الرؤوس الساخنة فى واشنطون أن ضربة نووية ضد الاتحاد السوفيتى لن تكون نزهة وإنما هى الطريق المؤكد إلى الدمار الشامل المتبادل. من هنا أيضا تعدل التوجه الأمريكى من المواجهة الساخنة إلى سياسة الاحتواء ضد الاتحاد السوفيتى.

فى ضوء المراجع والوثائق المتاحة مؤخرا أيضا نتوقف طويلا أمام حالة عالم الفيزياء الأمريكى روبرت أوبنهايمر الذى أدار وأشرف على مشروع مانهاتن السرى لصناعة

السلاح النووى. فاكتشاف الطاقة النووية يفتح آفاقا جديدة لسعادة الإنسان وأيضا آفاقا جديدة لدماره. فيما بين الاحتمالين عاش هذا العالم الأمريكى ممزق الروح والوجدان. ومع التقدم اقترابا من صناعة القنبلة النووية الأولى كاد تمزق هذا العالم نفسيا وروحيا يصل به إلى حافة الانهيار العصبى. وبعد أن تابع استخدام هذا السلاح عمليا ومئات الآلاف من المدنيين القتلى والجرحى وتفتح شهوة العسكريين لاستخدامه مرة بعد مرة، أصبح متأكدا أن أبواب الجحيم التى انفتحت لن تنغلق من جديد أبدا.

وبعد نجاح الاتحاد السوفيتى فى صناعة سلاحه النووى تبنى سياسيون وعسكريون وعلماء أمريكيون الدعوة إلى إنتاج قنبلة هيدروجينية تفوق فى قدرتها التدميرية القنبلة النووية بمئات المرات. هنا اعترض أوبنهايمر بالكامل مقررا أن مثل هذه القنبلة ستكون سلاح إبادة وليس مجرد سلاح آخر أكثر قوة. بالتإلى هذا سيفرض على العالم سباقا عبثيا فى التسلح يكون أكثر تكلفة وإبادة بغير مبرر. عند هذا الحد انقلبت عليه المؤسسة الأمريكية الحاكمة ولفقوا له اتهاما بأنه فى مرحلة مبكرة من شبابه كان متعاطفا مع الأفكار الشيوعية. وبتلك الحجة الملفقة جرت محاكمته وسحبت منه بطاقاته الأمنية.

أشعلت أمريكا إذن سباق تسلح نووى فى العالم كله. ستالين فى موسكو لم يهدأ إلا بعد تسلح روسيا نوويا. الصين بدورها لم تصبح هادئة البال إلا بعد التسلح نوويا لتأمين نفسها من الاتحاد السوفيتى. الهند فعلت نفس الشىء لكى تأمن الصين. باكستان بالمرة لكى تأمن الهند.

أما فى منطقتنا فقد اتخذ السيناريو فى البداية مسارا متعرجا. إسرائيل فرضت على المنطقة كلها سباق تسلح إجباريا من اللحظة الأولى بمبادرتها إلى حيازة كل جيل جديد من الأسلحة. فى التسلح النووى لم يختلف الأمر وإن كان المدخل فى البداية هو الاستخدام السلمى للطاقة النووية.

مصر سلكت نفس الطريق منذ سنة ١٩٥٥ لأنها كانت تبدأ من الصفر بتشكيل جيل من العلماء ولأن الطاقة النووية فى وجهها الإيجابى مهمة بحد ذاتها علميا واقتصاديا. لكن التقارير تواترت عن استخدام إسرائيل لارتباطاتها الدولية فى بناء برنامج للتسلح النووى. فى البداية قيل إن فرنسا ساعدت إسرائيل نوويا انتقاما من مصر لمساعدتها الشعب الجزائرى فى الاستقلال. لكن مؤخرا اكتشفنا أن بريطانيا هى الأخرى قامت

بتوريد عشرين طنا من الماء الثقيل إلى إسرائيل سرا الذى لا وظيفة له إلا فى صناعة سلاح نووى.

فى سنة ١٩٦٨ اتفقت مصلحة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على صياغة معاهدة لمنع الانتشار النووى عالميا تسرى من سنة ١٩٧٠ لمدة ٢٥ سنة. جوهر الأتفاقية صفقة متبادلة: كل دولة تنضم إلى عضوية الاتفاقية تصبح بذلك ملتزمة بعدم السعى إلى التسلح النووى. مقابل ذلك يصبح من حقها الحصول على كل المساعدات العلمية اللازمة لصناعة الطاقة النووية واستخدامها سلميا بمتابعة وكالة الطاقة النووية.

أمريكا التى كانت علاقاتها الدبلوماسية مقطوعة مع مصر بسبب حرب ١٩٦٧ استخدمت الاتحاد السوفيتى فى الإلحاح على مصر للانضمام إلى تلك المعاهدة. فى حينها كان الاتحاد السوفيتى هو المصدر الأساسى لتسليح مصر سعيا إلى تحرير أرضها المحتلة إسرائيليا بقوة السلاح. مع ذلك كان التنازل الوحيد الذى قدمته مصر هو التوقيع على معاهدة منع الانتشار النووى بالأحرف الأولى. جرى هذا فى سنة ١٩٧٠. أما التصديق على المعاهدة رسميا وهو ما يعنى بدء الالتزام بها فعليا فقد رفضته مصر تماما مقررة أنها لن تصدق على الانضمام إلى تلك المعاهدة إلا ارتباطا بـ وتلازما مع انضمام إسرائيل إلى نفس المعاهدة. كان هذا هو موقف مصر الرسمى فى سنة ١٩٧٠.

و...

دارت الأيام. وذهب أنور السادات فى سياساته الجديدة إلى الصلح مع إسرائيل بمعاهدة رسمية فى سنة ١٩٧٩ تجعل من بين قيود أخرى شبه جزيرة سيناء منزوعة السلاح بحجة تأمين إسرائيل التى أصبح تسلحها النووى مؤكدا فى ذلك الوقت ومن قبله بسنوات. إذن، وبعد خروج أكبر الدول العربية من ساحة المواجهة العسكرية مع إسرائيل، وبقيود فادحة، هل تنضم إسرائيل إلى معاهدة منع الانتشار النووى؟ أبدا. أما المفارقة الأكبر فهى أن مصر السادات قامت فى سنة ١٩٨٠ بالتصديق على معاهدة منع الانتشار النووى فدخلت مصر بقدميها إلى قفص المعاهدة بينما إسرائيل حرة طليقة خارجة حتى الآن.. ويعترف لها العالم بتسلحها النووى كأمر واقع.. بل وتدافع أمريكا عن موقف إسرائيل هذا.. حتى بعد أن جرى تجديد معاهدة منع الانتشار فى سنة ١٩٩٥ فتصبح لأجل غير مسمى.

هذا يعيدنا إلى إيران فى مواجهتها الحالية مع أمريكا داخل وكالة الطاقة النووية. إيران ملتزمة بمعاهدة منع الانتشار وتخضع لكافة أنواع التفتيش من وكالة الطاقة النووية. مع ذلك فالحملة الأمريكية بالغة العصبية.. ليس ضد إسرائيل.. وإنما ضد إيران. وبطلبات أمريكا الإضافية فى كل مرة لم يعد الهدف هو حرمان إيران من التسلح النووى وإيران أصلا لا تسعى إليه وإنما الهدف حرمإنها حتى من الطاقة النووية السلمية.. وإلا فجزاؤها الجحيم.

فى الواقع أن الجحيم ليس هنا. الجحيم بدأ مبكرا فى سنة ١٩٤٥. وهناك نظرية سائدة لها اعتبارها خلاصتها ان أمريكا لو ركزت من البداية على الوجه الإيجابى للطاقة النووية لكانت أنقذت العالم من وجهها الشرير.. فضلا عن إنقاذ العالم من سباق عبثى فى تسلح نووى تريد به كل دولة أن تأمن شرور ومطامع الآخرين. جريدة الحياة .

جبل من الخديعة

بالتأكيد سيجد المؤرخون فى المستقبل مهمتهم أكثر سهولة حينما يعيدون فحص ملف المسألة العراقية . إنما فى الوقت الراهن مايزال هناك إصرار عنيد على المراوغة والتحايل والخداع كلما فرضت الأحداث الجارية على السياسيين فى واشنطون ولندن مواجهة التساؤلات المتجددة من الرأى العام.. داخليا وخارجيا.

فى المؤتمر الصحفى للرئيس جورج بوش يوم الثلاثاء ٢٠٠٤/٤/١٣ وهو الثالث فقط له منذ توليه السلطة استبعد بوش بكل بساطة أية أسئلة لا يريد إعطاء أجوبة جادة عليها. هل أصبح الموقف فى العراق يتطلب قوات أمريكية إضافية؟ اسألوا الجنرالات. كم من الزمن ستبقى القوات الأمريكية بالعراق؟ قواتنا ستبقى فى العراق بالقدر الزمنى الضرورى وليس بعدها بيوم واحد. إلى من سيتم تسليم السلطة فى العراق بعد ذلك ؟ الإجابة عند مندوب الأمم المتحدة... وهكذا.

كانت تلك المراوغة موجودة دائما منذ البداية.. بل من قبل البداية. يوم الأحداث الإرهابية فى نيويورك وواشنطون فى ٢٠٠١/٩/١١ كانت كوندوليزا رايس مستشارة الرئيس بوش للأمن القومى ستلقى بخطاب يلخص الأولويات السياسية والإستراتيجية

للإدارة. ومؤخرا تبين بأثر رجعى أن تلك الأولويات تتركز أساسا فى برنامج ضخم ومكلف من الدفاع الصاروخى.. وفى العلاقة القلقة مع الصين.. الخ. مؤخرا تبين وبأثر رجعى أيضا أن غزو واحتلال العراق كان هو الأولوية السرية المطلقة للإدارة منذ يومها الأول.

ومن كتاب بول أونيل وزير الخزانة وقتها فى الإدارة الجديدة عرفنا أن الرئيس جورج بوش أثار مسألة غزو العراق هذه فى الاجتماع الأول الذى عقده لطاقم الأمن القومى.. ووزير الخزانة نفسه عضو به.. ولم تكن قد مضت سوى أيام قليلة على وجود جورج بوش فى البيت الأبيض. عرفنا أيضا من كتاب جديد لريتشارد كلارك منسق مكافحة الإرهاب فى البيت الأبيض أنه بعد ساعات قليلة من أحداث ٢٠٠١/٩/١١ ضغط الرئيس بوش على بعض مساعديه للبحث عن ذرة معلومات أو شبه معلومات تربط العراق بتلك الأحداث. عرفنا كذلك أن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع طرح غزو العراق فى التو واللحظة.. بمعلومات أو بغيرها. عرفنا أيضا ومن كتاب جديد لبوب وودوارد أنه فى خلال أقل من شهرين من أحداث ٢٠٠١/٩/١١ أعطى الرئيس بوش أمرا لوزير الدفاع رامسفيلد بأعداد الخطط العسكرية سرا لغزو واحتلال العراق وبغير أن يرجع وقتها إلى مستشارة الأمن القومى أو وزير الخارجية.. منبها عليه بأن يظل الأمر بالغ السرية داخل الإدارة والبيت الأبيض. وعندما لزم إبلاغ الجنرال تومى فرانكس قائد المنطقة المركزية وقتها التى تدير الحرب فى أفغانستان تفوه الجنرال بألفاظ نابية خارجة لأنه رأى فى هذا التوجه انحرافا عن الشعار المعلن بالحرب ضد الإرهاب.

بالطبع اضطر الجنرال فرانكس بعدها كمعظم الجنرالات إلى مسايرة قرار البيت الأبيض فى نهاية المطاف. لكن الملفت هنا هو قدر الخداع والتضليل الذى مارسته الإدارة على الرأى العام الأمريكى ذاته. وحينما تجرأ الجنرال اريك شينيسكى مثلا وهو وقتها رئيس أركان القوات البرية الأمريكية على التصريح علنا بأن غزو واحتلال العراق سيتطلب عدة مئات من آلاف الجنود الأمريكيين سخر منه مسئولو الإدارة علنا وبعد قليل جرت إحالته إلى التقاعد. وفى سعى الإدارة للحصول على تفويض بالحرب من الكونجرس الأمريكى رفضت بإصرار أعطاء أية تقديرات مالية بتكاليف الحرب. وحينما اجتمع عدد من الأعضاء النافذين بمجلس الشيوخ الأمريكى مع وزير الدفاع رامسفيلد بحثا عن إجابات لتساؤلات الرأى العام أفحمهم الوزير بأنه اجتمع بهم ليتحدث هو إليهم وليس

للإجابة على أية أسئلة منهم. أشاعت الإدارة من البداية مناخا من الإرهاب الفكرى لم تألفه الحياة السياسية الأمريكية منذ عقود طويلة. إنها لم تصادر فقط حريات وضمانات شخصية اعتز بها الأمريكيون طويلا وإنما هددت كل من يخالفها بأنه ضعيف الوطنية.. تعنى سنتيمترا واحدا من الخيانة العظمى. هناك شعار رفعته الإدارة منذ البداية هو من ليس معى فهو مع الإرهاب .. لم يكن موجها إلى العالم فقط وإنما أيضا إلى الشعب الأمريكى ذاته. ظلت خطط وبرامج الإدارة سرية دائما انعكاسا لعقلية جديدة فرضتها على الجميع. لم تطرح الإدارة مطلقا رؤية حقيقية جادة للأسباب والنتائج بدءا من أحداث ٢٠٠١/٩/١١ نفسها (والوضع مستمر حتى الآن) وكلما حاصرتها الأسئلة غيرت الموضوع. فقط كل ما عندها هو حلول عسكرية خارج أمريكا وحلول بوليسية داخل أمريكا. من المهم فى هذا السياق أن نتوقف بالتأمل عند تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا الذى اختار من اللحظة الأولى أن يكون التابع الأمين والخادم المخلص لأولئك المحافظين الجدد الذين سيطروا بالكامل على السياسة الأمريكية. ومؤخرا فقط عرفنا باتفاق سرى جرى على مائدة عشاء بعد أحداث ٢٠٠٣/٩/١١ بين الرئيس الأمريكى جورج بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير. الاتفاق كان على غزو واحتلال العراق.. والذى كشف عنه مؤخرا هو كريستوفر ماير سفير بريطانيا وقتها لدى واشنطون وبتلك الصفة كان حاضرا العشاء تسعة أيام فقط بعد الأحداث وما تلاه. فى حينها كان العالم كله متعاطفا مع الشعب الأمريكى ومتقبلا ولو على مضض التوجه العسكرى الأمريكى نحو أفغانستان. لكن فى تلك الليلة أفصح الرئيس الأمريكى لتونى بلير سرا هو أن هدفه الحقيقى تاليا هو العراق. معك يا جورج.. والسر فى بئر. السر سنحجبه عن العالم كله.. وبئر البترول كفيل بالتكاليف والفوائد.

الآن وبأثر رجعى ليس ملفتا فقط ذلك الالتزام السرى المبكر من تونى بلير.. وإنما الملفت بدرجة أكبر هو ما بذله تونى بلير تاليا لإخفاء ذلك الالتزام كاملا عن أعضاء حزبه وكل أعضاء حكومته فى لندن. فبعد الفراغ من أفغانستان دارت الآلة الدعائية الأمريكية للتعبئة محليا ودوليا باتجاه خطر ماحق وشيك اسمه العراق لديه أسلحة دمار شامل مرعبة يهدد بها جيرانه والولايات المتحدة ذاتها.

وفى ٢٠٠٢/٧/٢٦ سجلت كلير شورت الوزيرة وقتها فى حكومة تونى بلير ضمن

يومياتها الخاصة أنها عبرت لرئيس الوزراء عن قلقها من الدعايات الرائجة وطلبت منه عرض المسألة للنقاش فى اجتماع قادم لمجلس الوزراء هو الأخير قبل إجازات الصيف. يومها أجابها تونى بلير بأن هذا غير ضرورى حيث مسألة العراق لا تستحق كما أنه لا يوجد قرار أمريكى بشأنها. ما أخفاه رئيس الوزراء عن الوزيرة ونعرفه الآن هو أنه فى نفس الأسبوع أوفد إلى واشنطون مستشاره الخاص للسياسة الخارجية ديفيد باتينج ليجتمع بالرئيس الأمريكى جورج بوش وكوندوليزا رايس مستشارته للأمن القومى لاستكمال التنسيق بشأن غزو واحتلال العراق. مسئول أمريكى فى مكتب ديك تشينى نائب جورج بوش أفصح مؤخرا عن أنه بعدها (يوليو ٢٠٠٢) قرأ تفريغا مكتوبا لنص مكالمة تليفونية بين جورج بوش وتونى بلير مستخلصا منها انطباعا بأنهما اتفقا على أنه لابد من التخلص من صدام حسين أيا تكن النتائج.. وبلير لم يكن محتاجا إلى أى إقناع من جانب بوش. ويقول المسئول الأمريكى إنه: قبل تلك المكالمة كان احتمال الحرب مرتفعا لكنه مايزال أقل من مائة بالمائة. بعد المكالمة أدركت أن الصفقة بين بوش وبلير منتهية .

فى ٩/٩ /٢٠٠٢ سافر تونى بلير إلى كامب ديفيد للاجتماع مع جورج بوش ونائبه ديك تشينى فيما بدا أنه مناقشة للمسات الأخيرة. يومها تسجل كلير شورت الوزيرة فى حكومة بلير بيومياتها الخاصة: حينما طلبت من تونى مناقشة مسألة العراق فى اجتماع وزارى أجابنى بأنه لا يوجد أى قرار وشيك يستدعى ذلك. إنما فى نفس اليوم علمت أنه أعطى تعليمات سرية بوضع عشرين ألف جندى بريطانى فى الخليج فى حالة الاستعداد .

فلنتوقف هنا قليلا لنتذكر الملابسات. فى الجانب الأمريكى كانت هناك تعبئة متزايدة للحرب فى العراق وإعلان متردد من جورج بوش بأنه سيضع الأمم المتحدة أمام امتحان أخير ونهائى: إما أن تعطيه تفويضا مفتوحا بالحرب لغزو العراق أو تصبح مستقبلا عديمة الشأن والاعتبار. العالم وقتها لم يستغرب فقط تلك البلطجة وإنما استغرب بدرجة أكبر مزايدات تونى بلير على صقور واشنطون وحماسه المفرط لاصطياد العراق. إنما بلير بفذلكته التى كشف العالم دوافعها لاحقا حاول أن يوهم الجميع خصوصا شركاءه فى الاتحاد الأوربى بأنه فقط يساير الإدارة الأمريكية المتعطشة لغزو واحتلال العراق سعيا إلى التقليل من غلوائها وإعادتها إلى الشرعية الدولية من خلال الأمم المتحدة.

لنتذكر أيضا أن العالم كله فى حينها كان يغلى غضبا من رعونة الإدارة الأمريكية

ويضغط من أجل إعطاء فرصة جادة وحقيقية لمفتشى الأمم المتحدة بقيادة هانز بليكس بحثا عن الحقيقة. حتى فرنسا عرفنا مؤخرا بأنها أوفدت إلى واشنطون مبعوثا رئاسيا فى ٢٠٠٣/١/١٢ ذهب بصحبة سفير فرنسا فى واشنطون إلى البيت الأبيض لنقل عرض محدد من الرئيس شيراك: فلتوقف الولايات المتحدة ضغوطها على أعضاء مجلس الأمن للحصول على قرار جديد يفوضها بالحرب لأن هذا ضد الشرعية الدولية.. أو تختار الذهاب إلى الحرب بعيدا عن الأمم المتحدة وسوف تلتزم فرنسا حينها بالهدوء. بالطبع أمريكا ركبت رأسها بتصفيق من تونى بلير وضاعفت من ضغوطها على أعضاء مجلس الأمن الدولى.. دولة بعد دولة. لقد تبين لاحقا أن المخابرات البريطانية استجابة لطلب أمريكى تولت التجسس والتنصت على اتصالات ومقابلات كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة وهانز بليكس كبير المفتشين وأيضا على الدول الست المتأرجحة الأعضاء بمجلس الأمن (أنجولا والكاميرون وغينيا وشيلى والمكسيك وباكستان) لمنعهم من التقدم بمشروع قرار يعطى مهلة جديدة لمفتشى الأمم المتحدة لاستكمال مهمتهم بالعراق.. كبديل عن الحرب. وبالطبع قبل هذا وبعده لنتذكر الدور الذى لعبه تونى بلير فى طرح ملفات مخابراتية عن أسلحة دمار شامل بالعراق تهدد المصالح البريطانية بالخليج وجزيرة قبرص جاهزة للاستخدام خلال ٤٥ دقيقة.. الخ.

كان هناك تناغم مدهش بين تونى بلير و المحافظين الجدد فى واشنطون. الأخيرون كذبوا وضللوا وخدعوا واحتالوا كفريق واحد عرفنا مؤخرا من كتاب بوب وودوارد أن وزير الخارجية كولن باول كان يسميهم فريق الجستابو بقيادة ديك تشينى نائب الرئيس. وللتذكرة فأن الجستابو هى تلك المنظمة التى مارست كل الأعمال السرية والتلفيقية الدنيئة فى ألمانيا النازية. الحرب وقعت إذن ولم يكن هذا ممكنا إلا بذلك الجبل من الخديعة والتضليل. والآن تعانى أمريكا من نذر العواقب بما اضطرها إلى تمديد خدمة عشرين ألف جندى ضمن ١٣٥ ألفا موجودين بالعراق. أتذكر هنا مؤرخا رصينا وحصيفا هو بول كينيدى الذى عرفه العالم من خلال كتابه الموسوعى ارتفاع وسقوط القوى العظمى . فى حينها كانت هناك حملة انتخابات رئاسية أمريكية جارية. لكن جريدة أمريكية مهمة نشرت مقإلا افتتاحيا تنصح فيه كل المرشحين بأن من يريد منهم أن يكون مخلصا لأمريكا وللعالم عليه أن يبدأ أولا بقراءة ذلك الكتاب. مؤخرا قرأت لبول كينيدى مقإلا

يطرح فيه فكرة مدهشة خلاصتها هى: إن الإدارة الأمريكية الحالية تواجه مأزقا صعبا هو: كيف تدبر قوات عسكرية أضافية تبعث بها إلى العراق. فى الواقع وما نزال مع بول كينيدى هناك قوات أمريكية جاهزة فعلا تحت عنوان فرقة وولفويتز نسبة إلى بول وولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكى المعتبر عقلا مفكرا للمحافظين الجدد الحاكمين فى واشنطون الداعين من البداية إلى الاعتماد على القوة العسكرية الأمريكية فى سحق وإبادة كل المعارضين دوليا لمشروع الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

من رأى المؤرخ بول كينيدى هنا أنه يمكن حشد وولفويتز هذا، مع الذين على شاكلته مثل ديك تشينى ودونالد رامسفيلد وريتشارد بيرل ودوجلاس فيث.. وكذلك طبقة أخرى من الصحفيين وكتاب الأعمدة فى الصحف الأمريكية أمطروا الرأى العام الأمريكى بسيل من الكتابات تبشيرا بالإمبراطورية الأمريكية البازغة. كل هؤلاء يمكن حشدهم وإرسالهم على وجه السرعة إلى العراق لإنقاذ الموقف المتدهور هناك فيصبح ورديا فى غمضة عين. ومن باب الرحمة.. يمكن إعفاء أى منهم إذا أثبت أن له ابنا موجودا كمقاتل فى العراق. والله فكرة. عيبها أمران. أولا: لا أحد من هؤلاء له أى ابن بالعراق.. ولا حتى بالقوات الأمريكية الموجودة داخل أمريكا ذاتها. لا هم.. ولا أى من أعضاء الكونجرس الأمريكى بمجلسيه وهو نفس الكونجرس الذى أعطى للإدارة الأمريكية من قبل تفويضا بغزو واحتلال العراق. من هنا كان تمرير الإدارة لمشروعها بالغ السهولة فى حينها من الكونجرس. ثانيا إنه منذ الكارثة الأمريكية فى فيتنام جرى إلغاء التجنيد الإلزامى. بالتالى تعتمد القوات الأمريكية من وقتها غالبا وأساسا على المتطوعين. هذا يعنى عمليا أن فقراء أمريكا هم الذين يخوضون حروبها.. وتلك ذروة المأساة.

فى سياق حماس المحافظين الجدد قبل سنتين لمشروع الإمبراطورية الأمريكية اقترح بعض الكتاب فى أمريكا إعادة تطبيق قانون التجنيد الإلزامى.. حتى يتساوى الجميع فى التضحية سعيا للأهداف المتفق عليها قوميا. فى حينها كان أول المعترضين هو دونالد رامسفيلد وزير الدفاع. حجته كانت: ان التطوع للخدمة فى القوات المسلحة الأمريكية هى أقصى درجات الوطنية. ربما كان سيصبح أكثر إقناعا لو أن ابنا له.. أو ابنا لأحد مساعديه.. تطوع فعلا للخدمة العسكرية. لكن المسألة كانت مجرد مراوغة.. وجزءا آخر من جبل الخديعة.

للصور معني ومغزي ودلالات. فى يوم الأحد ١٥ ديسمبر الجاري نشرت الأدارة الأمريكية فى العالم كله صورا للمعتقل صدام حسين ستعيش فى مخيلة الملايين لسنوات طويلة قادمة. والأهم من ذلك سوف تصبح موضوعا لأفلام وحلقات تليفزيونية تصدرها هوليود إلي العالم كله عشرات ومئـات المرات. أما الأهم والأهم فأن صورة المعتقل صدام حسين هذا ستصبح هي ورقة الاعتماد الرئيسية لجورج بوش لدي الناخب الأمريكي حتي يعطيه مدة رئاسة ثانية فى البيت الأبيض. وحتي من قبل الوصول إلي انتخابات الرئاسة فأن تلك الصور.. وخلال ساعات قليلة من إذاعتها ونشرها..استعادت لجورج بوش شعبية متراجعة وجعلته يبدو فى تلك اللحظة المحددة كما لو كان قد فاز علي معارضيه السياسيين بالضربة القاضيـة.

فيما ألحت به تليفزيونات العالم علي الشعب الأمريكى والشعوب العربية وشعوب العالم كله نحن أمام طبعة أمريكية جديدة من صدام حسين: زائغ العينين كث اللحية متبلد الإحساس مذعن بمذلة وانكسار ليدي الطبيب العسكري الأمريكي الذي يتفحص شعر رأسه وفكيه.. بينما فى الساعات الأولي ترك الرئيس جورج بوش لمندوبه السامي فى بغداد مهمة اعلان الخبر القنبلة: لقد قبضنـا عليه. ومن واشنطون تناول وزير الخارجية كولن باول سماعة التليفون ليتصل بأكثر من عشرين وزيرا خارجية أجنبي ليحثهم علي إصدار بيانات تصفيق للإنجاز المدهش. فقط بعد أن غاصت الصور والبيانات فى الوعي السياسي الأمريكى بإيجابية وحماسة عقد الرئيس الأمريكى مؤتمرا صحفيا بدا مفتوحا وان تكن الأسئلة معدة سلفا والسائلون مختارون مقدما. لقد بدا جورج بوش لأول مرة منذ وقت طويل وكأنه يقول للجميع: إننى كنت دائما على حق وأمريكا هى القوة الآمرة فى العالم ولا أحد ينجو من عقابها.

لم تكن الصور تتعلق باعتقال صدام حسين. فقط هي عن فحص طبى بعد وقت غير محدد من اعتقاله. أما مكان الاعتقال وملابساته وتوقيته فقد جرى شرحه شفويا مع صور للمكان نشـرت لاحقا. لن نتوقف هنا كما فعل البعض عند صور المكان بحد ذاته ولا بالتحديد عند صورة التمور ذات اللون الأصفر المتدلية من شجرة نخيل فى الموقع

نفسه.. وهو ما يعنى عند أهل المعرفة أن زمن الاعتقال كان فى شهر أغسطس وليس فى ديسمبر.. بما يعني أن اختيار توقيت النشر هنا يلـبى احتياجات سياسية ملحة لهذه الإدارة الأمريكية فى السلطة. لنترك هذه الثغرة وثغرات إضافية أخرى جانبا ونأخذ الإدارة الأمريكية بكلماتها وبياناتها وصورها المنشورة رسميـا. هذا شخص كان سابقا رئيسا للعراق فأصبح مآله الأخير فى جحر صغير داخل كوخ ريفى معزول ومعه حقيبة بها سبعمائة وخمسون ألف دولار. ليست ٧٤١ ألفاً دولار مثلا ولا ٧٤٢ ألف و ٣٠٠ دولار. المبلغ مقفول هكذا للدقة والأمانة. ثلاثة أرباع مليون دولار بلا زيادة ولا نقصان

حسب البيانات الأمريكية أيضا كان مع صدام حسين مسدس وبندقيتان آليتان لكنه عجز عن استخدام أى منهما.. لا فى المقاومة ولا فى الأنتحار. هو حتي فاجأ معتقليه الأمريكيين بالاستسلام لهم فى طواعية وخنوع ومذلة. مرة أخـرى.. فلننحي جانبا احتمال استخدام غاز لتخديره أو شل حركته فهذا وارد طالما أن صدام حسين كان مطلوبا حيا على وجه الخصوص.. بعكس ولديه فى يوليو الماضى. ومرة أخرى سنرى مستقبلا كيف سيستثمر الأمريكيون تلك الورقة لتلائم الأجندة السياسية الخاصة بهذه الإدارة وبرامجها المستقبلية. إنما بصرف النظر عن هذا كله فأن شخصا بتلك المواصفات والملابسات.. وفى ذلك المكان النائى.. وبغير أى وسائل اتصال من أى نوع ولو بالحمام الزاجل.. هو بالتأكيد شخص ليس مشغولا بالعراق ولا بالاحتلال ولا بالمقاومة. مشغول فقط بالتخفى والتنكر والحرص على أن يظل على قيد الحياة قبل أى اعتبار آخر.

تلك صورة تنفى بحد ذاتها تماما ما سعت الإدارة الأمريكية الى ترويجه طوال ثمانيـة أشهر.. من أن صدام حسين أحد محركى ومنظمى المقاومة ضد الاحتلال ان لم يكن هو عقلها المفكر وممولها الجاهز بالمليارات من الـدولارات. ذلك تفسير بدا مناسبا تماما للإدارة الأمريكيـة طوال شهور لتبرير ما تواجهه من خطأ فى الحسابات. لا توجد مقاومة. وعلى حد ما قاله جـورج بوش أمام جنوده الأمريكيين فى زيارته السرية لهم بمطار بغداد ليلة عيد الشكر نحن لم نطح بالطاغية المستبد ونحرر ٢٥ مليون عراقى فقط لكى ننسحب أمام مجموعة من البلطجية والقتلة . لم يكن متوقعا من الرئيس الأمريكى أن يقول غير هذا على أساس أنه حـدد لهم من البداية أن مهمتهم هى تحرير العراق وسيجدون فى انتظارهم على أحر الشوق فى شـوارع بغداد شعبا مرحبا وشاكرا وناثرا

عليهم الزهور والرياحين والورود. وطالما أن الذى فاجأهم هــو العكس من ذلك فلابد أن الرافضين للوجود الأمريكى هم مجرد حفنة من البلطجية والقتلة يحركهم صدام حسين وأعوانه.. ومن بينهم للسخرية نائبه عزة الدورى المسحوق مرضا حـتى وهـو فى سلطتـــه.

للصور معنى ومغزى ودلالات. هندست الإدارة الأمريكية ببراعة صورة إسقاط أحد تماثيل صدام حسين فى أحد ميادين بغداد وألحوا بتصدير تلك الصورة تحديدا إلى العالم كله لتصبح هى النهاية السعيدة المفحمة لكل من عارض الغزو الأمريكى للعراق. عند هذه الإدارة الأمريكية ومخرجيها وكتاب سيناريوهاتها أجندة سياسية برعت فعــلا فى استخدام الصور لتغذيتها. انما بصرف النظر عن هدف المخرج وكاتب السيناريو فى كل مرة فإن الحقيقة الموضوعية استمرت واضحة ومؤكدة. فبذلك الدخول الأمريكى السهل والمريح الى قلب بغداد فى أبريل الماضى.. وتبخر صدام حسين ونظامه فى لمح البصر.. بغير حتى أن تواجـــه الدبابات الأمريكية رصاصة واحدة.. يكون صدام حسين ونظامه قد انتهيا فعلا وإلى غير رجعــة. أما استمرار صدام حسين كشخص.. وأركان نظامه كأشخاص.. على قيد الحياة بعد ذلك فلم يعـد يهم كثيرا فى الحساب الموضوعى للحقائق السياسية المجردة.. مهما نجح التخفى والتنكر فــى إتاحة فسحة زمنية إضافية. نتحدث هنا عن دولة.. وليس عن عصابة مافيا. منذ التاسع من شهر أبريل سقط النظام وانتهى صدام حسين ولم يعد فى الحساب السياسى لهؤلاء أكثر من الحواشى.

انما فى البؤرة الجديدة من المأساة نشأت المفاجأة الجديدة: لقد أصبح الشعب العراقى ذات نفســه وجها لوجه مع احتـــلال أجنـبى.

للصور معنى ومغزى ودلالات. وفى جلسة مفتوحة مذاعة لمجلس الأمن الدولى شهدها العالم كله.. جلس كولن باول وزير لخارجية أمريكا الطرف الواحد وتريد من باقى العالم تقديم فروض السمع والطاعة.. إن لم يكن التصفيـق والمشاركــة.

فى تلك الجلسة قال وزير الخارجية الأمريكى رسميا وعلنا مخاطبا زمـلاءه فى مجلس الأمـن: أيها الزملاء.. كل بيان أقدمه لكم اليوم تدعمه مصادر.. بل مصادر مؤكدة فعلا. هذه ليست تأكيدات.. فما نعطيكم اليوم هو حقائق ونتائج تقوم على أساس معلومات مخابراتية صلبة ومصادر راسخـة . بعدها استخدم الوزير الأمريكى بيانات

وصور بالأقمار الصناعية وتسجيلات سرية لاتصالات تليفونية.. وكلها تؤكد بشكل قاطع مفحم.. ليس فقط حيازة العراق لأسلحة دمـــار شامل محظورة عليه.. بل وأيضا إصرار على استخدامها. كان هذا إخراجا على المسرح الدولى لما سبق للرئيس جورج بوش نفسه أن قاله لشعبه قبلها بأسبوع واحد: العراق يحوز فعلا وحاليا خمسمائة طن من الأسلحة الكيماوية و ٢٥ ألف لتر من الأنثراكس وثلاثين ألف قنبلة ورأس حربى محظور. العراق أيضا يستطيع إنتاج قنبلة نووية خلال سنة واحدة بعد صفقة سرية عقدهـا مع جمهورية النيجر للحصول على اليورانيوم. العراق لديه العشرات من صواريخ سكود ووحدات كاملة من الطائرات بدون طيار مجهزة ومعدة خصيصا لضرب الولايات المتحدة. لنتذكر العبارة هنا بالضبط وحرفيا: ضرب الولايات المتحدة على مسافة بحار ومحيطات بكل تلك الترسانة الشيطانية. بمثل تلك البيانات أفحم الرئيس الأمريكى مجلسى الكونجرس الأمريكى فى شهر أكتوبر الماضى فحصل على تفويض على بياض بغزو العراق. تفويض بغير مناقشة ولا مراجعة ولا فحص بأى درجة للبيانات والأدلة. وفى جلسة مجلس الأمن الدولى فى الخامس من فبرايـــر الماضى أصبح المطلوب المستجد هو تفويض أعلى من المجتمع الدولى. لكن برغم الصور والبيانات والأقمار الصناعية والتسجيلات والأدلة المفحمة والضغوط الأمريكية الكاسحـــة على الدول جميعا من أكبرها الى أصغرها فشلت أمريكا فى الحصول على ذلك التفويـض المأمول. إنما ما بقى بعد تلك الجلسة المشهودة لمجلس الأمل الدولى كانت الصورة التى جرى الإلحاح بها أمريكيا فى الداخل والخارج: صورة كولن باول ممسكا بيده اليمنى بأنبوب صغير كنموذج للأسلحة الكيماوية والبيولوجية الفتاكة التى يهدد مصير كل المدن الأمريكية لو لم تبادر الولايات المتحـدة بغزو العراق.. وعلى وجه السرعـة.

فيما بين تلك الصورة.. وصورة إسقاط تمثال صدام حسين ببغداد كانت الصورة الأشمل والأعرض التى ألحت بها الإدارة الأمريكية على العالم هـى صورة لشخص شيطانى وماكر وشرير وكفؤ ومتوحش وقادر على خداع الأقمار الصناعية ومئات المفتشين الدوليين المزودين مسبقا بمعلومات المخابرات الأمريكية والبريطانية والإسرائيلية وكل من يستجد فى اللعبة الإقليمية والدولية المستحدثة لتوها لمصالح محددة وعاتية. وبقدرة قادر وإلحاح كاسح نجحت هذه الإدارة الأمريكية فعلا فى استدراج العالم كله إعلاميا

على الأقل إلى الملعب الذى خططت له من البداية: الخير فى مواجهة الشر.. والحضارة ضد البربرية. لقــد جرى اختزال القصة كلها فى ذلك الشرير الواحد صاحب القدرات الخارقة على تحدى الواقع والمنطق والعقل والحقيقة.. يقول للشىء كن فيكون. ومن الغريب هنا تماما أن تلك الصورة المزيفة كانت مناسبة تماما لطرفيها: الأدارة الأمريكية الجديدة بجدول أعمالها المعلن.. وذلك الزبون القديم الجديد الذى هو صـدام حسين.

هكذا أصبحت كل صورة يتم توظيفها والإلحاح بها عالميا لتؤدى مهمتها فـى السينـاريو المقرر سلفا. وحينما سقط صدام حسين ونظامه فى التاسع من أبريل الماضى بسهولة مدهشة جاءت الدعاية الأمريكية ببديل وتعويض وعزاء. وحينما نشرت صورة القتيلين عـدى وقصى ابنى صدام حسين فى يوليو الماضى بدت الغزوة الأمريكية منفصلة عن أسبابها. همـا أيضا كانا أيضا فى بيت معزول بالموصل تخفيا فيه سعيا للبقاء على قيد الحياة. مجـرد البقـاء. والآن تجىء صور المعتقل المستجد صدام حسين لتصبح أمريكيا هى عنوان القصة.. حتى لا يتوقف العالم كثيرا أمام أسلحة الدمار الشامل التى فشل ١٥٠ ألف جندى أمريكى وحواشيهم ومخابراتهـم فى العثور عليها بطول العراق وبعرضـه بعد أن أصبح غنيمة حرب مقصودة من البداية.

المشكلة الحقيقية بين هذه الإدارة الأمريكية والعالم كله لم تتعلق فى أى وقت بصدام حسين ونظامه. من البداية إلى النهاية يبدو هذا تكرارا لشاوشيسكو فى رومانيا وسلوبادون ميلوسيفيتش فى يوغوسلافيا ونورييجا فى بناما. فى كل حالة نحن أمام حكام ونظم صنعتها أمريكا ذاتها ودعمتها فى السلطة ضد شعوبها. وطوال حربه ضد إيران لحساب أمريكا فى سنـوات الثمانينات كانت أمريكا هى التى تمد نظام صدام حسين بمعلومات المخابرات وصور الأقمار الصناعية حتى يجيد ضرب إيران.. ومن المفارقات التاريخية هنا أن دولند رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى حاليا وأحد صقور الإدارة للاستيلاء على العالم الثالث بمناسبة انفراد أمريكا بوراثة فراغ الاتحاد السوفيتى بعد تفككه كان هو مندوب الإدارة الأمريكية فى سنة ١٩٨٣ لمقابلة صدام حسين لإغرائه بالمضى شوطا أكبر فى العمالة لحساب أمريكا ضد إيران مقابل عمولـة فهمها كل طرف بطريقة مختلفـة.

ويوم ضرب صدام حسين مدينة حلبجة العراقية بأسلحة كيماوية لم تكن جريدة أمريكية هى التى نشرت الصور. كانت صحف أخرى غير أمريكية.. أتذكر فى مقدمتها

جريــدة الأوبزيفر البريطانية. ونجاح صدام حسين وقتها فى الإفلات بجريمته لم يرجع لمهارته أو قدرته.. إنما فقط لإدراكه أنه أصبح بلطجى لحسابنا حسب القاموس السياسى الأمريكى.

للصور معنى ومغزى ودلالات. وفى كل الصور التى روجتها هذه الإدارة الأمريكية كان هناك خليط غريب مدهش من الرداءة والمهارة.. وبعض الإجابات. إنما مع كـل اجابة.. يتوالد المزيد من الأسئلـــة.

وفى اللحظة الراهنة سنتوقف فقط عند ثلاثة أسئلة: هل سيتعايش الشعب العراقى فعلا مع الإحتلال الأمريكى كما تؤكد هذه الإدارة الأمريكية؟ هل سينسى العالم لهــذه الإدارة حججها التى قالتها لتبرير غزوها للعراق؟ هل سيؤدى النجاح الفورى لجورج بوش وأركان إدارته فى استطلاعات الرأى العام إلى الأنطلاق أكثر وأكثر فى شن المزيد من الحروب الوقائية .. وهذا اسم الشفرة الجديد لمصالح عاتية جاءت من الأصل بتلك الإدارة لكى تعيد صياغة أمريكا من الداخل كمجتمع قبل أن تعيد صياغة العالم؟

ثم السؤال الأكثر حسما من هذا كله: هل سيستمر الكونجرس الأمريكى والرأى العام بشكل أوسع فى تفويض هذه الإدارة على بياض لشن حروب خارجية مفتوحة وغائمة الأهـداف.. بينما يعيش أربعون مليون مواطن أمريكى تحت خط الفقر ومحرومون من أدنى حقوق الرعاية الصحية والآجتماعية.. التى تعتبرها دول عالم ثالث من مستوى مصر والهند وبنجالاديش أبسط حقوق الإنســان؟

كثيرة هى الأسئلة. وقليلة هى الإجابات. انما بحسابات ساخنى الرءوس فى هذه الإدارة الأمريكية الفرحة لدرجة النشوة بقوتها العسكرية الإستثنائية فأن العالم مجرد غابة كبيرة.. الفوز فيها للديناصورات. هذا صحيح فعلا.. وجزئيا. فى تاريخ العالم كانت توجد ديناصـــورات. وكانت بالفعل مسيطرة بحكم قوتها. إنما فى نفس التاريخ البشرى مايقول لنا إن تلك الديناصورات اندثرت. ليس لأنها كانت الأضعف جسمانيا. إنما فقط لأنها الأضعف عقليا. للصور معنى ومغزى ودلالات. حتى اللحظة الراهنة نجحت الإدارة الأمريكيــة الراهنة فى السيطرة على العالم بالصور المخططة مسبقا. هذا إنجاز مدهش بحد ذاته مقصـود به الوصول الى انتخابات الرئاسة الأمريكية بعد سنة من الآن. فليكن. إنما فى السياسة.. اثنـــا عشـر شهرا هى وقت طويل. بل طويل جـــدا.

■■ رئيس ضد كل حكومته

حينما أصدرت بريطانيا الإمبراطورية وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧ وهو بيان قصير تعد فيه بتسهيل قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين لم تكن كل دفعات يهود أوروبا الذين سبق تنظيم هجرتهم قد حازوا من أراضى فلسطين سوى أقل من اثنين بالمائة من مساحتها الكلية.

ومع الاقتراب من نوفمبر آخر، فى سنة ١٩٤٧ هذه المرة، سوف تشهد القضية تحولا حاسما آخر مثله صدور قرار من الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. ومرة أخرى، فرغم كل برامج التهجير التى نظمتها الوكالات اليهودية والصهيونية بهمة ونشاط طوال ثلاثين سنة إلى فلسطين، لم يكن اليهود فى لحظة صدور قرار التقسيم سوى ستمائة ألف مقابل فلسطينيين أكثر من ضعف هذا الرقم. مع فارق جوهرى. فهؤلاء أصحاب الأرض أبا عن جد وألف جد، بينما اليهود وافدون وغرباء تماما بل وحتى لم يكونوا فى معظمهم يتكلمون بلغة واحدة.

ولأننى أتناول هنا فقط أهم كتاب صدر عن سيرة حياة هارى ترومان الرئيس رقم ٣٣ لأمريكا كتاب من ١١٢٠ صفحة وكتبه ديفيد ماكيولو فإن نقطة البداية هى العقدة المزدوجة التى عانى منها ترومان وستعانى منطقتنا من نتائجها حتى اليوم. العقدة فى جانبها الأول كانت حقيقة أنه أصبح رئيسا لأمريكا بصدفة درامية هى وفاة الرئيس فرانكلين روزفلت بعد أسابيع من انتخابه لولاية رئاسية رابعة. بالتإلى أصبح نائبه هارى ترومان هو الرئيس هارى ترومان المستمر فى المنصب لإكمال المدة الرئاسية لروزفلت. ولأنه كان عظيم الجهل بالسياسات الدولية وبالغ التواضع فى قدراته الذهنية هذا رأى الكتاب فقد واجه باستمرار مقارنة المواطن العادى له بالراحل روزفلت فيخسر هو فى كل مرة. من جانب آخر أصبح حلمه الكبير المتضخم يوما بعد يوم هو أن يرشح نفسه فى الانتخابات التالية المقررة فى نوفمبر ١٩٤٨ فيتحرر من ظلال روزفلت ويصبح هو رئيسا بالأصالة وليس بصدفة من القدر والتاريخ.

ومنذ أسبوعه الأول خلفا لروزفلت أصبح نفوذ القادة الصهيونيين متزايدا عليه باضطراد من خلال علاقات غامضة يكشف الكتاب بعض أسرارها. وأصبح كل هذا

ينعكس فى مواقفه وتصريحاته انحيازا لمشروع فلسطين مع نهاية الحرب العالمية الثانية ونجاح يهود فلسطين فى تنظيم ميليشيات مسلحة لهم تزداد قوة الصهيونى بإقامة دولة يهودية فى جزء من فلسطين.. خصوصا مع ارتخاء القبضة العسكرية البريطانية تنظيما يوما بعد يوم.

وحينما اتصل دبلوماسيون أمريكيون كبار بالرئيس ترومان لينبهوه إلى ضرورة أخذ المصالح العربية فى فلسطين فى الاعتبار كان كل تعليقه حسب ما يسجل الكتاب هو: ليس لدى هنا فى أمريكا عدد كاف من الناخبين العرب لمساندته انتخابيا.. لأن كل ما كان يتطلع إليه هو انتخابات الرئاسة المقررة فى نوفمبر ١٩٤٨ وأن يفوز فيها بأى ثمن.

واضطر جيمس فورستال وزير الدفاع فى إدارة ترومان نفسه إلى مصارحته بأن كل أعضاء هيئة أركان الحرب المشتركة يحذرون من النتائج الفادحة لسياساته المحابية للصهيونيين على حساب المصالح الأمريكية نفسها فى الشرق الأوسط.. وأهمها ضمان وضع اليد على البترول العربى سعرا وكمية.. لحساب أمريكا وأيضا لحلفائها. لكن وزير الدفاع لم يكن يحصل من رئيسه ترومان فى كل مرة إلا على المزيد من المراوغة. وشيئا فشيئا بدأ فورستال يرى أمامه رئيسا: يمثل هذه الرغبة فى الاستسلام أمام المنافع السياسية الرخيصة .

تجلى هذا مثلا فى موقفه بالنسبة لتقسيم فلسطين وإطلاق هجرة يهود أوروبا إليها. فالمنظمات اليهودية والصهيونية فى كل مكان كانوا يدعون ويسعون إلى تقسيم فلسطين ليقيموا مشروع دولتهم فى أكبر مساحة يطالونها، بينما الفلسطينيون ومعهم الدول العربية يعارضون هذه الدعوة بشدة وبريطانيا كسلطة انتداب ترى أن التقسيم حل غير عملى بالمرة. ومع أن ونستون تشرشل فى ذروة سلطته كرئيس لوزراء بريطانيا طوال سنوات الحرب العالمية الثانية كان مؤيدا لفكرة الوطن القومى اليهودى، بل وقال فى سنة ١٩٤٤ من القاهرة أنا صهيونى .. إلا أنه لم يغير من القيود التى فرضتها بريطانيا على الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ سنة ١٩٣٩ أملا فى تهدئة العرب طوال الحرب. ومع أول انتخابات فى بريطانيا بعد الحرب سقط تشرشل وحزب المحافظين وجاء الناخبون بحزب العمال وحكومة منه برئاسة كليمنت آتلى.

كانت بريطانيا هى من الأصل صاحبة وعد بلفور وبفضلها أساسا مضى المشروع

الصهيونى فى أرض الواقع بفلسطين فيما بين الحربين العالميتين.. الأولى والثانية. مع ذلك فها هو الرئيس الأمريكى ترومان، بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية، يضغط علنا مرة بعد مرة على الحكومة البريطانية لكى تفتح أبواب فلسطين أمام يهود أوروبا. وهنا يسجل كاتب سيرته أن الحكومة البريطانية الجديدة برئاسة كليمنت آتلى أصبحت ترى أن الرئيس الأمريكى ترومان هو شخص: موال للصهيونيين بطريقة تتسم بالطيش واللامبالاة . هكذا وجدت بريطانيا الإمبراطورية أخيرا من يزايد عليها فى دعم المشروع الصهيونى، ووجدت أيضا أن نفس اليهود الذين ساعدت فى تهجيرهم إلى فلسطين بين الحربين بدأوا يستديرون ضدها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.. بل ويحشدون أمريكا للضغط عليها لمجرد أن أمريكا بزغ نجمها لتصبح القوة العالمية الأكبر بعد الحرب.

وطوال سنة ١٩٤٦ ألح الرئيس الأمريكى هارى ترومان على بريطانيا لكى تفتح أبواب فلسطين أمام هجرة يهود أوروبا، بدءا بدفعة أولى من مائة ألف يهودى. وحينما كرر ترومان طلبه هذا اضطر إيرنست بيفن وزير الخارجية البريطانى إلى السخرية علنا من إلحاح ترومان بقوله: نحن نتفهم تعاطف الرئيس الأمريكى مع اليهود إلى هذا الحد.. ونتفهم أن كل دافعه هو الحصول على أصوات انتخابية (يهودية) فى نيويورك (فى الانتخابات الأمريكية التالية)... فإذا كان الأمر كذلك، لماذا لا يقوم هو بفتح أبواب الولايات المتحدة أمام الهجرة اليهودية؟

كان السؤال بسيطا.. ومنطقيا. لماذا فلسطين؟ وإذا كانت الحجة هى اضطهاد النازية فى ألمانيا لليهود، وقبلها اضطهاد روسيا وأوروبا الشرقية لليهود، فلماذا تعاقب فلسطين العربية بدولة يهودية نيابة عن أوروبا؟

لا الرئيس الأمريكى أجاب.. ولا من سبقه أو خلفه تراجع. بل إن نفس الموال تكرر تاليا مع تفكك الاتحاد السوفيتى بعدها بعقود. فالولايات المتحدة استمرت تضغط على الاتحاد السوفيتى اعتبارا من سنة ١٩٧٥ لكى يطلق هجرة مواطنيه اليهود. وفى سبيل ذلك صدر تشريع من الكونجرس الأمريكى يربط تحسن العلاقات التجارية الأمريكية مع الاتحاد السوفيتى بإطلاقه هجرة اليهود تحت لافتة حقوق الإنسان . وحينما فعل السوفييت ذلك فعلا ، مع تفكك دولتهم المركزية فى ١٩٩١ إلى خمس عشرة دولة، قامت أمريكا بإلغاء الامتيازات التى كانت تكفلها لمن يهاجر إليها من يهود سوفييت حتى ينتهى إغراء توجه

مليون يهودى سوفييتى إليها.. وفى نفس الوقت وضعت إسرائيل برامج سريعة وخطوط طيران مباشرة مع جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق حتى يصبح الخيار الوحيد الذى يتم استدراج اليهود السوفييت إليه هو: إسرائيل. وهذا هو ما جرى بالضبط. لكن تلك قصة أخرى أضعها هنا بين قوسين.. لأعود إلى مشوار هارى ترومان مع فلسطين وإسرائيل.. ومعنا. كان من بين مساعدى ترومان اثنان على وجه الخصوص لعبا دورا بارزا فى الكواليس لحساب المشروع الصهيونى الأساسى حينئذ وهو تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب. أما الأول فهو كلارك كليفورد المستشار القانونى للرئيس، والثانى هو ديفيد نيلز مساعد الرئيس لشئون الأقليات وهو يهودى. وبتعبير الكتاب فإن الاثنين معا كانا يجعلان الصهيونيين على علم ومعرفة بكل ما يجرى فى واشنطون وداخل البيت الأبيض أولا بأول وعند كل خطوة تتعلق بفلسطين .

فى مقابل ذلك كان كل كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الأمريكية يعتبرون أن إقامة دولة يهودية فى جزء من أرض فلسطين هو ظلم فادح للعرب وإضرار بالمصالح الأمريكية ذاتها وفى مقدمتها البترول خصوصا بعد الدور الحاسم الذى لعبه فى الحرب العالمية الثانية. وفى إحدى المرات تضايق ديفيد نيلز اليهودى المساعد للرئيس ترومان كمستشار للأقليات من حجج مسئول بوزارة الخارجية الأمريكية فرد عليه بانفعال وحدة قائلا: (عليكم فى وزارة الخارجية أن تعرفوا) إنه بالنسبة للولايات المتحدة حاليا فإن الشىء الأكثر أهمية هو أن يفوز الرئيس ترومان فى الانتخابات القادمة.

واستعدادا للتصويت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٩ على مشروع يقضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية تحول البيت الأبيض إلى ما يشبه غرفة عمليات لحشد أصوات أكبر عدد ممكن لصالح المشروع. وكان الرئيس هارى ترومان نفسه يكرس منصبه ومساعديه المباشرين لكى يرغم دولا عديدة على تغيير موقفها المبدئى السابق والتصويت لمصلحة مشروع التقسيم المحابى تماما للصهيونيين. وكان حريصا على السرية فى جزء كبير من اتصالاته بمثل ما فعل حينما استقبل سرا فى البيت الأبيض حاييم وايزمان الزعيم الصهيونى الذى جاء خصيصا من لندن ليجتمع سرا بالرئيس ترومان فى واشنطون.

كان وايزمان فى الرابعة والسبعين من العمر وهو من كبار قيادات الصهيونية العالمية

وهو نفسه كان أحد مهندسى وعد بلفور الذى أعلنته الحكومة البريطانية فى ١٩١٧. وبعدها كرس وايزمان الجزء الأكبر من نشاطاته واتصالاته لتحويل المشروع الصهيونى إلى حقيقة من خلال دعم أمريكى ازدادت أهميته مع خروج أمريكا من الحرب العالمية الثانية قائدة لمعسكر المنتصرين.

وبترتيبات أعدها إدوارد جاكوبسون اليهودى الصهيونى الأمريكى وصديق ترومان الحميم منذ كان شريكا له فى تجارة الملابس ذهب حاييم وايزمان إلى مقابلة الرئيس ترومان بعد إدخاله إلى البيت الأبيض من باب جانبى حرصا على السرية. وفى المقابلة لم يكن وايزمان يريد فقط ضمان الدعم الكامل من ترومان لمشروع تقسيم فلسطين قبيل التصويت عليه فى الأمم المتحدة.. لكنه يريد أيضا ضمان شىء آخر.

لقد بسط وايزمان خريطة (للعالم العربى) على مكتب ترومان لكى يرجوه فى مطلب جديد ومهم وخطير وحاسم: أن يتم ضم صحراء النقب إلى الجزء المخصص للدولة اليهودية المقترحة فى فلسطين. وفيما بعد كتب وايزمان انطباعه قائلا: إننى كنت سعيدا سعادة استثنائية حينما وجدت أن الرئيس قرأ الخريطة وفهمها بسرعة ووضوح . لكن ما لم يقله وايزمان ولكن سجلته مراجع أخرى تالية فهو أن قادة الحركة الصهيونية كانوا يعلقون أهمية كبرى فى وضع أيديهم على صحراء النقب لأن هذا يضمن نهائيا فصل مصر عن أى اتصال برى بالمشرق العربى.

وبعيدا عن تلك التحركات والإتصالات غير المعلنة كانت كل الأجهزة المختصة داخل الحكومة الأمريكية ماتزال مستمرة فى مطالبة الرئيس ترومان بالتراجع عن تأييد مشروع تقسيم فلسطين قبل أن يصبح الإضرار بالمصالح الأمريكية نهائيا. فمجموعة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية، وكان يرأسها جورج كينان الدبلوماسى العريق مبتكر سياسة الاحتواء الشهيرة تاليا ضد الاتحاد السوفيتى، قدمت إلى الرئيس ترومان ورقة عمل سرية أوصت فيها بألا تستمر الولايات المتحدة فى دعم مشروع خطة تقسيم فلسطين. كذلك قدمت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الناشئة حديثا تقريرا سريا آخر إلى الرئيس يعارض اقتطاع أى جزء من أراضى فلسطين لإقامة دولة يهودية.

وفى مستوى آخر أعد لوى هندرسون مدير إدارة الشرق الأدنى (الأوسط) بوزارة الخارجية مذكرة جديدة فى ذلك الخريف (١٩٤٧) باعتبار فلسطين ضمن اختصاصه.

وتلك المذكرة تقرر بوضوح: إن الأغلبية الكاسحة للأمريكيين، من غير اليهود، الذين لهم معرفة وثيقة بالموقف فى الشرق الأدنى... يؤمنون بأنه ليس مما يتمشى مع المصالح القومية للولايات المتحدة أن تؤيد أى نوع من الخطط فى الوقت الحالى من أجل تقسيم فلسطين أو إقامة دولة يهودية فى فلسطين . وضاعف من أهمية مذكرة هندرسون تلك أنها اعتمدت بالدرجة الأولى على تقييم من وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) ويتنبأ بأن إقامة دولة يهودية فى فلسطين سيؤدى إلى غزو من الجيوش العربية وحرب قد لا توجد فرصة بالمعطيات القائمة لكى يكسبها اليهود.

وخلال مشاورات الأمم المتحدة فى نوفمبر (١٩٤٧) فوجئ جورج مارشال وزير الخارجية بأن الحركة الصهيونية قد أضافت أيضا إلى مشروعها التقسيمى أن تكون صحراء النقب من نصيب الدولة اليهودية المقترحة. وعارض الوزير مارشال فورا تلك الإضافة الجغرافية المفاجئة بغير أن يعلم بأن رئيسه ترومان قد أعطى موافقته سرا لحاييم وايزمان. لقد استمر جورج مارشال قاطعا تماما فى رفضه سياسات ترومان الموالية للصهيونيين معتبرا أن المصالح الإستراتيجية لقوة عظمى كالولايات المتحدة يجب ألا تخضع لطموح رخيص بإعادة انتخاب رئيس.

وحسب تفسير دين راسك مدير إدارة الأمم المتحدة بوزارة الخارجية وقتها وهو نفسه أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد فإن سلوك البيت الأبيض فى حينها كان يضاعف من صعوبة الموقف، وهو موقف متفجر أصلا ومتزايد العنف فى أرض فلسطين. ويرى راسك أن وزارة الخارجية لم تكن مذنبة فى ذلك بقدر ما كان السبب هو وجود أهداف متناقضة فى عقل الرئيس ترومان نفسه و: هذا لم يكن مفهوما لنا فى حينها. فبينما كان مارشال ونحن فى وزارة الخارجية نعمل نحو حل طويل المدى، فإن الصهيونيين كانوا يصنفون أى شخص لا يؤيد القضية الصهيونية بنسبة ألف فى المائة باعتباره مرتكبا لخيانة كبرى فى حق الرئيس ترومان نفسه.

والرئيس ترومان، من وراء ظهر كل حكومته، كان يدير من البيت الأبيض معركة اتصالات كبرى مع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة المتأرجحة أو المعارضة لمشروع تقسيم فلسطين الذى أصبح مطروحا فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. لقد استخدم الرئيس ترومان وبيته الأبيض والحركة الصهيونية وسائل شتى من الضغط والتهديد والابتزاز

والرشوة والتزوير حسب حالة كل دولة. وإذا كان كاتب سيرة ترومان هنا حريصا فى الكتاب على القفز فوق هذا كله إلا أن كواليس قرار تقسيم فلسطين تستحق بحد ذاتها أن يتم كشفها بعد أن أصبح ممكنا توثيقها بكل دقة.

لكن إجمالا يكفى هنا أن نأخذ من المؤلف استشهاده باليوميات المكتوبة عن اتصالات إدوارد جاكوبسون غير المعلنة مع الرئيس ترومان على النحو التإلى: ٦ نوفمبر« واشنطون. الرئيس مايزال يدفع لإنجاح مشروع (تقسيم) فلسطين ».... ١٧ نوفمبر « البيت الأبيض مرة أخرى »... الأربعاء ٢٦« تلقيت مكالمة من البيت الأبيض. كل شىء على ما يرام »... ٢٧ نوفمبر« عيد الشكر. بعثت ببرقية من صفحتين إلى ترومان »... الجمعة ٢٨ نوفمبر « تلقيت مكالمة من سكرتيره (مات كونيللى سكرتير الرئيس ترومان). أخبرنى بألا أقلق»... ٢٩ نوفمبر« تمت المهمة »

لم تكن تلك المهمة بأقل من تمرير مشروع تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب من الجمعية العامة للأمم المتحدة. ونتيجة التصويت: ٣٢ دولة لصالح التقسيم مقابل ١٣ دولة معترضة وامتناع عشر دول عن التصويت.

كان القرار ظلما فادحا للفلسطينيين ولا يتطابق بالمرة مع الواقع أرضا وسكانا. من هنا أصبح تمريره مناسبة كبرى يحتفل بها الصهيونيون فى كل مكان. وآبا إيبان، اليهودى الصهيونى من جنوب إفريقيا وكان حينئذ ضابط اتصال شاب مع الوكالة اليهودية وفيما بعد وزيرا لخارجية إسرائيل، كتب عن ذلك اليوم متذكرا: لقد كان هناك يهود دامعى الأعين. والذين قدر لهم أن يعيشوا تلك اللحظة لن تضيع ذكراها مطلقا من قلوبهم . وفى حشد صهيونى فى نيويورك للاحتفال بتلك المناسبة حاول عشرون ألف شخص كما يسجل المؤلف التزاحم فى قاعة الاجتماعات بشارع ٣٤، وهو حشد يبلغ ثلاثة أمثال عدد المقاعد.

أما فى واشنطون فنتوقف عند واقعتين. فى الواقعة الأولى يذهب إدوارد جاكوبسون الصديق الصهيونى وشريك الأعمال السابق وحلقة الإتصال مع القادة الصهيونيين، إلى البيت الأبيض ليعبر عن أعمق درجات الشكر للرئيس ترومان. بعدها كتب فى يومياته مسجلا: لقد كان حريصا يقصد الرئيس ترومان بعد أن أصبحنا بمفردنا على أن يقول لى إنه بمفرده هو المسئول عن التحول الذى جرى فى تصويت وفود دول عديدة فى الأمم المتحدة.. من معارضة قرار تقسيم فلسطين إلى تأييده.

أما الواقعة الثانية فتتعلق بجورج مارشال وزير الخارجية. مع أن الرئيس ترومان كان يتفادى مواجهته سابقا ويخفى عنه أفكاره الحقيقية وعلاقاته الغامضة مع الصهيونيين، إلا أنه أصبح متلهفا لمعرفة رد فعل مارشال بعد تمرير قرار تقسيم فلسطين من الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وفى أول اجتماع لمجلس الأمن القومى برئاسة هارى ترومان لم يبخل جورج مارشال وزير الخارجية على رئيسه بالإفصاح عن رأيه. لقد قال له: الآن أصبحت الولايات المتحدة تلعب بالنار.. بينما هى لا تملك حتى أى شىء تطفىء به النار .

■■ ربع ساعة قبل إسرائيل

حينما وقف السفير الأمريكى ورئيس الوفد الأمريكى لدى الأمم المتحدة أمام أعضاء مجلس الأمن الدولى ليعلن لهم الموقف الجديد للولايات المتحدة بالنسبة لفلسطين.. لم يكن يعرف أنه فتح على نفسه أبواب الجحيم من الصهيونيين.. ومن رئيسه الأعلى فى البيت الأبيض: هارى ترومان.

كان اليوم هو الجمعة ١٩ مارس ١٩٤٨. وممثل أمريكا لدى الأمم المتحدة يعلن باسم الولايات المتحدة أن الموقف الأمريكى الرسمى من الآن فصاعدا لم يعد تبنى ودعم قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين. وبدلا من ذلك فإن الموقف الأمريكى الجديد هو فرض وصاية الأمم المتحدة على فلسطين بعد الانسحاب البريطانى المقرر فى ١٤ مايو (١٩٤٨).

المجتمع الدولى فى معظمه، كما بدا يومها فى مبنى الأمم المتحدة، تنفس الصعداء. لكن المنظمات الصهيونية خارج وداخل أمريكا انطلقت لتوها فى حملة محمومة ضد هذا التغيير الأمريكى المفاجىء، معتبرة فى منشوراتها وبرقياتها الدعائية أن ما جرى فى يوم الجمعة الأسود هذا من انقلاب سياسى أمريكى بشأن فلسطين يجب ألا يمر.

وفى البيت الأبيض لم يعرف الرئيس هارى ترومان بتلك التطورات إلا فى الصباح التالى، ومن الصحف. ومع أن الوقت كان مايزال هو السابعة والنصف صباحا إلا أن الرئيس ترومان اتصل بمستشاره كليفورد ليطلب منه المجىء إليه على الفور. وحينما وصل كليفورد وجد أمامه رئيسا ممتقع الوجه متلعثم الكلمات بحيث سجل تاليا انطباعه

قائلا: لقد وجدت ترومان داخل مكتبه فى حالة من الانزعاج والقلق لم أشهده فيها من قبل مطلقا. إنه يتساءل أمامى: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لقد استقبلت (حاييم) وايزمان قبل يومين وحصل منى على تأكيدات قاطعة. لابد أنه الآن سيظن بى السوء.

لم يفسر ترومان لمستشاره طبيعة التأكيدات التى أعطاها لوايزمان. لكن لا بأس. سيعرفها تاليا من وايزمان نفسه. أما الآن فإن ترومان يتمتم أمام مساعده قائلا: إننى أعرف أن هناك أناسا فى وزارة الخارجية من المستويين الثالث والرابع كانوا يريدون دائما قطع رقبتى. الآن هم ينجحون فى ذلك.

لكن.. إذا كان ذلك هو ما يصارح به الرئيس ترومان أحد مساعديه.. فإنه سرعان ما ستأتيه القنبلة الأكبر بعد ساعات. فمن مدينة لوس أنجلوس على الساحل الغربى لأمريكا، والتى كان جورج مارشال وزير الخارجية موجودا فيها ذلك اليوم، تابع مارشال ردود الأفعال الغاضبة من المنظمات الصهيونية وزعمها بأن ما جرى هو انقلاب من وزارة الخارجية على الرئيس والبيت الأبيض... إلخ.

وعلى الفور عقد مارشال مؤتمرا صحفيا مفاجئا فى لوس أنجلوس. وبكلمات جنرال لا يعرف اللف ولا الدوران ولا المداهنة أيضا، أعلن أن وضع فلسطين تحت وصاية الأمم المتحدة عند اكتمال الانسحاب البريطانى هو المسار الأكثر حكمة وأنه أبلغ بنفسه تلك التوصية من قبل إلى الرئيس ترومان فوافق على توصيته وأخذ بها.

وفى واشنطون ابتلع ترومان كلمات وزير خارجيته بغصة فى حلقومه. فهو يعرف أنها كلمات دقيقة وصحيحة، والمشكلة هى أنه لم يجرؤ فى أى وقت على إبلاغ وزير خارجيته بحقيقة مقابلاته الغامضة مع جاكوبسون، ولا تعهداته السرية لحاييم وايزمان، خصوصا إضافة صحراء النقب إلى المساحة المقترحة لمشروع الدولة اليهودية حتى يتم الفصل البرى نهائيا بين مصر والمشرق العربى.

وفى اليوم التالى عاد مارشال إلى واشنطن ليطلب فورا اجتماعا مع الرئيس، فى مواجهة حاسمة حول مستقبل فلسطين.

كان هارى ترومان مهموما من البداية من عقدة روزفلت الزعيم البارز الذى كان رحيله المفاجىء هو ورقة اليانصيب التى جعلها القدر من نصيب ترومان. لكن الشعب الأمريكى استمر يقارن ترومان بروزفلت معبرا عن ذلك بتصويته السلبى ضد ترومان فى

كل استطلاعات الرأى، وفى آخرها لم يوافق على أداء ترومان سوى ٣٢٪ من الذين عبروا عن آرائهم. من هنا قام ترومان باستدعاء الجنرال مارشال من تقاعده ليلح عليه بالعمل معه وزيرا للخارجية، وهو ما أضاف رصيدا إلى ترومان مستمد من شعبية مارشال الذى يراه الشعب الأمريكى بطلا كسب لهم الحرب العالمية الثانية.

وكان مارشال بخلفيته العسكرية يعتز بآرائه وخبرته، ويعتز أيضا بحقيقة أنه غير حزبى. لكنه بتلك الصفة أيضا كان يلاحظ أن دوافع ترومان فى مساندته المطالب الصهيونية فى فلسطين لا علاقة لها بالمصالح الأمريكية الحقيقية فى الشرق الأوسط.. وهى التى يأتى فى مقدمتها البترول الذى أكدت الحرب العالمية الثانية مدى أهميته الإستراتيجية مستقبلا. ثم إن الولايات المتحدة بدأت تواجه الاتحاد السوفيتى مؤخرا بسياسة من الاحتواء والحصار حتى لا يتمدد بنفوذه وعقيدته. وأى موقف أمريكى سافر لفرض تقسيم فلسطين انحيازا إلى المشروع الصهيونى سيفتح بابا ذهبيا فوريا أمام الاتحاد السوفيتى فى المنطقة استثمارا لمشاعر الغضب والمرارة التى بدأت تلوح فى أفق المنطقة ضد الدعم الأمريكى السابق لقرار التقسيم. وبخلفيته العسكرية كان مارشال يتفهم أيضا قلق هيئة الأركان المشتركة من الفراغ الحتمى الذى سيخلقه انسحاب بريطانيا عسكريا من فلسطين اكتفاء بوجودها فى مصر والعراق وشرق الأردن. ولعل مارشال هنا كان يعرف أن القرار السياسى البريطانى بإنهاء الانتداب والخروج من فلسطين كان يعارضه العسكريون البريطانيون من البداية. ففى تقرير لرؤساء الأركان (٢٦ / ٩ / ١٩٤٧) إلى مجلس الوزراء البريطانى اتفق الجميع على أنه إلى جانب الأهمية الإستراتيجية الفائقة لبترول المنطقة فإن الدفاع عن مصر وقناة السويس يستلزم السيطرة على فلسطين.. إلخ.

لم يكتب جورج مارشال مذكراته لكى نعرف منها أفكاره ومشاعره وهو يتوجه إلى ذلك الاجتماع الطارىء العاجل الذى طلبه مع الرئيس ترومان. كان اليوم هو الاثنين ٢٢ مارس (١٩٤٨) وقد صحب مارشال معه مساعده لوى هندرسون. ولابد أن هندرسون أبلغ وزيره تفاصيل ذلك الاستجواب الذى تعرض له سابقا فى اجتماع محدود برئاسة ترومان.

كان ترومان مرتعشا قبل ٤٨ ساعة فقط خشية أن يظن حاييم وايزمان أنه كذب عليه فى تعهده الاستمرار فى دعم خطة تقسيم فلسطين. لكنه الآن، فى استقباله لجورج

مارشال، أصبح أكثر هدوءا فى تصرفاته وكلماته بحيث: إنه يقول فى إذعان واضح لمارشال إنه يقر بأنه أعطى موافقته على فكرة الوصاية كخطوة متوسطة. لكن ما يكدره هو فقط توقيت إعلانها . ولم يفصح الرئيس لوزير خارجيته عن التعهدات السرية التى أعطاها لحاييم وايزمان، ولا حتى أنه استقبله قبل أربعة أيام.

أما وايزمان نفسه المفترض أن يكون الشخص الأكثر إحساسا بنكوص ترومان عن تعهداته السرية له فقد تصرف على نحو مفاجىء. لقد اتصل من لندن بإدوارد جاكوبسون الوسيط بينه وبين ترومان ليطلب منه ألا يصاب باليأس والإحباط من التغيير الأخير الذى أعلنته الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة لأنه واثق تماما بأن ترومان سيفى بكل تعهداته السرية. وأضاف وايزمان: أرجوك ألا تنسى أن صديقك هذا هارى ترومان هو بمفرده أقوى شخص فى العالم وبالتإلى فعليك مسئولية الإبقاء على البيت الأبيض مفتوحا أمامنا .

كان هذا فى الدبلوماسية السرية. أما فى العلانية فقد استمر الصهيونيون فى ضغطهم المباشر على الرئيس الأمريكى وابتزازه المتصاعد ومعاملته بعدم احترام وبوضاعة وخسة على حد تعبيره هو لأسباب عدة أهمها طموحه المحموم بالفوز فى انتخابات الرئاسة الوشيكة رغم التدنى المستمر فى شعبيته. وهكذا فى أول مؤتمر صحفى عقده ترومان بعد تحول الموقف الأمريكى من تبنى قرار تقسيم فلسطين إلى بسط وصاية الأمم المتحدة عليها، حاصره الصحفيون الصهيونيون بالأسئلة. وترومان يرد بأن الموقف الأمريكى الجديد بالدعوة إلى فرض وصاية الأمم المتحدة على فلسطين بدلا من تقسيمها لن يؤدى بالضرورة إلى إلحاق الضرر بطبيعة التسوية النهائية . تلك بالطبع كانت إشارة ملتوية إلى الصهيونيين مفادها أن زمام الأمور لم يفلت من بين يديه بعد، وأنه سيجد طريقة أو أخرى لنقض آراء كل أجهزة الحكومة الأمريكية. والصحفيون يحاصرونه من جديد: هل لايزال يؤيد خطة تقسيم فلسطين إلى دولتين ولو فى مرحلة ما مستقبلا؟ وترومان يرد: هذا ما أحاول أن أقوله هنا بقدر ما أستطيعه من توضيح!

من المفهوم هنا أن كاتب سيرة حياة ترومان يركز على دوره الشخصى كرئيس لأمريكا فى دفع المشروع الصهيونى أماما، وهو دور ربما بغيره كان التاريخ سيتخذ مسارا آخر. لكن هذا لا يجعلنا نغفل الحقائق على الأرض التى كانت الوكالة اليهودية تقيمها على

أرض فلسطين وبتواطؤ مستتر من سلطة الانتداب البريطانية حتى نهاية الحرب العالمية على الأقل.

أقامت الوكالة اليهودية نموذج الكيبوتزات فى فلسطين والتى هى مزارع جماعية محكمة التنظيم، وبينما كانت نسبة الأمية طاغية بين الفلسطينيين فإن الوكالة أقامت منذ وقت مبكر الجامعة العبرية فضلا عن حرصها على أن يكون من تنظم تهجيرهم من يهود أوروبا إلى فلسطين من الشباب المتعلمين المؤهلين للخدمة العسكرية. وبينما كانت قيادات الفلسطينيين منقسمة على نفسها فى تلك المرحلة الحاسمة كان التنسيق كاملا بين الوكالة اليهودية ويمثلها فى فلسطين ديفيد بن جوريون والمنظمة الصهيونية العالمية ويمثلها حاييم وايزمان.

وبالتنظيم والتنسيق والتمويل أصبح يهود فلسطين فى تلك المرحلة الحاسمة يكادون يشكلون دولة كما لاحظت سلطة الانتداب البريطانى نفسها، فقد كانت لهم سلطة تنفيذية تمثلها الوكالة اليهودية ومجلسهم التشريعى (فعاد ليومى) وتنظيمهم النقابى العمالى (الهستدروت) وكذلك تنظيماتهم العسكرية الخاصة. وفى تقرير سرى للمخابرات البريطانية أن تنظيم الهاجاناه الذى يعده اليهود كنواة لجيشهم الخاص كان يتشكل من ٧٥ ألف مقاتل، من بينهم قوة ضاربة من خمسة آلاف مقاتل تسمى البالماخ .. بخلاف قوة الأرجون وتشكيلات أخرى لممارسة أعمال التخريب والاغتيالات وتضم ما بين خمسة إلى ستة آلاف مقاتل.

وهذا التقرير البريطانى تفادى الإشارة إلى أعضاء اللواء اليهودى الذين نظمتهم بريطانيا للقتال لحسابها فى الحرب العالمية الثانية. وبمجرد انتهاء الحرب انضموا سرا إلى التنظيمات اليهودية المسلحة بفلسطين، هم ونظرائهم القادمين من جيوش غربية أخرى، وقبل أن تعدل بريطانيا من سياستها إلى إنهاء الانتداب كان إيرنست بيفن وزير خارجيتها ينتهز فرصة اللقاء مع مسئولين أمريكيين ليشكو لهم من أن معظم الأسلحة التى تقوم الوكالة اليهودية بتهريبها إلى يهود فلسطين مشتراة بأموال جرى جمعها فى أمريكا.

وبينما كان موعد انتهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين يقترب كان ملفتا تماما إصرار بريطانيا على عدم السماح للجنة محايدة بحكم فلسطين بعد جلائها ولو بشكل

مؤقت.. وكذلك رفض بريطانيا دخول مندوبى الأمم المتحدة إلى فلسطين إلا قبل أيام قليلة من انسحابها.. مع معرفة بريطانيا المؤكدة بأن التنظيمات اليهودية فى فلسطين هى الأكثر استعدادا لوضع اليد على منشآت ومراكز السلطة أولا بأول بمجرد خروج بريطانيا منها.

هذا يعيدنا إلى الرئيس الأمريكى هارى ترومان وسيرته الذاتية ودوره الحاسم فى تلك المرحلة الفاصلة من مصير فلسطين. ففى مساء السبت ١١ أبريل عاد إدوارد جاكوبسون الصديق والشريك القديم لترومان فى تجارة الملابس إلى البيت الأبيض متسللا كالعادة من باب جانبى. الهدف فى هذه المرة هو التأكد من وعوده السابقة إلى حاييم وايزمان. وترومان يبلغه و فى شكل قوى جدا بأنه لم يتراجع عن وعوده، بل ويضيف الآن وعدا سريا آخر هو أنه سيعترف بالدولة اليهودية الجديدة إثر قيامها.

ومبكرا فى الشهر التالى طلب ترومان من صديقه ومستشاره القانونى فى البيت الأبيض كلارك كليفورد أن يعد له ورقة بحيثيات الاعتراف الأمريكى بالدولة اليهودية الجديدة (رغم أنها ماتزال بغير اسم) استعدادا لاجتماع مصغر سيعقده بهذا الخصوص.

وفى الرابعة بعد ظهر ١٢ مايو ١٩٤٨، أى قبل موعد انتهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين بيومين، بدأ هذا الاجتماع المصغر فى مكتب الرئيس ترومان، وحضره جورج مارشال وزير الخارجية وروبرت لوفيت وكيل وزارة الخارجية واثنان من مساعديهما. أما من البيت الأبيض فلم يكن هناك سوى الرئيس ترومان نفسه، وكليفورد مستشاره ثم ديفيد نيلز مساعده اليهودى الصهيونى لشئون الأقليات.

وافتتح الرئيس الاجتماع بملاحظات تمهيدية قليلة لم يشر فيها إلى مسألة الاعتراف بالدولة اليهودية الوشيكة. ثم استدار إلى مارشال الذى أومأ بدوره إلى لوفيت ليطرح وجهة نظر وزارة الخارجية. وبدأ الأخير يكرر الموقف الثابت للوزارة، وهو أن تقسيم فلسطين غير عملى، ومن ثم فإن وزارة مستمرة فى إصرارها على فكرة تكليف الأمم المتحدة بالوصاية على فلسطين.

وفى تلك النقطة تدخل وزير الخارجية مارشال بملاحظة موجزة قائلا إنه تحدث مؤخرا مع موشى شيرتوك من الوكالة اليهودية وانتهز تلك الفرصة ليحذره من أن اليهود عسكريا يباشرون مغامرة خطرة جدا فى فلسطين، وإذا تحول التيار ضدهم فليس هناك

أى شىء يضمن لهم الحصول على مساعدة الولايات المتحدة.

عندئذ أعطى ترومان الكلمة إلى مستشاره كليفورد، فانطلق فى الحديث، إلى أن وصل إلى ضرورة إعلان الاعتراف الأمريكى بالدولة اليهودية بحجة أن على الولايات المتحدة أن تسبق الاتحاد السوفيتى فى ذلك وتعلن اعترافها سلفا فى اليوم التالى مباشرة أى ١٣ مايو. كانت فكرة الاعتراف الأمريكى بالدولة اليهودية بمجرد قيامها فى فلسطين مفاجئة بالكامل لجورج مارشال وزير الخارجية، فتدخل غاضبا ومحتجا وموجها كلماته إلى الرئيس ترومان مباشرة قائلا: هذه مجرد مناورة سياسية صريحة. إننى حتى لا أفهم.. ما الذى جعل كليفورد يجلس معنا هنا؟ هذا ليس اجتماعا انتخابيا..

وبهدوء ونعومة قال ترومان: يا جنرال.. إنه موجود هنا لأننى طلبت منه ذلك .

واستأنف كليفورد مرافعته طوال الربع ساعة التالى. أما الوزير مارشال فقد ظل يحدق فيه طول الوقت كاظما غضبه والشرار يتطاير من عينيه، خصوصا وهو يقول إن الاعتراف الأمريكى بالدولة اليهودية سيكون متماشيا تماما مع ما كان الرئيس يسعى إليه من البداية.. و بصرف النظر عن ما تفكر فيه وزارة الخارجية أو أى أحد آخر.. لابد من قيام دولة يهودية .

وهنا تدخل رفيت وكيل وزارة الخارجية متسائلا بحدة: كيف نتحدث أولا عن الاعتراف بدولة لا وجود لها؟ بل حتى من غير أن تصبح لها حدود معروفة؟ ولا حتى حكومة؟ إن القضية كلها يجب أن تظل من اختصاص الأمم المتحدة. وأى موقف أمريكى آخر سيكون كارثة تصيب مكانة الولايات المتحدة وهيبتها فى الأمم المتحدة.. وسيبدو الأمر باعتباره مزايدة صريحة وواضحة جدا للحصول داخليا على الأصوات اليهودية (لصالح الرئيس ترومان) فى الانتخابات الرئاسية القادمة.

وهنا تدخل الوزير مارشال قائلا إن كل مقترحات وأفكار كليفورد خاطئة والاعتبارات السياسية للحزب الديموقراطى (أى سعى ترومان إلى إعادة انتخابه) يجب ألا تقرر السياسة الخارجية للولايات المتحدة، فمنصب الرئيس هو من الرفعة بما يجعله أسمى من ذلك. ثم حدق مارشال مباشرة فى وجه الرئيس قائلا له بكلمات رزينة: سيادة الرئيس.. إذا كنت ستأخذ بمشورة كليفورد، وإذا قدر لى أن أدلى بصوتى فى انتخابات الرئاسة القادمة فإننى سأصوت ضدك..

عند هذا الحد وصل التوتر فى الاجتماع إلى الذروة، وكما سجل كليفورد فيما بعد فإن كلمات الوزير مارشال تلك كانت توبيخا عنيفا وغير عادى بالمرة ضد ترومان .. وهى أشد المرات حدة على الإطلاق التى يتلقى فيها ترومان مثل هذا التوبيخ خصوصا وأنه يصدر من مارشال أعظم شخصية فى هذا العصر والذى أعطى انضمامه إلى إدارة ترومان ثقلا كانت تفتقده. لقد أصيب ترومان بالصدمة. وبكلمات كليفورد أصيب الرئيس فورا بانقباض بالغ وطغى على الاجتماع صمت مطلق ومرعب .

ثم تمالك ترومان نفسه قائلا إنه واع تماما بالمصاعب والأخطار الكامنة فى الموقف وكذلك المخاطر السياسية التى قد يواجهها هو نفسه. إنه يميل إلى الإتفاق مع الجنرال مارشال، لكنه يفضل أن ينام الجميع الليلة على تلك المسألة.

ونهض مارشال منصرفا مع فريقه من الاجتماع بوجوه متجهمة ومتوترة. أما كليفورد فقد بقى مع ترومان ليقول له باعتبارى محاميا فإننى خسرت قضايا من قبل . لكن ترومان رد عليه: دعنا نعتقد بأننا لم نخسر القضية.. بعد.

كان المأزق الأساسى لهارى ترومان هو انحطاط شعبيته فى استطلاعات الرأى وإدراكه الجازم بأن جورج مارشال لو اختار أن يستقيل الآن فإنه سينسف تماما الفرصة الضئيلة القائمة لاحتمال فوزه بسبب الشعبية الهائلة لوزير الخارجية. لكن الوجه الآخر للمشكلة يكمن فى التعهدات السرية التى أعطاها ترومان للصهيونيين من دون علم وزير خارجيته ووزير دفاعه بل حكومته كلها. من هنا اختار ترومان المناورة بحرص والتواء ونعومة. فبعد ذلك الاجتماع أصبح كل ما يحتاج إليه ترومان، ليس إقناع مارشال بتسهيل قيام الدولة اليهودية فى فلسطين حيث لن يغير مارشال موقفه مطلقا. فقط يريد ترومان ضمان عدم خروج مارشال باعتراضاته إلى العلن حتى لا يجعل عإليه سافله. وفى اليوم التإلى ١٤ مايو ١٩٤٨ بعث ترومان إلى مارشال بصديق مشترك ليستحلفه كرجل عسكرى بكتمان اختلافه مع الرئيس حتى لا يقضى عليه انتخابيا ونهائيا.

فى اليوم نفسه أصبح معروفا أن الصهيونيين فى فلسطين سيعلنون قيام دولتهم الجديدة عند منتصف الليل (السادسة مساء بتوقيت واشنطون) . وبتكليف من ترومان أسرع كليفورد إلى الاتصال بإلياهو أبستين المسئول عن فرع الوكالة اليهودية فى واشنطون ليخبره بأن بيان الاعتراف الأمريكى سيصدر من البيت الأبيض خلال ساعات، وطلب منه

أن يجهز الورقة المطلوبة ويحملها إلى البيت الأبيض. وقال له مندوب الوكالة اليهودية: إننى لا أعرف بعد الاسم الرسمى للدولة، فهم لم يستقروا عليه فى تل أبيب حتى الآن.

ورد عليه مستشار الرئيس ترومان: لا يهم.. اترك مساحة بيضاء فى الورقة نكتب فيها لاحقا الاسم الرسمى للدولة حينما نعرفه. المهم أن تفعل ذلك الآن وتجىء لى بتلك الورقة فورا فى البيت الأبيض. وفعلا، بعد ١١ دقيقة من إعلان ديفيد بن جوريون فى فلسطين عن قيام الدولة الجديدة، وباسم إسرائيل، تلا ناطق باسم الرئيس ترومان فى واشنطون بيان الاعتراف، لتصبح الولايات المتحدة أول دولة تفعل ذلك فى العالم.

وكان لتلك الخطوة وقع الصاعقة على الوفد الأمريكى فى الأمم المتحدة بنيويورك، إذ كان الوحيد الذى أمكن إخطاره قبل دقائق بهذا الانقلاب الخطير فى الموقف هو السفير أوستن رئيس الوفد، الذى من فرط ذهوله وغضبه انصرف على الفور من مبنى الأمم المتحدة إلى منزله من دون أن ينطق بكلمة.

أما باقى أعضاء الوفد الأمريكى فاعتبروا الخبر مجرد نكتة سخيفة. لكنهم ما أن تأكدوا من أن الأمر جاد قرروا جميعا اتخاذ موقف حاسم ضد هذا الانقلاب المذهل من البيت الأبيض.

وفى واشنطون عرف وزير الخارجية مارشال بتلك الثورة العارمة بين أعضاء الوفد فاضطر إلى استدعاء دين راسك رئيس إدارة شئون الأمم المتحدة فى الوزارة ليكلفه بالتوجه فورا إلى نيويورك والاجتماع مع أعضاء الوفد الأمريكى وإقناعهم بالرجوع عن الاستقالة الجماعية التى قرروا تقديمها، لأنها ستجعل من صورة الولايات المتحدة دوليا فضيحة عظمى.

قامت إسرائيل إذن. واحتفظ جورج مارشال بصمته طوال الأشهر الخمسة التالية إلى أن جرت الانتخابات وفاز فيها ترومان بهامش ضئيل جدا، ثم أخطره مارشال بأنه يرفض الاستمرار فى العمل معه وزيرا للخارجية أو أى منصب آخر. لقد قرر اعتزال الحياة العامة كاملا. وخلال أسابيع نقل ترومان عددا من كبار خبراء وزارة الخارجية المسئولين عن الشرق الأوسط وفى مقدمتهم لوى هندرسون الذى جرى تعيينه سفيرا لأمريكا فى الهند حتى يبتعد تماما عن ما يتعلق بفلسطين أو الشرق الأوسط.

أما إدوارد جاكوبسون صديق وشريك ترومان القديم فى البيزنيس والتجارة وحلقة

اتصال الصهيونيين معه فقد دخل إلى البيت الأبيض مرة أخرى ليقدم أوراق اعتماده كأول سفير لإسرائيل رسميا فى واشنطون، والأوراق موقعة من حاييم وايزمان الرئيس الأول لإسرائيل.

وأصبح قيام إسرائيل فى المنطقة زلزالاً متعدد الأبعاد لم تشهد له المنطقة مثيلا منذ قرون. وفى بعده الأمريكى أصبحت مواقف ترومان عنوانا لصدمة عربية غير مسبوقة. فحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت صورة أمريكا فى المنطقة وردية تماما ومستمدة غالبا من أفلام هوليود. الآن يستيقظ ملايين العرب على وجه مستجد لأمريكا يفرض وقائع جديدة وخرائط جديدة. لقد انتهى زمن البراءة. وبدأت الدماء تسيل.

الفهرس

إهـداء ٣
جملة مفيدة ٥
مقدمة ٧
- كل شىء بدأ وانتهى بهذه المكتبة ١٢
- تصدير العقل المصرى ١٩
- لكن الفقيد على قيد الحياة ٢٤
- ومن النجوم ما تكنسه الرياح! ٢٨
- تورا.. تورا.. تورا! ٣٥
- زغرودة عبدالوهاب الغائبة ٤١
- أصول اللعبة.. .... ٤٥
- لو ضحك السياسيون قليلا! ٥١
- السياسة بأثر رجعى ٥٨
- التاريـخ البديـل ٦٣
- فى الوجه السفلى للعلاقات الدولية ٦٩
- مصر والصين .. سلامات ٧٥
- ثروات صاحبهـا غائب ٨٠
- التغيير الـذى نريـده ٨٧
- دروس متجددة ٩٢
- حينما تتحدث الأمبراطوريات ٩٧
- مشوار لكل جيل ١٠٢
- من أين يبدأ الجحيم؟ ١٠٩
- جبل من الخديعة ١١٤
- عـراق أمريكا أسئلـة أكثـر وإجابـات أقـل ١٢٠
- رئيـس ضـد كـل حكومتـه ١٢٦
- ربـع ساعـة قبـل إسرائيـل ١٣٣

بطاقة الفهرسة

عوض، محمود، ١٩٤٢ - ٢٠٠٩

الدنيا التى كانت /محمود عوض

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٢١

١٤٤ ص ٢٠ سم .(كتاب اليوم، رقم ٦٩٣)

تدمك: ٥-١٨٧٢ - ٠٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١- مصر - الأحوال السياسية

٢- مصر - الأحوال الاقتصادية

أ-العنوان

٣٢٠/٩٦٢

رقم الإيداع: 2021/4682

الترقيم الدولى I.S.B.N

978 - 977 - 08 - 1872-5

هـذا الكتـاب قطعـة مـن قلـب عندليب الصحافة الكاتب الصحفى الراحل محمود عوض وبعض من دفتر أحوال حال الدنيا وجانب من صور طبق الأصل وبعض من على بياض وشىء من دنيا كاتب أحب القلم وأفنى حياته وعينه دائماً على القارئ ..

كاتب غاص فى أعماق التاريخ واستخلص دروسه وفخاخه وطاف بين كبريات المكتبات واطلع على أحدث الكتب والإصدارات وقدم لنا عصارتها. فظلت كتاباته تزداد قبولاً وبريقاً كلما مر عليها الزمن.

كتاب اليوم

21
6 222007 800184

السعر
٢٥جنيهاً